

أجل العشب القلقشبنك

وكتابه "صبح الأعشى"

تأليف
نخبة من الأساتذة

نقدم: الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية



أَجْزَالُ الْعَبْدِ الْقَلْبُ شَبْدُكَ

وكتابه "صبح الأعشى"

جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

- ١٣٨ -

(٩٣)

(٦٨)

تأليف

أحب

القاهرة
١٣٩٢ هـ - ١٩٧٣ م

إهداء 2005

أ/ إبراهيم منصور غنيم
القاهرة

أجل العبد القلقشندك

وكتابه "صبح الأعشى"

تأليف

نخبة من الأساتذة

بمقتضى: الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية



المهنة للصبرية المساهمة للكتاب

فهرس

| الموضوع | الصفحة |
|---|---------|
| أبو العباس القلقشندي وكتابه « صبح الأعشى » | ٧ |
| تقديم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم | |
| أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى | ١١ |
| بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان | |
| كتاب «صبح الأعشى» مصدر لدراسة تاريخ مصر في العصور الوسطى | ٢٣ |
| بقلم الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور | |
| فن الكتابة عند القلقشندي | ٧١ |
| بقلم الدكتور جمال محرز | |
| ديوان الانشاء - نشأته وتطوره | ٨١ |
| بقلم الدكتور حسن حبشي | |
| الجانب الأثرى فى كتاب « صبح الأعشى » | ٩٧ |
| بقلم الدكتور أحمد دراج | |
| وثائق القلقشندي فى « صبح الأعشى » | ١١٧ |
| بقلم الدكتور عبد القادر أحمد طليعات | |
| علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية فى ضوء وثائق « صبح | |
| الأعشى » | ١٤٥ |
| بقلم الدكتور جوزيف نسيم يوسف | |
| نظرة جغرافى فى « صبح الأعشى » | ٢٠١ |
| بقلم الدكتور محمد محمود الصياد | |
| الجانب الأدبى فى « صبح الأعشى » | ٢١٥ |
| بقلم الدكتور مصطفى الشعبة | |

تقديم

بقلم: الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

تحرص الجمعية المصرية للدراسات التاريخية على أن تنهض بواجبها كاملاً في خدمة التاريخ القومي للأمة العربية والعمل على إحياء التراث التاريخي لهذه الأمة ، وإبراز أهمية أعلام العرب ومفكرهم ، وفضلهم على الحضارة الإنسانية بوجه عام .

وتحقيقاً لهذه الرسالة الضخمة لا تترك الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مناسبة قومية عربية أو ذكرى علم من أعلام الفكر العربي إلا وتحرص على إحيائها بطريقة علمية عن طريق الندوات أو المحاضرات أو الأبحاث التي يشترك فيها صفوة من علماء الأمة العربية ومؤرخيها من أساتذة الجامعات وغيره :

وقد اهتمت الجمعية — منذ عامين بإحياء ذكرى أعظم مؤرخي مصر في العصور الوسطى وهو « تقي الدين أحمد المقرئ » فأقامت بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية على مدى سبعة أيام ندوة علمية شارك فيها فريق من كبار الأساتذة فألقوا عدة محاضرات تناولت حياة المؤرخ الكبير ومنهجه وكتبه والعصر الذي عاش فيه ، ثم جمعت هذه المحاضرات في كتاب صدر في المكتبة العربية منذ شهور .

١٠

وفي اليوم الأول من إبريل سنة ١٩٦٨ أقامت الجمعية ندوة

لدراسة علم آخر من أعلام المؤرخين المصريين في العصور الوسطى
وهو : « أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى » بمناسبة مرور
٥٥٠ عاما على وفاته .

وهو أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله المنسوب إلى بلدة
قلقشندة — أو كما ذكرها ياقوت قرقشندة — من قرى القليوبية
بمصر : فهو مصري صميم ، ولد في صميم الريف المصري :
وكما أنه عريق في مصريته ، فهو كذلك أصيل في عروبه ، إذ يرجع
أصله إلى بني بدر بن فزارة من قيس عيلان ، وهو نسب
لم ينكره عليه أحد من كتبوا عنه . وقد وفدت هذه القبيلة إلى مصر
مع الفاتحين العرب لها لأول مرة ؛ واستقر بها المقام ، ثم أخذت
ببطونها تتوافد على مصر جيلا بعد جيل ، واتصلت بالأسر المصرية مصاهرة
واختلطت بها .

وقد ولد القلقشندي سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) وتوفي سنة ٨٢١ هـ
(١٤١٨ م) فيكون قد مرت على وفاته الآن ٥٥٠ سنة ميلادية .

وقد نرح القلقشندي في شبابه إلى الاسكندرية طلبا للعلم ، وهناك
تلمذ على كبار علماء عصره ، وأجاز له شيخ العلماء سراج الدين
ابن الملقن بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي سنة ٧٧٨ هـ :
وفي تلك الإجازة وصف الأستاذ تلميذه بأنه « ممن شب ونشأ في طلب
العلم والفضيلة ، وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة ، وصحب
السادة من المشايخ والفقهاء ، والقادة من الأكابر والفضلاء ،
واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالا يرضى . . . »

على أن نقطة الانطلاق في حياة القلقشندي ، كانت التحاقه
بديوان الإنشاء سنة ٧٩١ هـ ، والظاهر أنه لم يترك هذا الديوان حتى
وفاته سنة ٨٢١ هـ زمن السلطان المؤيد شيخ الغمودي . وترجع أهمية
ديوان الإنشاء في ذلك العصر إلى أنه كان بمثابة وزارة الخارجية ،
فهو الديوان الكبير الذي ترد إليه جميع المكاتبات إلى السلطان من

داخل دولته وخارجها ، وتصدر عنه جميع المكاتبات على لسان السلطان إلى ملوك الدول وحكامها الذين ربطتهم بسلطنة المماليك علاقات ودية أو عدائية . ومعنى هذا أن القلقشندي بعمله في ديوان الإنشاء كان أميناً على أسرار الدولة ، مطلعاً على خفايا الأرشيف الرسمي الجامع لأسرارها ، فأتيح له — عند وضع كتابه « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » — فرصة ذهبية لم تتح لغيره من علماء عصر المماليك ومؤرخيه .

والواقع أن القلقشندي كان مؤلفاً نشيطاً ، كتب كثيراً من المؤلفات الأخرى ، منها كتاب « ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر » وهو مختصر لكتاب صبح الأعشى ، ولم يطبع منه سوى الجزء الأول سنة ١٣٢٤ هـ ؛ وكتاب « قلائد الجمان في قبائل العربان » ؛ وكتاب « نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب » ؛ وكتاب « الغيوث الهوامع في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع » ، وكتاب « مآثر الإنافة في رسوم الخلافة » . . . وغيرها من عديد الكتب والمؤلفات التي لم يطبع منها سوى القليل .

على أن أهم مؤلفات القلقشندي جميعاً هو كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، وهو الموسوعة الضخمة التي طبعت في أربعة عشر جزءاً ، والتي تعتبر سجلاً ضخماً للحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية في مصر طوال العصور الوسطى : ذلك أن القلقشندي بما توصل إليه من علم ومعرفة ، وبما كان تحت يده من وثائق ورسائل ، أمكنه أن يقدم لنا في هذه الموسوعة قدراً ضخماً من المعلومات المتنوعة التي لا نجد لها شيئاً في أى مرجع معاصر :

ولذا كانت هذه هي مكانة القلقشندي وكتابه صبح الأعشى ، فمن حقه اليوم — وقد مضى على وفاته ٥٥٠ عاماً ميلادياً — أن يحظى بتكريم العلماء والمفكرين في الوطن العربي بوجه عام ومصر بوجه خاص :

وإنه لما يشرف الجمعية المصرية للدراسات التاريخية أن تقيم بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية هذه الندوة تكريماً للذكرى المئوية للثورة ، وقد أسهم في هذه الندوة مجموعة الأساتذة المتخصصين الذين حاضروا في حياة المؤرخ الكبير وكتبه وعصره كما تقدم بعض الأساتذة بأبحاث أخرى ، ويتضمن هذا الكتاب الذى يسرنا أن نقدمه نصوص المحاضرات التى ألقىت والأبحاث التى قدمت . ونحن إذ نشكر حضراتهم لما بذلوه من جهد لمساعدة الجمعية في تحقيق رسالتها . لا يفوتنا أن نذكر بالشكر والامتنان والتقدير المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية لمساهمته الفعالة في إنجاح هذه الندوة عن طريق مساعدته الأدبية والمادية ، فضلاً عن قيامه بطبع هذا الكتاب وفاء للذكرى علم كبير من أعلام التاريخ العربى ٥

والله ولى التوفيق :

دكتور

احمد عزت عبد الكريم

١

أبو العباس القلقشندي
وكتابه "صبح الأعشى"

"بقلم: الأستاذ محمد عبد الله عنان"

بلغت الحياة الفكرية والأدبية في مصر الإسلامية ، ذروة النضج والازدهار في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ، ففي هذين القرنين ، تحتشد أكبر جمهرة من العلماء والكتاب من كل فن وضرب ، وفيهما تنص القاهرة بأكابر العلماء الوافدين عليهما من المشرق والمغرب ، تجذبهم نهضة الفكرية ، وأزهرها التالذ ، وبلاطها المستنير ؛ حامى الآداب والعلوم . . ويمتاز القرن الثامن في مصر ، بظاهرة فكرية خاصة ، هى أنه عصر الموسوعات العلمية والأدبية الكبرى : فقد ظهرت فيه طائفة من العلماء ، الذين توفروا على جمع أشات العلوم والفنون المعروفة يومئذ ، فى مؤلفات جامعة لم تعرفها الآداب العربية من قبل ، وكتبت فيه عدة موسوعات جلية ، ما زالت تثبوا مقامها الفذ ، فى تراث الأدب العربى ، وأقطاب هذه الحركة ، ثلاثة من أكابر العلماء والكتاب المصريين ؛ هم : أحمد بن عبد الوهاب النويرى ، المتوفى سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) صاحب كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، وأحمد بن فضل الله العمري ، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) ، صاحب كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ، وأبو العباس الفلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) صاحب كتاب « صبح الأعشى فى كتابة الإنشا » .

وإنه من التجاوز والتواضع ، أن نسمى هذه المؤلفات المدهشة كتباً ، فهى فى الواقع موسوعات ضخمة شاسعة ، لا تدل أسماؤها على حقيقة محتوياتها ، ومن الصعب أن نصف مؤلفيهم بأنهم كتاب أو أدباء من نوع معين ، فهم فى الواقع علماء موسوعات (إنسيكلوبيديون) ، امتازوا

بالتمكن والتوسع في كثير من علوم عصرهم ، واستطاعوا بكثير من الجهد والجلد ، أن يجمعوا أشتاتها في أسفار منظمة متصلة ، وأن يجعلوا من هذا النوع من الكتابة ، فناً خاصاً ، لا يستطيع أن يضطلع به سوى القليل من العلماء أو الكتاب ، الذين يتمتعون بمواهب خاصة وقد وجدت فكرة الموسوعات العامة في الأدب العربي قبل القرن الثامن ، ولكنها لم تصل من قبل إلى مثل هذا التوسع في النوع ، وهذا التبسط في المادة . ويكفي أن نصفح أثراً من هذه الآثار الجامعة لنذكر أى جهود مدهشة ، وأى مواهب وكفايات ممتازة ، اتحدت في شخص بمفرده ، لتخرج هذا الأثر الضخم ، الذى تشعبت مناحيه وموضوعاته بصورة مدهشة ، وبلغت مع ذلك حداً بعيداً من الاتصال والتنسيق ، يجعل منها وحدة متماسكة ووثيقة العرى .

• • •

وسنخص بالحديث في هذا البحث ، كتاب « صبح الأعشى » أحد هذه الآثار الجامعة ، ويحسن بنا أن نبدأ بالتعريف بصاحب هذه الموسوعة . ففى التعريف به ، ما يفسر توافره على هذا النوع من التأليف الجامع ، ومن الأسف أن كتب التراجم لم تقدم لنا الكثير عن القلقشندى ، وقد تحدثت عنه بمنتهى الإيجاز صاحب النجوم الزاهرة ، وكذلك العماد الحنبلى فى شذرات الذهب ، كل منهما فى وفيات سنة ٨٢١ هـ ، ولم يذكرنا تاريخ مولده ، غير أنهما يقولان إنه توفى عن خمسة وستين عاماً ، أعنى أنه قد ولد وفقاً لذلك فى سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) . وهذا ما يذكره السخاوى صراحة فى « الضوء اللامع » ، ويزيد عليه بعض تفاصيل يسيرة .

وهو القاضى شهاب الدين أحمد بن على بن أحمد القلقشندى ، ولد بقلقشندة إحدى قرى قليوب ، فى العام السالف الذكر ، ودرس بالقاهرة والإسكندرية على أكابر شيوخ العصر ، وتخصص فى الأدب والفقه الشافعى ، وبرع بالأخص فى علوم اللغة والبلاغة والإنشاء ، ونولى بعض الوظائف الإدارية مدى حين . بيد أن يراعتة فى الكتابة والإنشاء

لفتت إليه أنظار رجال البلاط ، ومهدت إليه سبل الاضطلاع بالمنصب الذى تؤهله له مواهبه الأدبية والفنية ، وهو العمل فى ديوان الإنشاء ، فالتحق بخدمة هذا الديوان حسبما يقول لنا فى مقدمته فى سنة ٧٩١ هـ ، فى عهد السلطان الظاهر برقوق . . وقد كانت لديوان الإنشاء فى هذا العصر أهمية خاصة ، وكان لا يعمل فيه سوى أقطاب النثر والبلاغة ، الذين تؤهلهم معارفهم الواسعة للوقوف على شئون الحكم والسياسة الداخلية والخارجية ، وسير العلاقات الدبلوماسية بين مصر وباقي الأمم ، ولديوان الإنشاء المصرى ، منذ أيام الدولة الفاطمية تاريخ حافل ، وقد لبث عصورا مدرسة أدبية زاهرة ، يجتمع فيها أقطاب الكتابة ، وأئمة النثر والبلاغة . وكان قد تولى رياسته قبله ذلك بنصف قرن كاتب ممتاز ، وعلامة جغرافى وسياسى بارع ، هو أحمد بن فضل الله العمرى . صاحب « مسالك الأبحار » ووضع عن نظم الكتابة والإنشاء الرسمية ، كتابه الشهير « التعريف بالمصطلح الشريف » وهو ما يقابل فى اصطلاح العصر ، مراسيم البروتوكول والمراسلات الدبلوماسية ، فكان ، حسبما يقول لنا القلقشندى فى مقدمته ، هو أنفوس الكتب المصنفة فى هذا الباب ، وكان بالرغم من إيجازه ، ونطاقه المحدود ، نواة للموسوعة الشاسعة التى وضعها القلقشندى فى نفس الموضوع ، ولبث القلقشندى أعواما يعمل فى ديوان الإنشاء ، ولعله استمر فيه حتى آخر عهد الظاهر برقوق (أعنى إلى سنة ٨٠١ هـ) أو بعد ذلك بقليل ، وفى تلك الفترة خطرت له فكرة وضع مؤلفه الكبير ، أعنى « صبح الأعرشى » . .

وقد بدأ القلقشندى فوضع فى هذا الباب رسالة موجزة ، يبين فيها ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ، وما تقتضيه من أصول ورسوم وأساليب ، فوقعت موقعا حسنا ، وأشير إليه - حسبما يقول لنا فى مقدمته - والظاهر أن الإشارة كانت من مصدر عال ، وربما كانت من السلطان نفسه ، إذ يقول لنا : إنه قد امتثل الأمر « بالسمع

والطاعة ، — أشير إليه أن يبسط الكلام في هذا الموضوع ، وأن يلحق رسالته بمؤلف جامع في أصوله وفنونه ، فصدع القلقشندي بالأمر ، واسترشد بما كتبه العمري من قبل في « المصطلح الشريف » وقضى أعواما طويلة في البحث والتنقيب ، واستخراج الوثائق والكتب والمراسلات الخلافية والسلطانية ، وغيرها من مختلف أصناف المكتابات الرسمية والدبلوماسية ، حتى اجتمعت لديه من ذلك مادة غزيرة لم يسبق أن اجتمعت من قبل لكاتب في موضوعه ، ورتب مؤلفه على مقدمة وعشر مقالات ، وإنا لندهش حقا ، إذا علمنا أن هذه المقدمة ، وهذه المقالات العشر تملأ أربعة عشر مجلدا ضخما ، وهي محتويات الموسوعة العظيمة ، التي سماها القلقشندي في مقدمته بكتاب « صبح الأعشى في كتابة الإنشاء » وقد يسمى أحيانا « صبح الأعشى في فنون الإنشاء » أو « صبح الأعشى في معرفة الإنشاء » أو « صبح الأعشى في قوانين الإنشاء » ، وذلك حسبما يسميه السخاوي في الضوء اللامع .

والظاهر أن القلقشندي قد بدأ كتابة مؤلفه الجامع حوالي سنة ٨٠٥ هـ إذا قدرنا أنه استغرق في وضعه عشرة أعوام ، فهو يقول لنا في مقدمته : إنه فرغ من تأليفه في شوال سنة ٨١٤ هـ .

ومن الصعب علينا أن نتقصى سائر المصادر التي اعتمد عليها القلقشندي في وضع موسوعته . ومن الواضح ، فيما يتعلق بمجموعة الوثائق والمراسلات الضخمة التي يوردها لنا في كتابه ، أنه اعتمد بنوع خاص على المحفوظات المصرية ، التي كانت تغص في عصره بمختلف الوثائق والمراسلات السلطانية والدبلوماسية ، التي تكدرت في ديوان الإنشاء خلال العصور المتعاقبة . بيد أن القلقشندي يذكر لنا إلى جانب ذلك ، خلال مؤلفه ، بعض الكتب التي رجع إليها ، واقتبس منها في الناحية الفنية من مؤلفه . ومن ذلك كتابي : « المصطلح الشريف » ، « والتثقيب » لابن فضل الله العمري ، وكتاب « مواد البيان » لعلي بن خلف من كتاب الدولة الفاطمية ، وكتاب « معالم الكتابة » لابن شيت ، وكتاب « الأوائل » لأبي هلال العسكري ،

وكتاب « الأموال » لأبي عبيد ، و « ذخيرة الكتاب » لابن حاجب النعمان ،
و « صناعة الكتاب » لأبي جعفر النحاس ، وكتابين آخرين لم يذكر لنا
مؤلفيهما ، هما كتاب « حسن التوصل » ، وكتاب « الدر المنقط »

وسوف نحاول ، أن نستعرض محتويات صبح الأعشى في شيء من
الإيجاز ؛ لأن العرض المفصل ، يقتضى مجالا شاسعا لا يتيسر لنا هنا .

ففي المقدمة ، يتناول القلقشندي الحديث عن المسائل والتعريفات
التمهيدية ، كالتنويه بفضل القلم والكتابة ، ومعنى الإنشاء ، وتطوره خلال
العصور ، وترجيح النثر على النظم ، وصفات الكتاب وآدابهم ، وتاريخ
ديوان الإنشاء وأصله في الإسلام ، ثم انتظامه بعد ذلك في مختلف الدول
الإسلامية ، وقوانين الديوان ومرتبة صاحبه ، ثم التعريف بوظائف
الديوان في مصر الإسلامية ، واختصاص كل منها في مختلف العصور
والدول ، وهذه المقدمة البديعة تصلح أن تكون وحدها مؤلفاً مستقلاً :

وفي المقالة الأولى ، يحدّثنا المؤلف عما يجب أن يستوعبه الكاتب من
مواد الإنشاء ، والمعارف اللغوية والأدبية ، وأحوال الأمم والأحكام
السلطانية ، لكي يستطيع أن يؤدي مهمته في وضع الوثائق ، والمراسلات
السياسية والإدارية على الوجه المرغوب ، وما يحتاج إليه الكاتب من أنواع
الأقلام والورق والحبر وغيرها ، ويتبع ذلك بنبذة شائقة في الخط العربي
وتاريخه .

وتتناول المقالة الثانية الحديث عن المسالك والممالك ، وهي استعراض
جغرافي ونظامي للدول الإسلامية منذ ظهور الإسلام . وفيه تفصيل خاص
لشئون الديار المصرية والشامية التي تتبعها ، وما يحيط بها أو يجاورها
من الأمم الأخرى ، إسلامية وغيرها :

وفي المقالة الثالثة تفصيل واف ، لترتيب المكاتبات وما يناسب
أنواعها من الأقلام وأحجام الورق قديماً وحديثاً ، وأنواع المراسم
ومصادرهما ، وأقلام الترجمة واختصاصها ، وفي فواتح الرسائل

وخواتمها ، مع تفصيل خاص لما يتعلق بذلك كله في ديوان الإنشاء المصري ،
وهذه مزية من أجل مزايا الكتاب ، فإذا كان المؤلف يتحدث بصفة عامة
عما يتعلق بموضوعه ، في مختلف الدول الإسلامية ، والعصور المختلفة ،
فإنه يخصص مصر دائماً بالنصيب الأوفى من الشرح والبيان .

وأما المقالة الرابعة فإنها حسبما يبدو من محتوياتها وحجمها ، أهم
مقالات الكتاب وأضخمها ، ويستهلها المؤلف بأن يقدم لنا فهرساً مطولاً
للألقاب الملوك وأرباب السيوف والعلماء والكتاب والقضاة ، مرتبة
على حروف المعجم ، وقد وردت به شروح لسائر الصفات والألقاب
التي نراها مدونة في مختلف الرسائل ، الخلافة والسلطنة والوزارية ،
والموجهة إلى أكابر رجال الدولة وأقطاب العلم والأدب ، ومن ذلك
ألقاب الخلفاء وولاة العهد والألقاب الملوكية والسلطانية ، وأرباب
السيوف والعلماء ، وأهل الصلاح ومشايخ الصوفية ، ومن ذلك أيضاً
ألقاب أكابر النصارى من البطارقة والملوك والملكات .

ثم يشرح لنا أساليب الكتابة ، من استفتاح ومقدمات ودعاءات
وصلوات وغيرها مما اصطلاح عليه .

ومن أهم فصول هذه المقالة ، فصل يعالج فيه القلقشندي مصطلحات
المكاتبات الدائرة بين ملوك أهل الشرق والغرب من جهة ، وكتاب الديار المصرية
في مختلف العصور ، منذ صدر الإسلام إلى عصره ، وهو الفصل الذي
يفتحه بذكر الكتب الصادرة من النبي العربي ، إلى زعماء الجزيرة وغيرهم
من أهل الكفر مثل كسرى وقيصر والنجاشي .

وبلى ذلك استعراض للمكاتبات الصادرة من الملوك إلى الخلفاء ،
ويقدم إلينا القلقشندي منها نماذج ، ومن ذلك رسالة صادرة من السلطان
الملك الناصر صلاح الدين إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، بفتح
بيت المقدس ، وفيها يعتق نفسه بالخدام والمملوك .

ويعنى القلقشندي عناية خاصة بالكتب الصادرة عن ملوك الديار

المصرية ، ويورد لنا الكثير منها . من ذلك ما هو موجه إلى نواب السلطنة ، وإلى العمال والقضاة ، ورجال الدولة ، في مصر والشام .

ومنها ما هو موجه إلى ملوك التتار وإيران وأرمينية وأذربيجان وأرزن وما وراء النهر .

وإلى ملوك المغرب في تونس وبجاية وقسنطينة وتلمسان والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى .

وإلى ملوك السودان والبرنو ، وملوك الروم والترك العثمانيين :

ثم المكاتبات الصادرة من ملوك الديار المصرية إلى ملوك الكفر من الروم والفرنجة والحبشة ، وإلى ملوك الغرب من جزيرة الأندلس ، والأرض الكبيرة ، (أى فرتسا) وقشتالة ولشبونة وأراجون ونبره . ثم إلى البابا وقيصر قسطنطينية وحكام جنوة مثل البودسطا والكبطان ، ثم إلى دوح البندقية .

وأخيرا المكاتبات الصادرة إلى ملك منفرد (مونفراثو) وإلى الملكة جوانا ملكة نابل .

ويعنى القلقشندي من جهة أخرى ، بالمكاتبات الواردة إلى البلاط المصري ، ومن ذلك المكاتبات الواردة على الأبواب السلطانية من أكابر رجال الدولة وأهل المملكة ، ثم الكتب الواردة من أهل الشرق من القانات والعظام والملوك والحكام وولاة العهد ، والكتب الواردة من الغرب ، من المرابطين والموحدين ، ثم من ملوك بنى مرين وبنى عبد الواد ، والكتب الواردة من السودان ، من مالى وصاحب البرنو (نيجيريا) ، والكتب الواردة من ملوك الروم ، من قسطنطينية وبلاد الكرج وغيرها ، وأخيرا الكتب الواردة من ملوك الأندلس النصراني ، ومن الجهات الشمالية مثل البندقية وغيرها .

ويقدم إلينا القلقشندي نماذج من معظم المكاتبات المذكورة سواء

الصادرة منها من البلاط المصرى ، أو الواردة عليه ، ومن ذلك نماذج
فريدة ، مما ورد على ملوك مصر من مختلف الملوك النصارى ، وفي مختلف
العصور :

وتتناول المقالة الخامسة ، مسألة الولايات ، وطبقاتها من الخلافة
والسلطنة ، وولايات أرباب السيوف وأرباب الأقلام ، ثم الألقاب من
خلافية ومملوكية ، والألقاب الصادرة إلى ذوى الولايات المختلفة ، ثم البيعات ،
وما يكتب فيها بالنسبة للخلفاء والملوك . ثم اليهود ، وأنواعها ، من خلافة ،
وملوكية ، ولأولياء العهد ، وغيرها . وهنا يقدم إلينا القلقشندى أيضا نماذج
من مختلف المراسيم والعهود الصادرة بما تقدم ، وفي مختلف العصور .

وتشغل المقالتان الرابعة والخامسة من صبح الأعشى نحو ثلاثة مجلدات
من منتصف المجلد السادس إلى أواخر المجلد الثامن . وفي رأينا أن هذا
القسم ، هو أهم أقسام الكتاب وأنفسها . فهو يشتمل على مئات الوثائق
والنصوص الرسمية والدبلوماسية ، ويلقى أعظم الضياء على تاريخ مصر
النظامى والإدارى فى عصور الخلفاء والسلاطين ، وعلى السياسة الخارجية
المصرية ، وعلاقات مصر بالأمم الإسلامية والنصرانية فى تلك العصور ، وهى
مادة نفيسة من الوثائق والمحفوظات الجلية التى لا يمكن أن نظفر بها فى مؤلف
آخر ، وإن كان العمرى قد أورد فى « المصطلح الشريف » شيئا منها :

وفى المقالة السادسة يتحدث المؤلف عن الوصايا الدينية والمساحات
وتصاريح الخدمة السلطانية (الطرخانات) ، وعن التواريخ ومقابلاتها ،
ويتحدث فى السابعة عن الإقطاعات وأصلها ، وتشأتها ، وأحكامها ،
 وأنواعها ، ويقدم إلينا نماذج من المراسم الصادرة بها فى مختلف الدول
والعصور . ويتحدث فى المقالة الثامنة عن الإيمان وأنواعها منذ الجاهلية ،
وفى عصور الإسلام والإيمان المملوكية والأميرية فى الدول الإسلامية وغيرها .
وفى التاسعة يتحدثنا عن عهد الأمان وعقدها لأهل الإسلام والكفر ،
وما يكتب منها لأهل الذمة ، ثم الهدن وأنواعها وصيغها : وعقود الصلح
ونماذجها : وفى المقالة العاشرة والأخيرة ، يعرض القلقشندى نماذج مختلفة

من الرسائل الملوكية في المديح والفخر والصيد ، ثم يحدثننا عما يتعلق بديوان الإنشاء في غير شئون الكتابة ، مثل البريد وتاريخه في مصر والشام ، وهو فصل بديع جامع ، ثم الحمام الزاجل وأبراجه ومطاراته ، ثم المناور والمحركات التي كانت تستعمل في استطلاع حركات العدو ، وهذا الفصل هو خاتمة الكتاب .

هذا هو ملخص موجز لمحتويات (صبح الأعشى) . وفي مواد الكتاب وفي تنظيمه وروحه وأسلوبه ، ما يشهد لمؤلفه برفيع فنه ، وقوة بيانه ، وغزارة علمه ، وواسع ثقافته .

وقد عني القلقشندى بنواح أخرى من التاريخ والأدب ، فوضع كتابا في أنساب العرب عنوانه (نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب) ، وتوجد منه نسخة خطية في برلين ، يستفاد منها أنه كتب في سنة ٨١٢ هـ . وكتبا آخر في الأنساب أيضا عنوانه (قلائد الجمان في قبائل العربان) . ووضع مختصرا لصبح الأعشى عنوانه (ضوء الصبح المسفر ، وجنى الدوح المثمر) . ووضع كتابا في الفقه الشافعي عنوانه (الغيوث الهوامع في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع) . وأنشأ القلقشندى كثيرا من النظم الجليد . والظاهر أنه قضى أعوامه الأخيرة في عزلة ، بعيدا عن الأعمال والوظائف الرسمية ، ولم يتول بعد ديوان الإنشاء منصباً آخر ، بيد أنه ظل كما يحدثننا صاحب شئرات الذهب ، محتفظا بمكانته الرفيعة في البلاط وفي الدولة ، وفي اللوائح العلمية .

وقد سبقنا البحث الغربي كمادته ، إلى العناية بهذا الأثر النفيس ، فترجمت منه إلى الفرنسية مجموعة هامة من الوثائق الدبلوماسية التي تبودلت بين مصر والدول الإفرنجية ، وترجمت منه مختارات أخرى إلى الفرنسية والألمانية . وكان لدار الكتب المصرية فضل إخراجها كاملا في أربعة عشر مجلدا ، وذلك ما بين سنتي ١٩٠٣ و ١٩١٩ . ييسد أنه أخرج مع الأسف خلوا من فهرس حديث شامل ، يدل على نفائسه ودقائقه ، ويوفر على الباحث مشقة التنقيب المضني : .

كتاب "صبح الاغثنى"

مصدر لدراسة تاريخ مصر في العصور الوسطى

بقلم: الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

امتاز عصر سلاطين المماليك في مصر والشام بنشاط الحركة العلمية ، وهى الحركة التى ظهرت أتم ما تكون وضوحا فى كثرة المؤلفات والتصانيف التى ترجع إلى ذلك العصر بالذات . فإما من فن من فنون المعرفة أو لون من ألوان الثقافة إلا وطرقه علماء ذلك العصر ، الأمر الذى يشهد عليه التراث الضخم الذى خلفه لنا عصر سلاطين المماليك ، والذى لم ينشر منه سوى القليل ، فى حين ما زال غالبية مخطوطاته ، محفوظاً فى دور الكتب الكبرى فى العالم ، مثل دار الكتب المصرية بالقاهرة ، والمكتبة الأهلية ببغداد ، والمتحف البريطانى بلندن ، ثم مكتبات تركيا وعلى رأسها أحمد الثالث وكوبرولار ونور عثمانية والسليمانية وأسعد أفندى وحكيم أغلو وبايزيد ، وغيرها من المكتبات الحافلة بالمخطوطات النادرة التى ترجع إلى عصر المماليك ، والتى تنتظر التحقيق والنشر لترى انوار الحياة ، فيستفيد منها الباحثون فوائد قد تؤدى إلى تصحيح كثير من مفاهيمنا وزيادة معلوماتنا عن ذلك العصر .

على أن المتأمل فى هذا التراث العلمى الضخم الذى خلفه لنا عصر سلاطين المماليك لا بد وأن تسترعى نظره حقيقة هامة ، هى عناية علماء ذلك العصر بتأليف الموسوعات الضخمة التى جمعت فأوعت . فبالإضافة إلى الكتب الكبيرة والصغيرة التى يتناول فيها الكتاب موضوعاً واحداً ، مثل كتب الحوليات التاريخية أو كتب التراجم أو كتب الطبقات أو التصوف أو الأدب أو الفقه . . . بالإضافة إلى هذه الألوان المعروفة ؛ نجد نوعاً من الكتب عنى به علماء عصر سلاطين المماليك ، وأعنى به كتب الموسوعات الضخمة التى يضم الكتاب الواحد منها عديداً من فروع المعرفة : حقيقة أن عنوان

الكتاب قد يفهم منه أن مؤلفه يعالج فيه موضوعاً واحداً ، مثل كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمرى فهو يشير إلى الجانب الجغرافى ، أو كتاب «نهاية الأرب فى فنون الأدب» لأحمد بن عبد الوهاب النويرى ، فهو يشير إلى الجانب الأدبى ، أو كتاب «صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء» لأبى العباس أحمد القلقشندى . فهو يشير إلى فن الإنشاء على وجه التحديد ... ولكن القارئ لأى كتاب من هذه الكتب يجد موسوعة ضخمة تجمع بين الأدب والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والاجتماع والعلوم الدينية ونظم الحكم والتراجم والفنون والعلوم ... وغيرها من ضروب المعرفة التى تجعل منه دائرة معارف ثمينة يفخر بها الفكر العربى وتعز بها الحضارة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى .

ويحتل كتاب صبح الأعشى مكانة خاصة بين هذه الموسوعات التى حفل بها عصر المماليك ، نظراً لوفرة مادته وتنوعها ؛ ومكانة مؤلفه وسعة أفقه وغزارة علمه وخطورة المنصب الذى تقلده فى الدولة . ذلك أن القلقشندى كان قبل كل شئ عالماً جليلاً ، تتلمذ على كبار علماء عصره ، وأجاز له شيخ العلماء سراج الدين ابن الملقن بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعى سنة ٧٧٨ هـ ، وفى تلك الإجازة وصف الأستاذ تلميذه بأنه ممن شب ونشأ فى طلب العلم والفضيلة ، وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة الحليمة ، وصحب السادة من المشايخ والفقهاء ، والقادة من الأكابر والفضلاء ، واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالا يرضى (١) . ومن ناحية أخرى ، فإن القلقشندى التحق بديوان الإنشاء سنة ٧٩١ هـ ، أى فى أوائل عهد دولة المماليك الجراكسة . وإذا ذكرنا ديوان الإنشاء فإنما نعى ذلك الجهاز الذى كان بمثابة وزارة الخارجية فى عصرنا الحديث ، فعنه تصدر جميع المكاتبات الرسمية ، وإليه ترد جميع المكاتبات الرسمية ، وبه تحفظ جميع المكاتبات

(١) القلقشندى : صبح الامنى ، ج ١٤ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٥ .

الرسمية : ويقول القلقشندى نفسه عن صاحب ديوان الإنشاء : « ومرتبته في زماننا أرفع مرتبة ، وعمله أعظم عمل ، إليه تلقى أسرار المملكة وخفاياها ، وبرأيه يستضاء في مشكلاتها ، وعلى تدبيره يعول في مهماتها ، وإليه ترد المكاتبات وعنه تصدر ، ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة . : : » (١)

ومعنى هذا أن المشتغل في ذلك الديوان كان أمينا على أسرار الدولة ، محيطا بما لم يحيط به غيره من موظفيها ، بل كبارها وأمرائها : فإذا كتب رجل كتابا وكان مثل القلقشندى له من سعة الدراية ووفرة العلم نصيب كبير ، فلا بد وأن يأتي كتابه حاويا جامعا نافعا . والحق أنني في كل مرة أرجع فيها إلى كتاب صبح الأعشى ، لا بد وأن أصادف شيئا جديدا ، فأتعجب كيف لم أتنبه إليه من قبل في عديد المرات التي رجعت فيها إلى هذه الموسوعة الشاملة . وهنا نلفت النظر إلى جانب خطير لا يعطيه القائمون على إحياء تراثنا في البلاد العربية حقه من العناية والتقدير وأعني به ضرورة وضع فهرس تفصيلية وكشافات علمية دقيقة لكل كتاب من المخطوطات التي تقوم بنشرها ؛ لأن هذه الفهارس هي مفاتيح تلك الكتب وبدونها لا يمكن أن تكون الاستفادة منها تامة وكاملة . ومن المؤسف أن يطبع كتاب مثل « صبح الأعشى » بجميع أجزائه دون فهرس أبجدية لما به من أسماء الأعلام والمدن والمواضع الجغرافية والمصطلحات ، فضلا عن الوثائق والرسائل وغيرها . . . الأمر الذي يجعل مهمة الباحث في هذا الكتاب شاقة عسيرة ، بحيث لا يتمكن من الحصول على أكبر قدر من الفائدة المرجوة منه .

والواقع إن كتاب « صبح الأعشى » بوضعه الحالي - أي بمادته الغزيرة المتنوعة وعدم وجود فهرس مفصلة تساعد الباحث في سهولة الوقوف على تلك المادة ، يجعله في نظرنا أشبه شيء بالغابة الكثيرة

(١) صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

الخيرات المتعددة الثمرات ، المتراحمة الأشجار ، المتشابكة الأغصان ،
بحيث يصعب على من يقتحمها أن يخرج منها بسهولة ، وإذا خرج
فلن يظفر بكل ما كان يشتهيه ويطلع في الحصول عليه :

وإذا نحن نظرنا إلى كتاب « صبيح الأحشى » من زاوية معينة ،
أى بوصفه مصدراً لتاريخ مصر في العصور الوسطى ، وجدنا فيه ثروة
ضخمة تلقى كثير من الأضواء على أوضاع مصر في تلك العصور :
ذلك أن كتب الحوليات الشهيرة التى تعالج تاريخ مصر في العصور الوسطى
والتي كتبها مجموعة من مشاهير المؤرخين أمثال المقرئى وابن
حجر والعينى وأبو المحاسن وابن إياس ، تكاد تسيّر كلها على نمط
واحد ، وتكاد تتفق كلها في قدر واحد من المعلومات ، من ناحية
ماحدث في هذه السنة أو تلك من حرب أو فتنة ، ومن نصر أو
هزيمة ، ومن غلاء أو رخاء ، ومن وفاة سلطان أو قيام آخر ..
فإذا ذكر أحد أولئك المؤرخين شيئاً عن الأسعار في سنة من السنوات
فإنه لا يشير إلى النقود المتداولة وأقسامها وأنواعها ، أو إلى المقاييس
المستعملة والمكاييل المستخدمة ، مثلاً فعل القلقشندى في كتابه « صبيح
الأحشى » وإذا أشار أحد المؤرخين السابقين إلى تأمير أمير من الأمراء
فإنه لا يكلف نفسه وصف الإجراءات المتبعة في تلك المناسبة . وإذا
ذكر أن السلطان أنعم على أمير بإقطاع ، فإنه لا داعى لأن يتطرق
إلى أنواع الإقطاعات وما يرتبط بكل من حقوق وواجبات . وإذا قال
إن السلطان نظم الدواوين فإنه لا يحاول أن يشرح لنا أنواع الدواوين
القائمة في ذلك العصر والنظم المتبعة فيها . وإذا حكى أن السلطان
عقد هدنة أو اتفاقاً أو أرسل رسالة إلى ملك أو أمير ، فإنه قد
لا يستطيع الحصول على صورة تلك الهدنة أو الرسالة مما يضىئ
ضوءاً على طبيعة العلاقات العامة والخاصة في ذلك العصر ... وهكذا
نجد المؤرخين من كتاب الحوليات يطوون السنوات طياً ويركزون

عنائهم على جوانب معينة يلتزمون الكلام عنها ، وقد ينقل المتأخر أخبارها عن سبقه من المتقدمين : وهنا يأتي دور كتاب مثل «صبح الأعشى» ليسد تلك الثغرات في تاريخ مصر في العصور الوسطى ، بما يحويه من معلومات خطيرة عن النظم الداخلية والعلاقات الخارجية ، فضلاً عن الأضواء التي يلقها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والدينية : : : وغيرها . هذا إلى ما يلاحظه القارئ لكتاب «صبح الأعشى» من أن القلقشندي يتمتع بحاسة تاريخية قوية ، فهو إلى جانب كونه أديباً وفقهاً ، يبدو في كتابته في صورة المؤرخ الواعي المحيط ببواطن الأمور ، القادر على الربط والاستنتاج ، المستوعب لكثير من كتب السر والتواريخ . وهو عندما يتعرض للتاريخ يقول مانصه : « اعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له ، وقد أكثر الناس فيه من التصنيف على اختلاف فنونه : ما بين مختصر ومبسط ، من مقتصر على فن ومستوعب لفنون (١) : : : »

وهكذا حرص القلقشندي على تضمين كتابته كثيراً من المعلومات التاريخية المفيدة ، وقد يذكر هذه المعلومات تحت اسم عبارة أولطيفة أو غريبة أو أعجوبة أو فائدة : : ولكنه في كل ذلك يأتي بما يفيد طالب التاريخ ، عن قصد أو غير قصد : فهو مثلاً تحت اسم أعجوبة يذكر لنا كيف أنه حدث بمصر سنة ٤٠٦ هـ زلزال عظيم ، ترتب عليه ارتفاع أراضي شواطئ مصر ، بحيث انخسرت مياه البحر عن أراض واسعة . ثم لم يلبث أن عاد الأمر إلى ما كان عليه ، مما ترتب عليه غرق كثيرين : وتحت اسم فائدة يذكر أن الخليفة المقتنى نزع باب الكعبة سنة ٥٠٢ هـ ، وعمل عوضه باباً مصفحاً بالفضة المنهبة (٢) : : وهكذا : : .

وإذا كان القلقشندي يتمتع بحاسة تاريخية قوية ، انعكست صورتها

(١) صبح الأعشى ، ج ١ ص ٤١٢ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١ ص ٤٥٧ .

واضحة في كتابه «صبح الأعشى» بما تضمنته من معلومات تاريخية
نافعة ، فإنه من الطبيعي أن يكون لمصر بالذات - وتاريخها - حظ
وافر من عناية القلقشندي . ذلك أن القلقشندي كان قبل كل شيء *
مصرياً ، ولد وشب في بلدة بصميم الريف المصري - هي بلدة
قلقشنة أو قرقشندة من قرى القليوبية (١) ، وانتقل إلى الإسكندرية
لتلقي العلم ، فحصل فيها سنة ٧٧٨ هـ على إجازة بالفتيا والتدريس
من شيخه ابن الملحق (٢) ، ثم نرح إلى القاهرة حيث التحق بديوان
الإنشاء سنة ٧٩١ هـ . وبذلك عاش القلقشندي في صميم الواقع
المصري ، فاجتمعت له من أسباب الخبرة والعلم ما جعله محيطاً بتاريخ
مصر ، شغوفاً به . وتلمس في كتاب «صبح الأعشى» أن القلقشندي إذا
تطرق إلى ذكر أخبار بلد خارج مصر ، فإنه غالباً ما يحرص على
الربط بينه وبين مصر ، في ضوء العلاقات القائمة بين البلدين . وإذا
جره الاستطراد إلى الكلام عن بلد بعيد ، فإنه كان لا يلبث أن يعود
إلى مصر ، مستمداً معارفه من الشواهد والوثائق القائمة بين يديه
في ديوان الإنشاء . وتتضح هذه الحقيقة الكبرى في مختلف أجزاء
«صبح الأعشى» : فهو يحرص على أن يمهّد لكتابه بوصف مصر
وقضائها ومحاسنها ونيلها وخلجانها القديمة وبحيراتها وجبالها وزروعها
وقواكهها ومواشيتها وطيورها وحدودها وكورها . . . (٣) ثم إنه
عندما يصف بعض البلدان والممالك يحرص على أن يكون ذلك تحت عنوان
«الممالك والبلدان المحيطة بمملكة الديار المصرية» (٤) ، أو التي بينها
وبين مصر علاقات . بل إنه يحرص على أن يقدم لدراسته بالكلام
عن تاريخ مصر القديم ، فيصف مدنها القديمة مثل منف والإسكندرية ،

(١) الزركلي : الأعلام ، ج ١ ص ١٧٢ ، كعالة : معجم المؤلفين ، ج ١ ص ٢١٧ هذه
وقد تكلم القلقشندي عن يلدته قلقشنة في الجزء الثالث من كتابه صبح الأعشى (ص ٤٠٣).

(٢) صبح الأعشى ، ج ١ ص ٣٢٢ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٢ ص ٢٨٢ - ٤٠٩ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٠٥ .

ويصف بعض آثارها القديمة ، وربما وصف بعض الآثار التي كانت قائمة على أيامه والتي اندثرت الآن . من ذلك قوله أنه على مقربة من الأهرام كان يوجد بيت من حجر أخضر قطعة واحدة : جوانبه الأربعة وأرضه وسقفه . وأن هذا البيت كان قائماً إلى أيام السلطان الناصر محمد ، ثم أراد أتاكك العكسر - الأمير شيخو - نقله صحيحاً إلى القاهرة ، ولكنه تحطم ، فأخذت حطامه وصنعت منه أعتاب بعض المباني بالقاهرة . هذا إلى أن إقامته بالإسكندرية في شبابه جعلته يحيط بآثارها ، فوصف منساريتها القديمة مثلما سمع ، كما وصف الملعب الكبير وعمود السوارى : أما المعابد القديمة ، فقد أسماها البرادى ، وقال : إنها بيوت عبادة ، وأشار إلى معابد دندرة والأقصر وإسنا وغيرها . ثم انتقل بعد ذلك إلى الكلام عن ملك الديار المصرية في الجاهلية والإسلام ، وأتى خلال عرضه هذا بكثير من المعلومات التاريخية الصادقة ؛ مثل قوله عن بطليموس محب أخيه (الثانى) أنه نقل التوراة من العبرانية إلى اليونانية ، وقوله : إن المسيح عليه السلام ولد في عهد الإمبراطور أوغسطس ، وقوله : إن الإمبراطور دقلديانوس - أو كما أسماه دقلطيانوس - اضطهد الأقباط وقتل منهم خلقاً عظيماً يعبر عنهم الآن بالشهداء . . . وأن الأقباط يؤرخون بمهلكه إلى اليوم . (١) وقوله : إن الإمبراطور قنسطنتين كان أول من اعترف بالمسيحية من الأباطرة ، وأظهر دين النصرانية وحمل الناس عليه وهذه كلها معلومات حقيقية أثبتتها التاريخ ، وتوضح لنا أن القلقشندى عندما كان يخوض في التاريخ فإنه كان يتقصى الحقائق ولا يقول إلا صدقاً . (٢)

وإذا كان هذا هو حال القلقشندى فيما ذكره عن تاريخ مصر القديم فما بالنا بتاريخ مصر في العصور الوسطى ، وهى العصور التي

(١) الحقيقة أن أقباط مصر اتخذوا من بداية حكم دقلديانوس سنة ٢٨٤ م بداية

للسنة القبطية (سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ص ٣٠ - ٣١ .

(٢) صبح الاعشى . الجزء الثالث .

عاش فيها وكتب كتابه في حلقة من أنشط حلقاتها في الداخل والخارج .
 الواقع أن الأمر يطول بنا عند الكلام عن أهمية « صبح الأعشى » بوصفه
 مصدراً لتاريخ مصر في العصور الوسطى ، أعني منذ الفتح الإسلامي في
 القرن السابع للميلاد ؛ لأنه يحاول دائماً أن يأتي بالحقائق من جنورها
 فيذكر لنا من ولى مصر في الإسلام ، وعمال الخلفاء سواء من
 الصحابة أو بني أمية أو العباسيين — على مصر ، وسنة ولاية كل
 عامل منهم . ثم يذكر حكام مصر من الطولونيين والإخشيديين
 والفاطميين وبني أيوب والمماليك الترك (البحرية) والمماليك الجراكسة
 (البرجية) حتى أيام القلقشندي نفسه في أوائل القرن التاسع الهجري
 أى على عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق ، وإن كان القلقشندي قد
 توفى في السنة السادسة من عهد السلطان المؤيد شيخ (٨٢٩ - ١٤١٨ م) .
 وسنكتفي نحن في هذه الدراسة بالتركيز على أهمية كتاب صبح
 الأعشى في دراسة تاريخ مصر في العصور الوسطى ، وذلك من النواحي
 الآتية :

(١) نظم الحكم والإدارة . (ب) الأوضاع الاقتصادية

(ح) الحياة الاجتماعية (د) السياسة الخارجية

أما عن نظم الحكم والإدارة في مصر في العصور الوسطى .
 فيؤكد القلقشندي في كتابه « صبح الأعشى » أن مصر ظلت منذ الفتح
 العربي حتى بداية الدولة الطولونية مجرد « نيابة » ، أى يحكمها
 نائب عن الخليفة — هو الوالى — لأن الخلافة يومئذ في غاية العز
 ورفعة السلطان ، ونيابة مصر — بل سائر النيابات — مضمحلة في جانبها (١)
 ويفهم من هذا أن مصر لم تكن لها شخصية مستقلة قائمة بذاتها

(١) صبح الأعشى ج ١١ ، ص ٢٨٠ .

في ذلك الدور الأول ، الأمر الذى جعل نظم الحكم والإدارة السائدة فيها لا تختلف كثيراً عن سائر النظم المطبقة في بقية بلاد الدولة الإسلامية .

ولكن أحمد بن طولون كان أول من أخذ في ترتيب الملك وإقامة شعار السلطنة بالديار المصرية ، (١) فرتب الدواوين في مصر لتتخذ طابعا مصرية خاصاً ، وإن كان القلقشندي لا يشير في صبح الأعشى إلى النظم التي وضعها أحمد بن طولون والقواعد التي استنها في مصر فيما عدا ما يتعلق بديوان الإيتاء .

وبقيام الدولة الفاطمية ، ظهرت كثير من النظم والقواعد الخاصة بالملك والحكم والإدارة في مصر . وهنا نجد القلقشندي يسهب في وصف النظم السائدة بمصر زمن الخلفاء الفاطميين ، فيقول : إن ترتيب مملكتهم ينحصر في سبع جمل أو أقسام : الحملة الأولى أو القسم الأول ويشمل شعائر الملك مثل التاج وقضيب الملك والسيف الخاص والدواة والرمح والمظلة والأعلام وغيرها . والحملة الثانية أو القسم الثاني ويشمل حواصل الخليفة مثل الخزائن وحواصل المواشي وحواصل البضاعة وحواصل الغلال وغيرها . والحملة الثالثة أو القسم الثالث ويشمل جيوش الدولة الفاطمية ومراتب أرباب السيوف وهم الأمراء وخواص الخليفة . والحملة الرابعة أو القسم الرابع ، ويشمل أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية . وهذا القسم بالذات له أهمية نظراً لما فيه من بيانات وافية ذكرها القلقشندي عن النظم الإدارية في الدولة الفاطمية ، إذ قسم الموظفين إلى قسمين كبيرين : القسم الأول ويشمل ما بحضرة الخليفة من أرباب السيوف وأرباب الأقاليم ، والقسم الثاني ويضم الموظفين الخارجيين عن حضرة الخلافة كالنواب والولاة . والقلقشندي خلال هذا يتكلم عن الدواوين في الدولة الفاطمية

(١) صبح الأعشى ج ١١ ، ص ٣٩ .

والوزارة ، والأقسام الإدارية الكبرى التى انقسمت إليها مصر فى ذلك العصر ، ومكانة كل وال من الولاة المشرفين على هذه الأقسام مما يعطينا صورة واضحة عن النظم الإدارية وجهاز الحكم أيام الفاطميين . وأخيرا تأتى الحملة الخامسة ويتناول فيها القلقشندى هيئة الخليفة الفاطمى فى موكبه وقصوره ، فيعطينا فكرة واضحة عن المواكب الفاطمية ، وما اتصفت به من بدخ وأبهة ، والاحتفالات الفاطمية بالمناسبات الدينية مثل ليالى الوقود ، ومولد النبى عليه الصلاة والسلام وأول رمضان ، وعيدى الفطر والأضحى ، فضلا عن الأعياد القومية مثل الاحتفال بوفاء النيل وغيرها : أما الحملة السادسة فيتكلم فيها القلقشندى عن اهتمام الخلفاء الفاطميين بالأساطيل وحفظ الثغور واعتنائهم بأمر الجهاد ، وهو خلال ذلك يشير إلى القواعد البحرية للأسطول الفاطمى فى البحرين المتوسط والأحمر . وأخيرا تأتى الحملة السابعة وفيها ما يتعلق بتوزيع الأرزاق والعطاء وما يتصل بذلك من الأطعمة . (١)

هذا عرض سريع لما فصله القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » عن نظم الحكم والإدارة فى مصر على أيام الدولة الفاطمية . فإذا انتقلنا إلى ما بعد هذه الدولة ، وجدنا أن الدولتين الأيوبيه والمماليكية تكونان وحدة من حيث نظم الحكم والإدارة ، بمعنى أن كثيرا من التنظيمات التى وضعت أسسها أيام الأيوبيين استمرت قائمة ومطبقة أيام سلطنة المماليك ، أو بمعنى آخر فإن كثيرا من التنظيمات التى تراها ثابتة ومزدهرة أيام المماليك إنما ترجع أصولها إلى عصر الأيوبيين . ويؤكد القلقشندى هذا المعنى عندما يقول : « ما استقر عليه الحال من ابتداء الدولة التركية وإلى زماننا على رأس الثمانمائة ، مما أكثره مأخوذ من ترتيب الدولة الأيوبية التى هى أصل الدولة التركية (المماليكية) » . (٢)

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٢ وما بعدها .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ١١٩ .

ويتضح لنا من النص السابق أن القلقشندى كان يكتب كتابه «صبح الأعشى» حوالى سنة ٨٠٠ هـ (نهاية القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر للميلاد) أى زمن نضج سلطنة المماليك وازدهار نظمها وتبلور قواعد الحكم وأصوله فيها . لذلك كان من الطبيعى أن يسترسل القلقشندى فى وصف نظم الحكم على أيام سلطنة المماليك ، وهى النظم التى عاش هو نفسه فى ظلها ، وأن يفيض فى وصف الجهاز المحرك لسلطنة المماليك ، وهو الجهاز الذى كان هو نفسه عاملا فيه وأحد أعضائه . وهكذا مضى القلقشندى فى الجزء الرابع من كتابه «صبح الأعشى» يصف «ترتيب المملكة» ؛ فبدأ بذكر رسوم الملك وآلاته— وهى الشعائر التى اختص بها السلطان مثل : سرير الملك أى التيمخت الذى يجلس عليه ، والمقصورة التى يصلى فيها بالجامع يوم الجمعة ، والغاشية المنهبة التى تحمل بين يديه فى المواكب (١) . . . الخ

فإذا فرغ القلقشندى من ذلك انتقل إلى ذكر البيوت السلطانية ، وهى : الشراب خاناه — أى بيت الشراب — وبه أنواع الأشربة التى يحتاج إليها السلطان ، والطشت خاناه ، وبه أنواع الطشوت والطاسات الخاصة بالسلطان ، فضلا عن المقاعد والخاد وغيرها ؛ والفراش خاناه — أى بيت الفراش — وبه أنواع الفرش والبسط والخيام التى تلزم السلطان فى حله وترحاله ، والسلاح خاناه — ويسمى الزرد خاناه — ويشمل أنواع السلاح المختلفة من السيوف والنشاب والرماح والدروع وغيرها ، والركاب خاناه وبه عدد الخيل من السروج واللحم والكنابيش ونحوها والحوائج خاناه — أى بيت الحوائج — الذى يصرف منه اللحم والتوابل وغيرها من مستلزمات المطبخ السلطانى ؛ والمطبخ السلطانى الذى يطهى فيه طعام السلطان وحاشيته « ويستهلك فيه فى كل يوم قناطير

مقنطرة من اللحم والدجاج والأوز والأطعمة الفاخرة ، وأخيراً
الطبلخاناه ، وهو البيت الذى يشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها . (١)

ولم يفت القلقشندى فى « صبح الأعشى » أن يصف هيئة السلطان فى
مختلف المناسبات ، فوصف هيئته فى جلوسه بدار العدل للبت فى
المظالم والشكاوى والقضايا ، فيوضح طريقة جلوسه وحوله القضاة وكبار
رجال الدولة وفق بروتوكول خاص ، كما يصف هيئة جلوسه فى
هبة الأيام ، وهيئته فى صلاة الجمعة والعيدى ، وعند خروجه
للعاب الكرة بالميدان ، وفى الركوب لكسر الخليج عند وفاة النيل وفى
الأسفار ، ثم النوم . (٢)

وفهم من « صبح الأعشى » أن سلطان الممالك كان يحتل مكانه
على رأس جهاز بيروقراطى ضخم ينقسم إلى قسمين أو بتألف من
فريقين كبيرين ، أرباب السيوف وأرباب الأقلام . أما أرباب
السيوف فهم الأمراء والأجناد . وكان الأمراء على عدة طبقات
أو درجات ، أعلاهم درجة أمراء المثين مقدمو الأوف ، أى أن
الأمير منهم يمتلك مائة فارس — وربما زاد العشرة أو العشرين —
وله التقدمة على ألف فارس . وبعدهم يأتى أمراء الطبلخاناه وعدة كل
منهم أربعون فارساً قد تزيد إلى سبعين أو ثمانين ، ثم أمراء
العشرات ، وعدة كل منهم عشرة فوارس ، وأخيراً أمراء الخمسات
وعدة كل منهم خمسة فوارس . أما الأجناد فكانوا من طبقتين :
الممالك السلطانية وهم أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأشدهم
إلى السلطان قرباً ، وأوفرهم إقطاعاً ، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة
بعد رتبة . « وأجناد الحلقة وهم عدد جم وخلق كثير ، وربما دخل
فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم (٣) »

(١) صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٩ - ١٣ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٤ - ٤٩ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٤ - ١٦ .

وثمة وظائف معينة احتكرها الأمراء من أرباب السيوف في عصر سلاطين المماليك ؛ ومن هذه الوظائف ما هو بحضرة السلطان : مثل النيابة - أى نائب السلطان - ، والأتابكية - أى أتابك العسكر وكبير الأمراء - ، وإمرة مجلس أى متولى أمور السلطان ، وإمرة أخورية أى المتحدث على اسطبل السلطان وخيوله والدوايرية أى تبليغ الرماثل عن السلطان وإليه . : وغيرها من الوظائف الكبيرة في الدولة التي عددها القلقشندي في خمس وعشرين وظيفة . وهو في خلال عرضه لهذه الوظائف يمدنا بكثير من المعلومات الهامة الفريدة عن طبيعة كل وظيفة واختصاصات صاحبها والشروط الواجب توافرها فيه ، فضلاً عما يتضمنه شرحه من بيانات عن النظام الإداري في مصر . فهو يقول مثلاً : إن ولاية الشرطة بالحاضرة على صنفين : الصنف الأول يشمل والى الشرطة بالقاهرة ، ووالى الشرطة بالقساط ، ووالى الشرطة بالقراة . والصنف الثانى يشمل ولاية القلعة ، وهما اثنان : والى القلعة وهو أمير طبلخاناه يتحكم في باب القلعة الكبير الذى منه طلوع العسكر ونزولهم . : ثم والى باب القلعة وهو أمير عشرة . . (١)

أما أرباب السيوف من الأمراء الذين يتولون وظائف خارج الحضرة السلطانية ، فيشملون نواب السلطنة والكشاف والولاية : وهنا نجد القلقشندي يسوق في كتابه « صبح الاعشى » معلومات قيمة عن النظام الإداري في مصر على عصر سلاطين المماليك ، فيقول : إن بمصر ثلاث نيابات ، كلها مستحدثة أى استحدثت قبيل الوقت الذى كتب فيه القلقشندي كتابه في أواخر القرن الثامن للهجرة . وأولى هذه النيابات نيابات الإسكندرية التى استحدثت سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥م) ، على عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين . وكانت الإسكندرية حتى ذلك الوقت ولاية ، ولكن حدث في السنة السابقة أن تعرضت لإغارة

(١) صبح الاعشى ج ٤ ص ١٦ - ٢٣ .

صليبية عيفة من جانب بطرس لوزجنان ملك جزيرة قبرص ، الأمر الذى تطلب تحويلها إلى نيابة يحكمها نائب عن السلطان لضممان زيادة العناية بأمرها والحيطه عليها ، وبعد ذلك تأتى نيابة الوجه القبلى ، وهى الوظيفة التى يروى القلقشندى أنها استحدثت على عهد السلطان الظاهر برقوق ، فأصبح يشرف على الوجه القبلى نائب عن السلطان مقره مدينة أسبوط « وحكمه على جميع بلاد الوجه القبلى بأسرها » . وأخيرا تأتى نيابة الوجه البحرى ، وقد استحدثت أيضا على عهد الظاهر برقوق ، ومقر نائبها مدينة دمنهور فى البحيرة : وبالإضافة إلى النائب ، وجد كاشف لكل من الوجهين البحرى والقبلى ، ويبدو أن وظيفة الكاشف تضاءلت أهميتها بعد إنشاء نيابة للوجه البحرى وأخرى للوجه القبلى (١) .

وفيدا عدا ذلك انقسم الوجهان البحرى والقبلى إلى عدد من الولايات — أشبه شىء بالمديريات أو المحافظات — يحكم كل منها والى من كبار الأمراء : ويفهم من كتاب « صبح الأعشى » أن الولايات الكبرى كان يحكمها أمراء طبلخاناه ، فى حين أن الولايات الأقل أهمية كان يليها أمراء عشرات . فالوجه القبلى كان به أربعة ولايات من أمراء الطبلخاناه ، وهم والى البهنسى ووالى الأشمونيين ووالى قوص وأخميم ووالى أسوان . والولاية الأخيرة استحدثت على أيام الظاهر برقوق إذ كانت أسوان حتى ذلك الوقت مضافة إلى والى قوص . أما البحيرة وأطفيح ومنفلوط فكانت ولايات يليها أمراء عشرات .

هذا عن الوجه القبلى ، أما الوجه البحرى فكان به أربعة ولايات يليها أمراء طبلخاناه ، هم والى الشرقية فى بلبيس ووالى منوف ووالى الغربية فى المحلة ووالى البحيرة ، وبالإضافة إلى هؤلاء وجدت ولايات أربع وليها أمراء عشرات ، هم والى قليوب ووالى أشموم ووالى دمياط ووالى قنينا . (٢)

أما أرباب المناصب من حملة الأقاليم ، فكانت لهم وظائف عديدة

(١) صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٢٤ - ٢٥ ، ج ٧ ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٦ - ٣٨ .

« كثيرة للغاية لا يسع استيفائها والمعتبر منها : . . . ومن هذه الوظائف الوزارة التي كان مفروضاً أن يكون صاحبها الرجل الثاني في الدولة ، ولكن حدث بعد إنشاء وظيفة نيابة السلطنة أن تضاعف شأن الوزارة وتأخرت وقعد بها مكانها . ومن وظائف حملة الأقاليم أيضاً كتابة السر ، أى قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها ، ووظيفة نظر الخاص — وهى وظيفة محدثة أحدثها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ويختص صاحبها بالتحدث فيما هو خاص بـمال السلطان (ناظر الخاصة) ، ووظيفة نظر الجيش وموضوعها التحدث في أمر الإقطاعات ، ووظيفة نظر الدواوين المعمورة . . وغير ذلك من الوظائف العديدة التي باشرها أرباب الأقاليم التي ذكرها القلقشندي في صبح الأعشى . (١)

على أنه بالإضافة إلى هذه الوظائف الديوانية التي تولاها أرباب الأقاليم ، فإنهم تولوا أيضاً وظائف دينية ، مثل وظيفة قضاء القضاة : ويذكر القلقشندي أن الوضع الذي استقر عليه الحال في البلاد كان وجود قاض واحد بالديار المصرية من أى مذهب كان ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس عين سنة ٦٦٣ هـ أربعة قضاة من مذاهب الأئمة الأربعة ، كل منهم يتحدث فيما يقتضيه مذهبه ، ويعين نوابه بالديار المصرية . وبالإضافة إلى ذلك تولى أرباب الأقاليم وظيفة قضاء العسكر ، ووظيفة إفتاء دار العدل ، ووظيفة وكالة بيت المال ، ووظيفة الحسبة . ولا يخفى علينا ما كان للوظيفة الأخيرة من شأن خطير في المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى ، إذ كانت « وظيفة جليلة ، رفيعة الشأن ، موضوعها التحدث في الأمر والنهي ، والتحدث على المعايير والصنائع ، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته . . . » (٢) .

وإذا كان القلقشندي قد اهتم في كتابه صبح الأعشى بشرح النظم الإدارية في مصر ، فإنه لم يغفل أمر الشق الآخر من سلطنة المماليك

(١) صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٢٨ - ٢٤ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٢٧ .

وهو بلاد الشام ، فذكر ما بها من نيابات وأقسام إدارية ودواوين ونظم . (١)

وساعد سلطان المماليك في إحكام إشرافه على أنحاء دولته الواسعة وأعمال نوابه في مصر والشام ، نظام البريد المحكم الذى وصفه القلقشندى في صبح الأعشى ، والذى يدل على مهارة فائقة ودقة بارعة في تنظيم البريد في العصور الوسطى . وبعد أن يتناول القلقشندى نظام البريد في الدولة الإسلامية ، يشير الى اهتمام الزنكيين والأيوبيين بذلك النظام ، ولعل السر في ذلك هو ما قام به الزنكيون ثم الأيوبيون من حركة جهاد واسعة ضد الصليبيين بالشام ، الأمر الذى تطلب نظاماً دقيقاً للربط بين مختلف أجزاء دولتهم ، بذلك يتيسر الوقوف على تحركات الأعداء وأخذ الحيلة لمواجهة الأخطار . ثم يؤكد القلقشندى قيام السلطان الظاهر بيبرس بإعادة تنظيم البريد ورسم طرقه وإنشاء محطات له ، ويقر ذلك بأن بيبرس « اجتمع له ملك مصر والشام وحلب إلى الفرات » ، الأمر الذى جعله يحرص على تنظيم البريد لضمان إشرافه على تلك الدولة الواسعة الممتدة من النيل إلى الفرات . ولا يخفى علينا أن السلطان الظاهر بيبرس يعتبر المؤسس الحقيقى لسلطنة المماليك ، وهو أول من قام - من سلاطين المماليك - بحركة الجهاد الواسعة ضد الصليبيين والمغول جميعاً ، فكانت جيوشه تخرج حيناً إلى الصليبيين بالشام وبلاد السلاجقة في آسيا الصغرى ، وأحياناً إلى نهر الفرات لمنازلة المغول ، فضلاً عن الحملات التى أرسلها إلى النوبة . لذلك أوصى بيبرس رجاله - ومنهم صاحب شرف الدين عم القلقشندى نفسه - « بمواصلته بالأخبار وما يتجدد من أخبار التتار والفرنجة ، وقال له : إن قنرت أن لا تبيننى كل ليلة إلا على خبر ، ولا تصبحنى إلا على خبر ، فافعل . . . » (٢) وهكذا أدرك بيبرس أن البريد

(١) صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٨٠ - ١٨٤ - ١٨٩ ، ج ٥ ص ٤٥٥ - ٤٦٥ ،

ج ١٢ ص ٦ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٧٠ .

هو « جناح الإسلام الذى لا يحصى وطرف قادمته التى لا تقصى » ،
فعنى به عناية فائقة ، صارت مضرب الأمثال فى تاريخ النظم ؛

ويعنى القلقشندى فى ذكر مراكز البريد ، فيخبرنا أن قلعة
الجليل بوصفها مقر إقامة السلطان وقاعدة الملك فى ذلك العصر كانت
المركز الرئيسى للبريد ، تخرج منها المكاتبات والأوامر السلطانية ،
وترد إليها الأنباء والأخبار من مختلف أطراف البلاد . أما طرق
البريد الرئيسة التى تبدأ من قلعة الجليل ، فأولها إلى مدينة قوص
بالوجه القبلى ، ومن قوص تتفرع طرق فرعية إلى أسوان والنوبة
وعين شارب وسواكن . وثانيها من قلعة الجليل إلى الإسكندرية ، وهنا
يشير القلقشندى إلى طريقين يمكن تشبيههما - مع الفارق - بالطريق
الصحراوي والطريق الزراعى اليوم ، أحدهما من قلعة الجليل بالقاهرة
إلى وردان ودمهور بخذاء « الجبل الغربى » . والآخر « فى وسط
العرمان وتعرف بالوسطى » ويمر بقلوب مخترقاً وسط الدلتا إلى
منوف والحلة إلى الإسكندرية . وثالثها الطريق من قلعة الجليل إلى
دمياط عن طريق سرياقوس ومنها إلى بلييس ثم دمياط « ومن
أراد غزة » (١) ، ومن غزة تتفرع طرق البريد إلى الكرك ودمشق
وصدد . ومن دمشق تتفرع إلى حمص وحماه وحلب وطرابلس
وغيرها من مدن الشام . ومن حلب تتفرع طرق البريد إلى البيرة
على الفرات وأياس فى قيليقية وغيرها من المراكز الشمالية :

ولا يكتفى القلقشندى بذكر محطات البريد ومراكزه بالتفصيل ؛
ولأنما يسوق لنا طرفاً من النظم المتبعة فى البريد ، فيقول : إن
صاحب ديوان الإنشاء كان هو المتولى لأمر البريد وتنفيذ أموره .
وكان للبريد ألواح من فضة ، محفوظة بديوان الإنشاء فى عهدة كاتب
السر ، منقوش على وجهى اللوح نقشاً مزدوجاً مانعه « لا إله إلا الله
محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله

ولوكره المشركون. ضرب بالقاهرة المحروسة ، وعلى الوجه الآخر ماصورته
 « عز لمولانا السلطان الملك الفلاني : فلان الدنيا والدين ، سلطان
 الإسلام والمسلمين فلان ، ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الفلاني ،
 فلان ، خلد الله ملكه » وفي ذلك اللوح ثقب معلق به شرابة من
 حريز أصفر ذات بندين ، يجعلها البريدي في عنقه ، ويصير اللوح
 أمامه تحت ثيابه ، والشرابة خلفه من فوق ثيابه . فإذا خرج بريدي
 إلى جهة من الجهات ، أعطى لوحاً من تلك الألواح يعلقه في عنقه
 وينهب إلى الجهة التي يقصدها ، فكل من رأى تلك الشرابة خلف
 ظهره علم أنه بريدي ، فيستقبله أرباب مراكز البريد على طول
 الطريق ، ويسلمونه خيل البريد ، ويقدمون له كل ما يحتاج
 إليه (١) .

ويجبرنا القلقشندي أن الأمر لم يقتصر على استخدام الخيل في نقل
 البريد ، وإنما أدرك المسلمون منذ وقت مبكر أهمية عامل الوقت في
 نقل الأخبار ، فاهتموا بالحمام الزاجل وأطلقوا عليه اسم الحمام
 الرسائي . وبلغ من اهتمامهم بهذا النوع من الحمام أن وصفوه من حيث
 اللون وعدد الريش في الجناحين والذنب ، والفرق بين الذكر
 والأنثى ، والزمان والمكان اللاتقين بالإفراخ . . . وذكر القلقشندي
 أن أول من اهتم به في الإسلام هم الخلفاء العباسيون ، وفي مصر عني
 به الخلفاء الفاطميون حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بأنساب الحمام .
 كذلك عني نور الدين محمود — عندما امتدت دولته من الموصل
 إلى دمشق إلى مصر — بأمر هذا النوع من الحمام . وهكذا حتى
 كانت دولة المماليك ، فاهتموا به اهتماماً كبيراً ، حتى ألف فيه محيي
 الدين بن عبد الظاهر — صاحب ديوان الإنشاء — كتاباً أسماه « تنائم
 الحمام » . وكما كان لبريد الخيل مراكز ومحطات ، كذلك كان
 للحمام الرسائي محطات وأبراج ، مركزها قلعة الجبل ، ومنها تنجبه إلى
 الإسكندرية وحماط والسويس وبليس دومن بليس إلى الصالحية وغزة

(١) صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٧١ - ٣٧٢ .

ودمشق . ومن دمشق إلى شمال الشام وأنحاء الفرات . كذلك كانت هناك طرق وأبراج للحمام الرسائل من القاهرة إلى الجنوب - أى قوص وأسوان وعين شمس . ولكن القلقشندي يذكر أنه انقطع على أيامه لتلويح الحمام الرسائل إلى تلك الجهات الجنوبية (١) .

وهكذا يقدم لنا القلقشندي في كتابه صبح الأعشى صورة فريدة لعامل هام من عوامل الربط بين أنحاء الدولة ومختلف أطرافها في العصور الوسطى ، الأمر الذي مكن السلطة المركزية في القاهرة من متابعة أخبار البلاد والعباد من أقصى أطراف الشمال حتى أقصى أطراف الجنوب ، فضلا عن الوقوف على أخبار القوى المجاورة من الأعداء والأصدقاء جميعاً . . .

وفي ختام عرضنا لنظم الحكم والإدارة في مصر العصور الوسطى كما صورها القلقشندي في كتابه صبح الأعشى - نشير إشارة سريعة إلى ما جاء في تلك الموسوعة من معلومات قيمة عن الإقطاع والنظام الإقطاعي في مصر . ذلك أن الدولة الأيوبية ومن بعدها دولة المماليك قامت على أسس إقطاعية واضحة ، استعانت بها الدولتان لإعداد جيوش على أسس إقطاعية ، تمكن السلاطين والحكام من مواجهة الأخطار المهددة لهم . على أن القلقشندي اختار أن يتكلم عن الإقطاع في الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما كان يكتب في الإقطاعات في ذلك الوقت ثم زمن الخلفاء الراشدين والعباسيين ببغداد والفاطميين بمصر (٢) . ويضيق بنا المجال في هذا العرض الموجز عن تتبع كافة المعاني والمعلومات العديدة التي أوردها القلقشندي في كتابه صبح الأعشى عن الإقطاع في مصر في عصرى الدولتين الأيوبية والمماليكية ، والأثر الخطير له في النظم الإداري والاقتصادي والاجتماعية والسياسية ، ولكن تكفي الإشارة العابرة إلى بعض المبادئ

(١) صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ٢٨٩ - ٢٩٤ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١٠٤ - ١٤٣ .

الخطيرة والمعلومات الجديدة التي وردت في كتاب «صبح الأعشى» عن الإقطاع والنظام الإقطاعي في مصر العصور الوسطى ، علماً بأن القلقشندى يظهر أسفه العميق لأن الأمور على أيامه خرجت عن القواعد الشرعية ، فلم يعد الحكام يلتزمون بحكم الشريعة في الإقطاع ، وعمت بذلك البلوى والله المستعان في الأمور كلها ، (١) .

ولم يقف الأمر فيما كتبه القلقشندى عند حد ذكر صور للكتب والتواقيع التي كانت تكتب عن السلاطين إلى الأمراء المقطعين ، وما كانت تحويه هذه التواقيع من معان عميقة ووصايا للمقطع برعاية العدالة في الرعية وحسن تصريف شئون البلاد المقطعة ... (٢) وإنما يشير القلقشندى إلى أن الإقطاع في عصر المماليك لم يقتصر على الأرض ، وإنما أقطعت سائر الأموال كالتخراج والجزية والمكوس والضرائب وغيرها (٣) . والمعروف أن أرض مصر قسمت في عصر المماليك إلى أربعة وعشرين قيراطا ، أربعة للسلطان وعشرة للأمراء وعشرة للأجناد . على أن ظروفاً عديدة في ذلك العصر استدعت إعادة التوزيع الإقطاعي ، وهي العملية التي كانت تسمى الروك - بمعنى فك الزمام ومسح الأرض وتعيين حدودها وإعادة توزيعها بين المقطعين - وأشهرها الروك الحسامي نسبة إلى حسام الدين لاجين ، والروك الناصري نسبة إلى الناصر محمد . وتوزيع الإقطاعات تسجل كافة البيانات الخاصة بها في ديوان الجيش أو ديوان الإقطاع ، الذي يصفه القلقشندى بأنه « مظنة الإقطاعات » (٤) . فإذا أقطع أحد الأمراء أرضاً فإنه « يتصرف فيها كيف شاء » (٥) ، على قول القلقشندى . ويفهم من صبح الأعشى أن منح الإقطاع كان محوطاً بمجموعة من الحقوق والواجبات الإقطاعية ، المتبادلة بين السلطان من ناحية والشخص

-
- (١) صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١١٧ .
 (٢) صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١٤٤ وما بعدها .
 (٣) صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٤٥٠ .
 (٤) صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١٥٣ .
 (٥) صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٥٠ .

المقطع من ناحية أخرى : وأول واجب على المقطع هو أن يخلف يمين الولاء للسلطان ، ويقوم كاتب الإنشاء بتسجيل أسماء من حلقوا في أوراق خاصة ، تحمل في ديوان الإنشاء «لتخلد فيه» على قول القلقشندي، (١) كذلك يلتزم المقطع بدفع الخراج المقرر على إقطاعه لأن هذا الخراج من أهم مصادر بيت المال ، في الوقت الذي صارت الإقطاعات « هي جل البلاد في الوجهين البحري والقبلي (٢) » . وكان السلطان يقول للمقطع في التوقيع الصادر منه إليه « وقد اخترناك لخدمتنا على بصيرة (٣) » ، مما يشير إلى أن المقطع كان ملزماً بخدمة السلطان وخاصة تقديم الطاعة والخدمة العسكرية . ومن ناحية أخرى كان المقطع يحظى بحقوق ، منها ما هو أدنى مثل الألقاب العديدة التي أضفاها السلاطين على المقطعين ، فضلاً عن مراعاة قواعد برونوكول خاصة في مكاتبهم (٤) . هذا عدا مظاهر التشريف التي أضفيت على المقطعين - وخاصة كبار الأمراء - مثل دق الطبول على أبوابهم . أما الحقوق المادية للمقطع ، فأهمها الخلع والملابس والخيول والأطعمة التي كانت تصرف لهم في مختلف المناسبات (٥) .

* * *

هذا عرض موجز لبعض ما استطعنا ذكره في هذه العجالة عن نظم الحكم والإدارة في مصر في ضوء ما ذكره القلقشندي في موسوعته صبح الأعشى . فإذا تركنا هذا الجانب ونظرنا إلى الجانب الاقتصادي وجدنا أنفسنا أمام ثروة ضخمة من المعلومات التي حواها كتاب صبح الأعشى والتي تجعل منه في نظرنا مرجعاً هاماً لتاريخ مصر الاقتصادي في العصور الوسطى . ونستطيع أن نقسم المعلومات التي نستقيها من صبح الأعشى في هذا الجانب إلى عدة أقسام هي : الزراعة ، المعاملات الداخلية ، المالية العامة ، التجارة الخارجية :

- (١) صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣١٩ .
- (٢) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٨ .
- (٣) صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١٥١ .
- (٤) صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٨٨ ، ٤٩٤ - ٤٩٥ .
- (٥) صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٥٢ - ٥٣ .

أما عن الزراعة فإن القلقشندي يشير إلى النيل وأهميته للبلاد والعباد بوصفه الشريان الذي ينقل الماء والحياة إلى أرض مصر ، ويربط بين ذلك وبين الاهتمام بأمر الجسور المنتشرة في أنحاء البلاد لتنظيم عملية الري وضمان وصول مياه الفيضان إلى كافة الأراضي الزراعية . ويقسم القلقشندي هذه الجسور إلى قسمين : أولها الجسور السلطانية « وهي الجسور العامة الجامعة للبلاد الكثيرة ، التي تعمر في كل سنة من الديوان السلطاني بالوجهين القبلي والبحري ، ولها جراريف ومخاريط وأبقار مرتبة على غالب البلدان بكل عمل من أعمالها . وقد جرت العادة أن يجهز لكل عمل في كل سنة أمير بسبب عمارة جسوره ، ويعبر عنه بكاشف الجسور في العمل القلاني ... » ويضيف القلقشندي أن لهذه الجسور خولة ومهندسين لكل عمل ، يقومون بخدمة كاشف الجسور (١) . أما النوع الثاني من الجسور ، فهي الجسور البلدية ؛ ويفهم من كلام القلقشندي أن هذا النوع تستفيد منه منطقة معينة محدودة ، لا البلاد كلها . ولهذا لا تتكفل الدولة بصيانتها والإشراف عليها - كما هو الحال في الجسور السلطانية - وإنما « هي خاصة ببلد دون بلد ، ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأمراء والأجناد وغيرهم ، من أموال البلاد الجارية في إقطاعهم » (٢) :

ويتكلم القلقشندي عن أنواع الأراضي في مصر ، ومدى خصوبتها والإقبال على زراعتها : وبناء على هذا تتفاوت الرغبة فيها وتختلف قيمتها باختلاف قيمة ما يزرع فيها : ثم يقسمها - نقلاً عن ابن مماتي - إلى ثلاثة عشر نوعاً ، أولها الباقي « وهو خير الأرضين وأغلاها قيمة وأوفاهما سعراً وقطيفة » لأنها تصلح لزراعة القمح والكتان . وآخرها السباخ « وهو أرض غلب عليها الملح ، فملحت حتى لم ينتفع بها في زراعة الحبوب ، وهي أردى الأرضين » (٣)

(١) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٩ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٠ - ٤٥٣ .

وفيما عدا ذلك فإن عناية حكام مصر بأمر الزراعة — وخاصة في العصرين الأيوبي والمماليكي — ظهرت ضمنها في كثير من التواريخ والمناشير الإقطاعية التي يوصى فيها السلطان الأمير المقطع بتعمير البلاد المقطعة له وتأمينها ، وإهداء الغبطة إلى أفئدة أهلها حتى تسمع باغتيالها ، وعند ذلك يتحدث كل منهم بلسان الشكور (١) .

هذا عن الزراعة ، أما المعاملات بين الناس فكانت تتم وفق وحدات خاصة في الموزونات والمكيلات والمقيسات . ويقول القلقشندي في صبح الأعشى إن وحدة الموازين في حاضرة البلاد — وهي القاهرة والقسطا — كانت الرطل المصري ، وهو مائة وأربعة وأربعون درهما ، وأوقيته اثنا عشر درهما ، وعنه يتفرع القنطار المصري وهو مائة رطل . ويفهم من كلام القلقشندي أن الرطل لم يكن واحداً في جميع أنحاء الدولة ، وإنما اختلف من مكان إلى آخر . أما المكيلات ، فكانت وحداتها القدح ، وكان « بمصر أقداحاً مختلفة المقادير أيضاً كالأرطال ، ولكل ناحية منها قدح مخصوص بحسب إردبها . » على أن الوحدة السائدة بالعاصمة كانت القدح المصري وهو مائتان واثنتان وثلاثون درهما ، وكل ستة عشر قدحاً تسمى وية ، وكل ستة وتسعين قدحاً تسمى إردباً . ومرة أخرى يؤكد القلقشندي أنه بنواحي مصر في الوجهين القبلي والبحري أراذب متفاوتة يبلغ مقدار الإردب في بعضها إحدى عشرة وية بالمصري (٢)

أما المقيسات فتشمل الأراضي والأقمشة : وقال القلقشندي إن الأرض صنفان : أرض الزراعة وتقاس بالقصة الحاكية نسبة إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي ، وطولها ثمانية أذرع بنراع اليد التي تساوي ست قبضات بقبضة إنسان معتدل ، وكل قبضة أربعة أصابع ؛ أما أرض البنين فتقاس بنراع يعرف بنراع العمل ، طوله ثلاثة أشبار ،

(١) صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١٤٧ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٤٤٥ .

بشبر رجل معتدل . وأما الأقمشة فيقول القلقشندي أنها تقاس في القاهرة
بذراع طوله ذراع بذراع اليد وأربع أصابع مطبوقة « ويزيد عليه ذراع
القماش بالفسطاط بعض الشيء ، وربما زاد في بعض نواحي الديار المصرية أيضا
نحو ذلك . ولغير القماش من الأصناف أيضا كالحصر وغيرها ذراع
يخصه » (١) .

ويعطينا القلقشندي فكرة عن الأسعار في عصره ، فيقول : إن سعر
إردب القمح بلغ خمسة عشر درهما ، والأرز فوق ذلك ، واللحم
حوالي نصف درهم للرطل ، والدجاج الجيد منه درهمين إلى ثلاثة
للطائر ، والسكر الرطل بدرهم ونصف والمكرر منه بدرهمين ونصف .
ويقول القلقشندي : إن هذه الأسعار بقيت إلى ما بعد سنة ٧٨٠ هـ
« عندما غلت الأسعار وتزايدت في كل صنف من ذلك وغيره (٢) » .

أما عن المالية العامة لمصر في العصور الوسطى ، فيحكي القلقشندي
كثيرا من المعلومات الطريفة عنها في كتابه صبح الأعشى ، والمعروف
أن المالية العامة تشمل الإيرادات والمصروفات . أما الإيرادات
فعبارة عن الموارد الأساسية لبيت المال في ذلك العصر . وهنا نجد
القلقشندي يقسم لنا هذه الموارد إلى قسمين : شرعية وغير شرعية :
فالموارد الشرعية أولها المال الخراجي ، أي ضريبة الأرض أو الخراج ،
وكان أكثر خراج الوجه القبلي — على أيام القلقشندي — غلالا عينية
من قمح وشعير وحمص وفول وعدس وبسلة : والأغلب أن يؤخذ
عن خراج كل فدان من الأصناف المذكورة ، ما بين إردبين إلى ثلاثة ،
بكيل تلك الناحية . هذا في حين أن خراج معظم بلاد الوجه البحري
دراهم ، أي نقدا وليس عينا . والمورد الثاني من الموارد الشرعية
لبيت المال كان ما يتحصل مما يستخرج من المعادن مثل الزمرد والشب
والنظرون ، وجميعها احتكرها سلاطين مصر لشدة طلب الأوربيين عليها

(١) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٦ - ٤٤٧ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٧ - ٤٤٨ .

« وليس لأحد أن يبيعه أو يشتريه سوى الديوان السلطاني ، ومنى وجد مع أحد شيء من صفته استهلك (صودر) (١) . وبعد ذلك يأتي المورد الثالث لبیت المال وهو الزكاة . وقد أصبح الوضع في عصر المالک أن من تجب عليهم الزكاة صاروا يفرقونها بأنفسهم ، ولم يبق ما يؤخذ من الناس في صورة زكاة إلا نوعان : الأول ما يؤخذ من التجار على ما يدخلون به إلى البلاد من ذهب أو فضة ، وهذه الضريبة تبلغ حوالي ٢ أو ٢ ونصف في المائة . والثاني ما يؤخذ من مواشي أهل برقة — من الغنم والإبل — عند وصولهم إلى البحيرة للرعى (٢) . أما المورد الرابع فهو الجوالى أى الخزينة المقررة على أهل النعمة في كل سنة ، وكانت ضئيلة القيمة في عصر القلقشندي ، إذ تراوحت بين خمسة وعشرين درهما وعشرة دراهم تستأدى معجلة (مقلما) في شهر رمضان من كل عام . والمورد الخامس هو ما يؤخذ من تجار الكفار الواصلين في البحر إلى الديار المصرية ، وقد بلغت هذه الضريبة الخمس في عصر المالک « وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضا . (٣) » وبعد هذا يأتي المورد السادس لبیت المال وهو الموارث الحشرية ، ويقصد بها مال من يموت وليس له وارث خاص . ولهذه الجهة ناظر يولى من قبل السلطان ويحمل المتحصل منها إلى بیت المال . (٤) أما المورد السابع لبیت المال فهو ما يتحصل من دار الضرب بالقاهرة ، وكان يضرب بها ثلاثة أصناف ، هى الذهب ، والفضة النقرة والفلوس النحاس . ويقصد بهذا المورد الضريبة التى تؤخذ من صاحب الذهب أو الفضة أو النحاس مقابل ضرب معدنه وتحويله إلى دنانير أو دراهم أو فلوس ، بعد ضبط عيارها (٥) .

هذا عن الموارد الشرعية لبیت المال ، أما عن الموارد غير

(١) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٩ - ٤٦٠ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦١ - ٤٦٢ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٤ .

(٥) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٥ - ٤٦٨ .

الشرعية فيقصد بها القلقشندى المكوس المتنوعة التى لا يوجد لها سند شرعى يبرر فرضها . ومعظم هذه المكوس التى ذكرها القلقشندى مفروضة على المتاجر — وبخاصة التوابل — التى كان الكارمية يجلبونها إلى مصر ، فضلاً عما كان يؤخذ بحاضرة الديار المصرية — القسطنطينية والقاهرة — من مكوس وضرائب ، مثل «مكوس الملاهى والقراريط على الأملاك المبيعة» . وكان صلاح الدين الأيوبي قد أبطل هذه المكوس غير الشرعية ، ولكنها عادت أشد ما تكون — وخاصة فى عصر المماليك — « فعمت البلوى بهذه المكوس ، وخرجت فى التريد عن الحد » (١) .

أما عن السياسة النقدية ، فنجد القلقشندى يوضح لنا فى كتابه «صبح الأعشى» أنواع العملة المتداولة فى مصر على عصر سلاطين المماليك ، وهى الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية ، والمفروض فى علم الاقتصاد أن الذهب هو أساس النقد دائماً ، وبه تقوم بقية النقود من فضة ونحاس . وقد أشار القلقشندى إلى أن العبرة فى وزن الدنانير بالثاقيل ، وضابطها أن كل سبعة مثاقيل زنتها عشرة دراهم من الدراهم الآتى ذكرها ، والمثقال معتبر بأربعة وعشرين قيراطاً . وقد لجأ بعض سلاطين المماليك إلى ضرب دنانير ذهبية يتعامل بها الناس ، من ذلك أن الأمير صلاح الدين بن عرام — نائب الإسكندرية فى عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين — ضرب دنانير زنة كل منها مثقال نقش على أحد وجهيها « محمد رسول الله » ، وعلى الوجه الآخر « ضرب بالإسكندرية فى الدواة الأشرفية شعبان بن حسين عز نصره » . كذلك ضرب الأمير يلغا السالمى — فى عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق — دنانير زنة كل واحد منها مثقال ، كتب فى وسطها كلمة « فرج » ، على أنه يفهم من القلقشندى أن الدنانير التى سكنت فى مصر فى عصر

(١) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٠ — ٤٧١

سلاطين المالك تعرضت للتلاعب ، ولم تكن ثابتة على حال واحد
« وربما كان منها مازنته مثقال ونصف أو مثقالان ، وربما كان
نصف مثقال أو ربع مثقال ، إلا أن الغالب فيها نقص أوزانها ،
وكأنهم جعلوا نقصها في نظير كلفة ضربها . . . (١) » .

وفي الوقت الذي اعتري الدنانير المالكية ذلك الخلل ، وتعرضت
لتلاعب السلاطين والأمراء بغية الربح غير المشروع ، مما أفقدها
ثقة المتعاملين ، يذكر القلقشندي أن البندقية ضربت في القرن الثالث
عشر للميلاد (السابع للهجرة) عملة ذهبية عرفت باسم الأفرنتية
أو الدوكات ، امتازت بعارها الصحيح ووزنها الثابت ، وسمكها
المحدد ، مما جعل الناس يقبلون على التعامل بها . وقد وصف
القلقشندي في صبح الأعشى هذه العملة الأوربية ، فقال: إنها « معلومة
الأوزان ، كل دينار منها معتبر بنسعة عشر قيراطاً ونصف قيراط
من المصرى . . . وهذه الدنانير مشخصة على أحد وجهيها صورة
الملك الذى تضرب في زمنه ، وعلى الوجه الآخر صورتنا بطرس
وبولس الحواريين اللذين بعث بهما المسيح عليه السلام إلى رومية .
ويعبر عنها بالأفرنتية جمع أفرنتى وأصله أفرنسى ... ويعبر عنه
أيضاً بالدوكات ، وهذا الاسم في الحقيقة لا يطلق عليه إلا إذا كان
ضرب البندقية من الفرنجة ، وذلك أن الملك اسمه عندهم دوك... » (٢) .
ولم يلبث أن انتشر الدوكات البندقى وعم استعماله في مصر وأشام
وغيرهما من بلدان المسلمين ، بعد أن حاز ثقة المتعاملين ، الأمر
الذى أزعج سلاطين المالك ، فحاول السلطان الناصر فرج بن برقوق
عمل دنانير جديدة « على زنة الدنانير الأفرنتية المتقدمة الذكر » ،
بمعنى أنه جعلها ثابتة الوزن ، وبزنة مثقال تماماً . وقد عرفت هذه
الدنانير بالناصرية ، نسبة إلى السلطان الناصر فرج ، وكثر وجودها

(١) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٠ - ٤٤١ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤١ .

وعم استعمالها ، ولكنها كانت مع ذلك تقل بمقدار عشرة دراهم عن الدنانير الإفرنتية . وهكذا ظل « صرف الذهب بالدينار المصرية لا يثبت على حال ، بل يعلو تارة ويهبط أخرى بحسب ما تقتضيه الحال » ، على قول القلقشندي (١) :

أما الدراهم الفضية أو الدراهم النقرة ، فالمفروض فيها أن يكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس ، والعبرة في وزنها بالدرهم ، وهو معتبر بأربعة وعشرين قيراطاً ، « والدرهم من الدينار نصفه وخمسه ، وإن شئت قلت سبعة أعشاره ، فيكون كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم » (٢) .

وأما الفلوس النحاسية - ومقردها فلس - فكانت أقل أنواع العملات . ويذكر القلقشندي أن السلطان الناصر حسن غنى بضرب فلوس جيدة سنة ٧٥٩ هـ اشتهرت بالحدود جمع جديد ، زنة كل فلس منها مثقال « فجاءت في نهاية الحسن ، وبطل ما عداها من الفلوس ، وهي أكثر ما يتعامل به أهل زماننا » . ولكن الفلوس هي الأخرى تعرضت للتلاعب ، فأنقص وزنها عن المثقال « حتى صار فيها ما هو دون الدرهم ، وصار تكوينها غير مستدير » . واختلف تقييمها بالليزان « فكانت توزن بالقبان كل مائة وثمانية عشر رطلا بالمصري : بمبلغ خمسمائة درهم ، ثم أخذت في التناقص لصغر الفلوس ونقص أوزانها ، حتى صار كل مائة وأحد عشر رطلا بمبلغ خمسمائة » . ثم حدث للفلوس ما يتكرر حدوثه حتى العصور الحديثة عندما يغلو سعر المعدن المصنوعة منه ، إذ يذكر القلقشندي أن خلوا النحاس وقلة الوارد منه إلى الديار المصرية أدى إلى اختفاء الفلوس النحاسية ، حيث أقبل التجار على جمعها للاستفادة مما فيها من معدن . هذا على أن كثيراً من التجار حملوا الفلوس النحاسية المضروبة في مصر إلى الحجاز واليمن

(١) صبيح الأمانى ، ج ٢ ، ص ٤٤٢ .

(٢) صبيح الأمانى ، ج ٣ ، ص ٤٤٣ .

وغيرهما من البلاد ، الأمر الذى « يوشك إن دام هذا أن تنفذ الفلوس من الديار المصرية ، ولا يوجد ما يتعامل به الناس !! (١) » .

على أن ثمة جانباً خطيراً فى تاريخ مصر الاقتصادى — هوجانب التجارة — لا يبدو صريحاً فى كتاب صبح الأعشى ، وإن كان من الممكن بشيء من المثابرة والمثابرة استخلاص كثير من المعلومات الهامة التى تلقى ضوءاً ساطعاً على التجارة الخارجية لمصر فى العصور الوسطى ، وخاصة فى عصر سلاطين المماليك . والمعروف أن مصر كانت دائماً أبداً — فى مختلف عصور التاريخ — معبراً هاماً من معابر التجارة بين الشرق والغرب ، وإذا كان من الطبيعى قبل شق قناة السويس ، أن تكون لها موانئ نشيطة على ساحل البحر الأحمر — أو القلزم — تستقبل تجارة الشرق وخاصة من التوابل ، لتنتقل إلى القاهرة وموانئ البحر المتوسط ، حيث يفد التجار الأوربيون يجلبون بضائع بلادهم من جهة ويشتررون توابل الشرق من جهة أخرى . وهنا نجد القلقشندى فى صبح الأعشى يوضح لنا طريق التجار عبر مصر ، فيقول : إن التجار الكارمية كانوا يحملون بضائعهم فى بحر القلزم من جهة الحجاز واليمن وما والاها إلى عيذاب والقصير ، ومن هناك تنقل البضائع عبر الصحراء الشرقية حتى قوص « ومن قوص إلى فندق الكارم بالفسطاط فى بحر النيل » (٢) : أما موانئ مصر على البحر الأحمر ، فقد حددها القلقشندى بأربع ، أولها عيذاب وكان رؤساء المراكب يفضلونها لوقوعها مقابل جدة فكان يسهل التعدية إليها ، وإلى الشمال من عيذاب يقع القصير وهو أقل أهمية من عيذاب وإن كانت بعض السفن تفضله « لقربه من قوص وبعد عيذاب منها » . وفى الشمال يوجد الطور ، وكانت له أهمية قديمة ، ولكن التجار قاطعوه « لما فيه من الشعب (المرجانية) الذى ينحش على المراكب بسببه » . وظل أمر الطور مهملاً حتى كانت سنة ٧٨٠ هـ عندما عفى بأمره الأمير صلاح الدين

(١) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٤ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٨ .

ابن عوام ، فعمر فيه السفن وعندئذ قصده الناس ، ووصلت إلى الطور
« مراكب العن بالبخائع ورفضت عيذاب والقصير » . وأخيرا كان
ميناء السويس على القرب من مدينة القلزم ، ولكن هذا الميناء ظل مهملا
« والدخول إليه نادر ، والعملة على ساحل الطور كما تقدم (١) » .

هذا عن ثغور مصر ومنافذ تجارتها الخارجية على ساحل البحر الأحمر
في العصور الوسطى ، أما على ساحل البحر المتوسط ، فكان لمصر ثغران
كبيران ، أولهما دمياط « وهى مدينة حسنة عند مصب الفرقة الشرقية من النيل
في بحر الروم ، ذات أسواق وحمامات » . ولا يخفى علينا أن دمياط كانت
ميناء مصر الأول على البحر المتوسط طوال شطر كبير من العصور الوسطى ،
لوقوعها على مصب النيل مما أدى إلى سهولة ارتباطها بداخلية البلاد من
ناحية ، ولقربها من بلاد الشام من ناحية أخرى . ولعل نشاط دمياط
التجارى وأهميتها الاقتصادية جعلتها مطمعا للصليبيين « فتسلطت عليها
الفرنج ، وملكها مرة بعد مرة » ، على قول القلقشندى . ولعل تعرض دمياط
لحملتين صليبيتين كبيرتين في النصف الأول من القرن السابع الهجرية
(الثالث عشر للميلاد) جعل المسلمون يخربون « أسوارها في سنة ثمان
وأربعين وسبعمائة (١٢٥٠ م) خوفا من استيلائهم (الفرنج) عليها » . (٢)
وهكذا تجمعت عدة عوامل لتجعل الإسكندرية بعد منتصف القرن
السابع للهجرة (الثالث عشر للميلاد) ميناء مصر الأول على البحر المتوسط
حتى صارت « أجل ثغور الديار المصرية » . وقد أفاض القلقشندى
في وصف الإسكندرية على أيامه ، وما بها من قصور ومنشآت وبساتين
وغيرها . وكان أن أصبحت الإسكندرية مقصد التجار « وإليها تهوى
ركائب التجار في البر والبحر ، وتمير من قماشها جميع أقطار الأرض ،
وهى فرضة بلاد المغرب ، والأندلس ، وجزائر الفرنج ، وبلاد الروم
والشام » . (٣) غير أن نشاط الإسكندرية الاقتصادية جعلها مطمع

(١) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٨ - ٤٦٩ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٠٦ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٠٨ .

الصلبيين في أواخر العصور الوسطى ، فصرفوا النصارى عن دمياط ليوجهوا ضربة قاسية إلى الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) عندما هاجمها بطرس لوزجنان ملك قبرص . ويشير القلقشندي إلى ما فعله الصليبيون في تلك السنة بالإسكندرية ، « حين طرقها العدو المخلول من الفرنج سنة سبع وستين وسبعائة ، واجتاح أهلها وقتل وصبي » . ويربط القلقشندي بين تلك الحملة الصليبية التي تعرضت لها الإسكندرية ، وبين تحويلها من مجرد ولاية صغيرة إلى « نيابة كبرى تضاهي نيابة طرابلس وحماة وما في معناهما » . (١)

هذا عن ثغور مصر وموانئها التجارية في العصور الوسطى . أما عن علاقات مصر التجارية مع دول الشرق والغرب جميعا في تلك العصور ، فنجد عنها الشيء الكثير في كتاب صبح الأعشى ، وذلك بين ثنايا الكتب الواردة إلى الأبواب السلطانية أو الصادرة عنها إلى ملوك وحكام الشرق والغرب . ويضيق بنا المجال عن تتبع عشرات الكتب التي أوردها القلقشندي والتي لا تحلو معظمها من إشارات إلى علاقات تجارية بين حكام مصر من ناحية وتلك الدول من ناحية أخرى . ولكن يكفي أن نقرب مثلين ، أحدهما برسالة من الشرق ، والآخر برسالة من الغرب . أما الأولى فيقول القلقشندي : إنها وصلت إلى مصر سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣ م) من صاحب مملكة سيلان « وهي من جملة ممالك الهند » يقول فيها : « إن عنده الجواهر واللآلئ والفيضة والقماش الكثير من البز وغيره ، وكذلك البقم والقرفة وجميع ما يطلب الكارم . وأن عنده في كل سنة عشرين مركبا يسيرها إليه ، فيطابق مولانا السلطان التجار إلى البلاد » . (٢) أما الرسالة الثانية فبعث بها ميكائيل دوق البندقية سنة ٨١٤ هـ (١٤١١ م) ، يقول فيها مخاطبا سلطان مصر « السلطان للعظيم ملك الماوك (فرج الله) ناصر الملة الإسلامية ، خلد الله سلطانه . يقبل الأرض بين يديه نقولا

(١) صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٤٠٨ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٧٧ .

دوج البنادقة ، ويسأل الله أن يزيد عظمته ؛ لأنه ناصر الحق ومؤيده ،
وموئل الممالك الإسلامية كلها . وينهى ما عنده من الشوق والمحبة لمولانا
السلطان ، وأنه لم تزل أكابر التجار والمحترمين والمترددین من الفرنج
إلى الممالك الإسلامية شاكرين من عدل مولانا السلطان وعلو محبته ،
وتزايد الدعاء ببقاء دولته . وقد رغب التجار بالتردد إلى مملكته
الشریفة بواسطة ذلك ... » (١).

أما عن موقف حکام مصر من ذلك النشاط التجارى الذى هیأه لهم
موقع بلادهم ، فیلو مما ذكره القلقشندى أنهم عملوا على الاستفادة منه
استفادة كاملة . وثمة رسالتان على جانب خطیر من الأهمية وردتا
فی صبح الأعشى ، وهما جدیرتان بعناية الباحثین نظرا لما فیهما من معان
عمیقة توضح حرص حکام مصر على إغراء التجار الأجانب على القدوم
إلى مصر بیضائعهم ومتاجرهم ، لیبعها من ناحية وابتیاع ما یلزمهم
من فاحية أخرى . أما عن الرسالة الأولى فصادرة عن السلطان المنصور
قلاوون سنة ٦٧٨ هـ للقاضی جمال الدین بن بصاصة ناظر ثغر
الإسكندرية ، وفيها یوصى السلطان ناظر الثغر بأن یحرص على « معاملته التجار
الواردین إلیه بالعدل الذى كانوا ألفوه ، والرفق الذى نقلوا أخباره
السارة عنه ، فإنهم هدايا البحور ، ودواب الثغور ، ومن ألسنتهم
یطلع على ما تجنه الصلور ، وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له
أجنحة مراکبهم كالطیور . ولیعتد معهم ما تضمنته المراسیم الشریفة
المستمرة الحکم إلى آخر وقت ، ولا یسلک معهم حالة توجب لهم
الخزائن والتظلم والمقت ، ولیواصل بالحمول إلى بیت المال المعمر ،
ولیملأ الخزائن السلطانية من مستعملات الثغر وأمتعته وأصنافه لكل
ما تستغنی به عن الواصل فی البرور والبحور ، ولیصرف همته العالیة
إلى تدبیر أحوال المتساجر بهذا الثغر ، بحيث ترتفع رعوس أموالها
وتنمى ، وتوجد سحائب قوائدها وتمیى » (٢) ومن الواضح أن هذه

(١) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٤١٩ - ٤٢١ .

الرسالة تعتبر في حد ذاتها نموذجاً رائعاً ودليلاً قاطعاً على مدى حرص
حكام مصر — وخاصة في عصر سلاطين المماليك — على تقديم كافة
التسهيلات للتجار الأجانب المترددين على الثغور المصرية ، وذلك لجنسهم
إلى البلاد ، مما يعود عليهم بالنفع والفائدة .

أما الرسالة الثانية ، فهي عبارة عن منشور أصدره السلطان المنصور
قلاوون إلى تجار الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم . .
يغريهم على القلوم إلى مصر بمتاجرهم وأموالهم ، ويعدهم بتوفير الأمن
والطمأنينة والعدالة وحسن المعاملة لهم . . . ومن يؤثر الورود إلى
ممالكنا إن أقام أو تردد ، النقلة إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها ، الظليلة
أفياؤها وأفتاؤها ، فليعزم عزم من قدر الله له في ذلك الخير والخيرة ،
ويحضر إلى بلادنا يحتاج ساكنها إلى ميرة ولا إلى ذخيرة ؛ لأنها في الدنيا
جنة عدن لمن قطن ، ومسلّة لمن تغرب عن الوطن . . فمن وقف على
مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند ، والصين ، والسند ،
وغيرهم ، فليأخذ الأبهة في الارتحال إليها ، والقلوم عليها ، ليجد
الفعل في المقال أكبر ، ويرى إحساننا يقابل في الوفاء بهذه العهود
بالأكثر . . . ومن أحضر معه بضائع من بهار وأصناف تحضرها
تجار الكارم ، فلا يخاف عليه في حق ، ولا يكلف أمراً يشق . . . (١)

ونحن إذا اعتمدنا على الوثائق السابقة الواردة في كتاب صبح الأعشى
للاستشهاد بمحرص حكام مصر على تشجيع التجارة والتجار وإكرام
وفادتهم في مصر وتوفير العدالة وحسن المعاملة لهم ، فلا يفوتنا أن نشير
إلى بعض وثائق أخرى أوردها القلقشنلى تشير إلى ما كان يتعرض له
أحياناً التجار الأوربيون من الظلم وسوء المعاملة في مصر . من ذلك
أن دوق البندقية أرسل سنة ٨١٤ هـ يشكو مما حدث في العام السابق ،
من « أن مولانا السلطان مسك قنصل البنادقة والمختشين من التجار
بشقر الإسكندرية المحروس ، وزنجهرهم بالحديد ، وأحضرهم إلى القاهرة ،

(١) صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٤٠ : ٣٤١ .

وحصلت لهم البهجة بين جنوسهم ، والضرر والقهر الزائد ، وكسر
حرمتنا بين أهل طائفتنا ٠٠٠ (١) ورأينا الخالص في هذا الصدد ،
أن الطابع الغالب كان الإحسان إلى التجار الأجانب ، وحسن استقبالهم
ومعاملتهم . أما ما عدا ذلك فلا يعدوا حالات قليلة نادرة كانت صدى
مباشراً للتوتر السائد بين المسيحيين والمسلمين في عصر الحروب الصليبية
وذبولها .

٠ ٠ ٠

أما عن الحياة الاجتماعية في مصر في العصور الوسطى ، فنخرج من
كتاب صبح الأعشى بصورة واضحة عن مظاهر الترف والثراء التي أحاطت
بالبلاط ، سواء في عصر الخلفاء الفاطميين أو عصر سلاطين المماليك .
ولعل الظاهرة التي تسرعى الانتباه هي أن القلقشندى في صبح الأعشى
لا يخلص الدولة الأيوبية بجزء مستقل من كتابته ، وإنما يدمج الدولة
الأيوبية في الدولة المماليكية ، ويتكلم عما كان عليه « ترتيب المملكة
من ابتداء الدولة الأيوبية وإلى زماننا » . وربما كان السر في ذلك
هو ما سبق أن أشرنا إليه من أن كثيراً من النظم والأوضاع التي سادت أيام
المماليك إنما كانت في حقيقة الأمر استمراراً لأصول ظهرت أيام الأيوبيين .
على أن ثمة حقيقة أخرى هامة ينبغي أن نضعها دائماً موضع الاعتبار ،
هي أن الدولة الأيوبية كانت وليدة الحروب الصليبية ، وجاء ظهورها
نتيجة لتيار الجهاد الديني ضد الصليبيين ، وبالتالي فإن هذا التيار الدافق
حال دون الإسراف في مظاهر الترف والصفخة التي أحاطت بالبلاط
الفاطمي من ناحية والبلاط المماليكي من ناحية أخرى .

وثمة ملحوظة أخرى ، هي أننا في دراستنا لكتاب صبح الأعشى
لاستخلاص صورة عن الحياة الاجتماعية بمصر في العصور الوسطى ،
تواجهنا حقيقة هامة هي أن القلقشندى لا يهتم إلا بإبراز ما يتعلق بحياة
الحكام دون غيرهم من طبقات الشعب . ولا يخفى علينا أن القلقشندى

(١) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ١٢٢ - ١٢٤ .

كتب كتابه صبح الأعشى في غرض معين هو صناعة الإنشاء ، وأن ديوان الإنشاء في حد ذاته يمثل جهازا من أرفع أجهزة الدولة وأكثرها ارتباطا « بالأمور السلطانية » (١) بحيث أن صاحبه « يكاد ألا يكون عند الملك أنخص منه ولا ألزم لمجالسته » (٢) وهكذا لا تنتظر من القاقشندى مهما يستطرد في كتابه أن يتعرض كثيرا لأوضاع عامة الشعب والمظاهر الاجتماعية العامة للأمة ، وإنما هو يتكلم عن الخلفاء والملوك ، فإذا أشار إلى الأعياد الدينية والقومية ، فإنه يفعل ذلك ليصف دور الخليفة أو السلطان في تلك الأعياد ، من حيث موكبه وملبسه وما ينعم به في تلك المناسبات على رجال دولته . . . وإذا ترك جانب الخليفة أو السلطان حينما ، فحسبه أن يتكلم عن « أعيان المملكة » (٣) ممن لهم صلة مباشرة بالسلطان . وربما أشار القاقشندى إلى بعض فئات — مثل أهل الذمة — ولكن تلك الإشارات العابرة إنما تأتي في مجمل كلامه عن الوزارة أو ضمن رسالة تصل إلى السلطان من أحد ملوك العالم المسيحي بوصيه خيرا بالقطب في مصر : . . . فهي إشارات سريعة عابرة ، قد تكون لها أهميتها ولكنها غير مقصودة .

وهكذا نجد في كتاب صبح الأعشى وصفا رائعا لحياة الخلفاء الفاطميين العامة والخاصة ، وما أحاط بهذه الحياة من مظاهر الثراء والإسراف . فإذا كان مجلسه في الشتاء علق المجلس بستور الديباج وفرش بالبسط الحريري ، وإن كان في الصيف : علق بالاستور الدبيقية وفرش بطبرى طبرستان الذهب (٤) . أما إذا خرج الخليفة الفاطمي في موكب ، فكانت تعد له ولرجاله مائة فرس مسومة ، عابها سرج موشاة بالذهب والفضة ، وبعضها مرصع بالجواهر ، وفي أعناق الخيل أطواق الذهب وقلائد العنبر ، وفي أرجلها خلاخل الذهب والفضة . . (٥) أما الأسطة

(١) صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٩٠ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٠١ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٩ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٤٩٩ .

(٥) صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٥٠٤ .

الفاخرة الشهيرة التي كانت تمد بقصر الخليفة ، فأشهرها في رمضان والعيدين ، وكانت تنصب الخليفة مائدة من فضة تعرف بالدورة ، عليها الأواني الذهبية والفضية الحاوية للأطعمة الفاخرة ، ويعمر السماط بواحد وعشرين طبقاً عظيماً ، في كل طبق واحد وعشرون خروفاً من الشوى ، وفي كل واحد منها ثلثمائة وخمسون طيراً من الدجاج والفرايح وأفراخ الحمام . . . عدا الحلوى المائعة والأطعمة الفاخرة . . . (١)

فإذا انتقلنا إلى عصر سلاطين المماليك وجدنا الصورة أتم ما تكون ظهوراً ، إذا أفاض القلقشندي في وصف حياة السلاطين ، وتكلم في إسهاب عن البيوت السلطانية كالشراب خاناه والقراش خاناه والطشت خاناه . . . وما كانت تحويه من آلات وما تضمه من موظفين وغلان. وبلغ الأمر بسلاطين المماليك أنهم جلبوا الثلج من بلاد الشام لتبريد الماء زمن الحر صيفاً ؛ وذلك « لكمال الرفاهية والأبهة » ، فقرروا له هيجنا تحمله في البر وصغنا تحمله في البحر ، حتى يصل إلى القلعة حيث يحفظ بالشرابخاناه . وذكر القلقشندي أن السفن الخاصة بنقل الثلج ، من الشام بلغت على أيامه حوالى سبع ، كانت تأتي إلى دمياط ، ثم ينقل الثلج في النيل إلى ساحل بولاق ، ومن هناك تحمله البغال إلى الشرابخاناه بالقلعة . أما المهجن المخصصة لنقل الثلج فكانت لها مراكر خاصة أشبه بمراكر البريد (٢). وفي القصر السلطاني كانت تمتد الأسمة الفاخرة عدة مرات يومياً ؛ ويشرف على هذه الأسمة الأمير الجاشنكير ، ومهمته أن يأكل قبل السلطان خوفاً من أن يدرس عليه السم في أكله أو شربه . (٣) واشتهر سلاطين المماليك وأمرؤهم بولعهم الشديد بألعاب الفروسية والصيد والرياضة على اختلاف أنواعها « لما في ذلك من تمرين النفوس على اكتساب التأيد وحصول المسرة بكل ظفر جديد » (٤) وثمة

(١) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٥٢٧ - ٥٢٨ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٥ - ٣٩٧ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٠ ، ٣٩٦ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٦٦ .

رسائل في الصيد ذكرها القلقشندي تعطينا صورة قوية واضحة عن أهمية رياضة الصيد في المجتمع المالكي ، وما أضفاه عليها المالك من مظاهر العناية والعظمة ، (١) فضلا عما في هذه الرسائل من وصف لطريقة الصيد واستخدام الجوارح الصائدة ؛ سواء في صيد الطير أو صيد الوحوش. (٢) ومن الرياضات المحببة إلى المالك أيضا لعب الكرة ، وقد وصف القلقشندي هيئة السلطان عند خروجه للعب الكرة في الميدان الأكبر ، كما ذكر أن السلاطين اعتادوا أن يتمتعوا على أمرائهم بالخيول والحواشي الذهبية في تلك المناسبة (٣)

وبالإضافة إلى ما في كتاب صبح الأعشى من أوصاف ذات قيمة علمية بالغة للبلاط والحياة الرسمية والمواكب السلطانية وحياة السلاطين الخاصة والعامة ، فإنه يتضمن أيضا معلومات طريفة عن زى أعيان المملكة ، سواء أرباب السيوف من الأمراء ، أو أرباب الوظائف الدينية كالفقهاء والعلماء ، أو مشايخ الصوفية ، أو أرباب الوظائف الدنيوية : (٤) كذلك نجد القلقشندي يحكى الكثير عن المناسبات والأعياد الدينية والقومية ، وما كان يحدث فيها أحيانا من انحرافات اجتماعية : (٥) وثمة إشارات في كتاب صبح الأعشى إلى بعض الأمراض الاجتماعية التي عرفها المجتمع المصرى في تلك العصور ، مثل الرشوة والزنا واللواط وشرب الخمر . : وغيرها . (٦)

أما عن أحوال أهل النمة — وخاصة النصارى — ووضعهم الاجتماعى في مصر في العصور الوسطى ، فيبدوا مما كتبه القلقشندي وأورده في كتابه صبح الأعشى من وثائق أن وضعهم لم يكن سيئا على طول الخط ، مثلما يحرص بعض الكتاب على تصويرهم . فالقلقشندي يذكر

(١) صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٦٥ وما بعدها .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ١٦٧ - ١٧١ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٧ ، ٥٤ - ٥٥ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٦ - ٤٣ .

(٥) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٣١٣ .

(٦) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٣٠٢ - ٣٠٤ .

أن الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمي اتخذ بهرام النصراني الأرمني وزيرا له ، حتى إذا ما أغضب هذا الوضع المسلمين فر بهرام إلى الشام ، وكسب إلى الخليفة الحافظ « يطلب أهله وجماعته من الأرمن الذين كانوا معه في جملة جند الديار المصرية » . (١) وهذه القصة في حد ذاتها توضح لنا أن هناك جالية من المسيحيين عملت في خدمة الخلافة الفاطمية ، وأن بعض أفراد هذه الجالية وصلوا إلى أرق مناصب الدولة . كذلك جاء في كتاب صبح الأعشى أنه حدث أيام الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمي أن « امتدت أيدي النصارى ، وبسطوا أيديهم بالخيانة ، وتفنتوا في أذى المسلمين وإيصال المضرة إليهم » . واتخذ الخليفة المذكور كتابا منهم ، فاستبد وطغى « وصاحر عامة من بالديار المصرية ، من كاتب وحاكم وجندى وعامل وتاجر . . . » (٢) . وبرغم ما هو معروف من تعرض أهل الذمة في بعض أوقات عصر المماليك للاضطهاد ، فإن القلقشندى أتى برسالة أرسلها امبراطور القسطنطينية سنة ٨١٤ هـ إلى سلطان المماليك ، يوصيه خيرا بأقباط مصر ، ويعترف له أن البطارقة أرسلوا إليه يذكرون له حسن معاملة السلطان لهم ، وكذلك على البطارقة والنصارى والكنائس على حكم معدلة السلطان ومحبة ، والوصية بهم ، ومعاونتهم ، وأجراؤهم ، على جرى صوائدهم ، من غير تشويش على ما ألفوه من إنصافكم أولا وآخرأ لأجل محبتكم لنا ومحبتنا واستمرار العناية بهم ، مع أن البطارقة عرفونا أن مولانا السلطان يبرز مرسومه بمراعاتهم والإحسان إليهم :::: » (٣)

• • •

أما عن السياسة الخارجية لمصر في العصور الوسطى ، فهنا نجد أنفسنا أمام ثروة ضخمة موزعة توزيعا غير متكافئ بين مختلف أجزاء كتاب صبح الأعشى . ذلك أن الهدف الأساسي من هذا الكتاب

(١) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٣٦٠ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٩ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ١٤١ - ١٢٢ .

هو أن يكون دراسة لفن صناعة الإنشاء ولنظام العمل في ديوان الإنشاء نفسه ، ومن ثم حرص القلقشندى فيه على أن يأتي بأمثلة لاحصر لها للمكاتبات المتبادلة بين حكام مصر من ناحية وبقية حكام العالم — مسلمين ومسيحيين — من ناحية أخرى ، وساعد القلقشندى على ذلك عمله بديوان الإنشاء نفسه ، مما مكّنه من الوقوف على عديد من الخطابات والرسائل المتبادلة بين الطرفين ، وهو أمر لم يتيسر لسائر الكتاب والمؤرخين .

وثمة حقيقة تسترعى انتباهنا عندما نتصفح كتاب صبح الأعشى لنقف على علاقات مصر الخارجية في العصور الوسطى ، هي أن غالبية المكاتبات والمراسلات والوثائق التي أتت بها إنما ترتبط بعصر سلاطين المماليك بالذات . وقد يكون بعض السر في هذا أن ذلك العصر هو عصر القلقشندى نفسه ، الذي عاش فيه وعاصر أحداثه واطلع في ديوان الإنشاء على خباياه وأسراره ، وأسهم بيده في كتابة بعض وثائقه . ولكننا ينبغي أن نضيف إلى ذلك حقيقة هامة هي أن عصر سلاطين المماليك في مصر يمثل أنشط عصور التاريخ المصرى في السياسة الخارجية — على الأقل في العصور الوسطى — ، لأن مصر في ذلك العصر كانت تبدو في نظر كافة الدول الإسلامية في المشرق والمغرب قاعدة الخلافة العباسية ، والقوة الضاربة التي تزود عن الإسلام والمسلمين ، فلا أقل من أن يتجه إليها ملوك المسلمين وحكامهم يخطبون ودها وينشلون تأييدها ، ويطلبون مساعدة حكامها ضد خصومهم وأعدائهم . ومن ناحية أخرى بدت مصر في ذلك العصر في نظر القوى غير الإسلامية وبخاصة المسيحية في صورة مركز المقاومة الإسلامية وقلب العالم الإسلامى النابض والقوة المتحركة في أفضل طرق التجارة بين الشرق والغرب ، فإن لم يكن الاتصال بها ضروريا في شئون السياسة والحرب ، فلا غنى عن الاتصال بها في عالم التجارة والمال .

وفما يتعلق بالروابط بين مصر والدول العربية الآسيوية ، أشار القلقشندي في صبح الأعشى إلى بعض المكاتبات التي أرسلها السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي ببغداد يستنصره على الصليبيين ويخبره أن البابا قد استنصرهم في الغرب ضد المسلمين « واستخرج منهم كل منخور ، وأغلق دونهم الكنائس ، ولبس وألبسهم الخلداد » حتى يستعيدوا بيت المقدس من المسلمين . ثم شرح له صلاح الدين كيف أن الصليبيين - في الحملة الصليبية الثالثة - وصلوا إلى عكا « يمدم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه » (١) أما في عصر المماليك فقد حدث أن سقطت الخلافة العباسية في بغداد وأحيائها الظاهر يبهرس في القاهرة ، ومن ثم فقد أصبح الخليفة العباسي على مقربة من السلطان « ولا يكاد يفارق السلطان سراً ولا حضراً مفارقة توجب الكتابة إليه » (٢) .

أما عن اليمن فقد ارتبطت بمصر ارتباطاً قوياً في أوائل عهد الدولة الأيوبية ، عندما فتحها جيوش صلاح الدين يوسف ونجد في كتاب صبح الأعشى نص رسالة أرسلها صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام (طغتكين) في اليمن سنة ٥٨٤ هـ يخبره بما أحرزه من نجاح في حروبه ضد الصليبيين ، ويطلب منه العودة ليستعين به على قتالهم (٣) . واستمرت العلاقة قائمة بين مصر واليمن عقب قيام سلطنة المماليك في مصر إذ بادر السلطان المنصور قطز بالكتابة إلى صاحب اليمن يشره بالانتصار على انتار في عين جالوت (٤) . كذلك أرسل السلطان المنصور قلاوون كتاباً إلى صاحب اليمن مبرراً إياه بنجاح جيوش المماليك في فتح صافيتا وغيره من الحصون الصليبية التي استولى عليها المسلمون (٥) . وثمة خطاب آخر ذكره القلقشندي أرسله المنصور قلاوون

(١) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ١٢٦ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٣٤٠ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٣٦٠ .

(٥) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٣٥٣ - ٣٥٧ .

إلى صاحب اليمن يعزبه في ولده الملك الصالح (١). أما الناصر محمد ابن قلاوون فقد أرسل رسالة إلى صاحب اليمن يشكره فيها على تهنته بنجاح عساكر الممالك في غزو أرمينية الصغرى ، ويستحثه على إرسال الأموال من اليمن لاستخدامها في الجهاد ، « وهذه المملكة اليمنية قد اجتمع فيها من الأموال ما يربى عن الحصر والحد ، ويزيد على الإحصاء والعد ، لا ينفق منها شيء في الجهاد » (٢) . وكان أصحاب اليمن يردون على هذه الرسائل معربين عن ولائهم لسلطين الممالك كما يبدو من الرسالة التي أرسلها الأشرف إسماعيل صاحب اليمن إلى الظاهر برقوق سنة ٧٩٨ هـ يطلب فيها السماح له بالهجرة وتسفير المحمل (٣) .

وفيه من كتاب صبح الأعشى أن ثمة مكاتبات دارت بين سلاطين الممالك من ناحية « وصاحب الهند والسند » من ناحية أخرى . كما تشير الرسائل التي أوردتها القلقشندي أن حدة العنف مع مغول فارس أخذت تخف وتهدأ بعد أن اعتنق حكام مغول فارس الإسلام (٤) . أما أشراف الحجاز فكانت تربطهم رابطة التبعية بسلاطين الممالك . كذلك يروى القلقشندي أن هناك روابط ربطت عرب البحرين بسلطنة الممالك ، فكان « منهم قوم يصلون إلى باب السلطان وصول التجار يجلبون جياذ الخيل وكرام المهارى واللؤلؤ وأمتعة من أمتعة العراق والهند ، ويرجعون بأنواع الحبساء والإنعام والقماش والسكر وغير ذلك » (٥) .

أما عن الدول الإسلامية ، في شمال أفريقية فيفهم من كتاب صبح الأعشى أن حكامها ربطتهم بسلاطين الممالك في مصر روابط المودة . وربما ضايق سلاطين الممالك أن بنى حفص في تونس اتخذوا ألقاب

(١) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٣٥٧ - ٣٦٠ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٧٢ - ٧٦ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٣٤٤ - ٣٥٢ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٢٣٦ وما بعدها .

(٥) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٣٧٠ .

الخلافة والإمامة ، وهو الأمر الذى ظهر فى بعض عبارات ذكرها القلقشندى عندما قال عن بنى حفص أنهم « يدعون » النسب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١) . ولكن يبدو من الخطابات المتبادلة بين بنى حفص من ناحية وسلاطين الممالك من ناحية أخرى أن الطرفين حرصا على تبادل أخبار الجهاد ضد المسيحيين فى المشرق والمغرب (٢) ، هذا عن العلاقة بين سلطنة الممالك ودولة الحفصيين فى تونس ، أما عن علاقة الممالك ببقية بلاد المغرب الإسلامى ، مثل بنى زيان فى تلمسان وبنى مرين فى فاس ، فيلاحظ أنها تأثرت بما كان هناك من صداقة بين سلطنة الممالك ، وبنى مرين ، فى الوقت الذى ساءت العلاقات بين بنى زيان وبنى مرين . يدل على ذلك ما جاء فى كتاب صبح الأعشى من رسائل أرسلها بنو مرين إلى سلاطين الممالك يبشرونهم بما أحرزوه من انتصارات على خصومهم بنى زيان ، وكيف أن سلاطين الممالك — وبخاصة الناصر محمد بن قلاوون — أرسلوا ردودا تفيض بعبارات المحبة والإخلاص لبنى مرين (٣) . وفى الوقت نفسه أرسل أصحاب تلمسان إلى سلاطين الممالك رسائل يعبرون عن ودعهم ، ولم تخل رسائلهم من مرارة لتأييد سلاطين مصر لخصومهم بنى مرين « وقد وجب شكرهم علينا من كل الجهات ، واتصلت المحبة والمودة طول الحياة ، غير أن فى قلوبنا شيئا من ميلكم إلى غيرنا . . . » (٤) . ولا أدل على قوة الرابطة بين سلطنة الممالك فى مصر وملوك المغرب العربى : من أن هؤلاء الأخيرين كانوا يقفون موقف المترقب عندما دهم خطر التتار المشرق العربى أيام هولاكو ثم أيام تيمورلنك (٥) .

(١) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٣٧٧ .

(٢) انظر نص الخطابات المتبادلة بين السلطان الظاهر برفوق من ناحية والمتوكل على الله أحمد من ناحية أخرى . صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٣٧٩ - ٣٨٤ ، ج ٨ - ص ٧٩ - ٨٤ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٣٨٩ وما بعدها ، ج ٨ ، ص ٩٩ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٨٦ .

(٥) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٤٠٧ - ٤١١ ، ج ٨ ، ص ٧٩ - ٨٤ .

فإذا تركنا شال إفريقية واتجهنا إلى غربها ، وجعلنا عدة دول إسلامية هي البرنو والكانم والتكرور ، وجميعها ذكرها القلقشندى وأشار إلى ماكان بينها وبين مصر من صلوات في العصور الوسطى . من ذلك أن ملك البرنو أرسل رسالة إلى السلطان الظاهر برقوق يشكو له عرب جذام المجاورين له ، لأنهم أخذوا جماعة من أقاربه باعومهم في الأقطار ، وطلب البحث عنهم وعدم بيعهم بمصر والشام (١) ، أما مملكة الكانم فقد قال عنها القلقشندى : إن ملوكها من بيت قديم في الإسلام . وقال عن مملكة مالى : إنها تسمى باسم أكبر مدنها التكرور وأن ملكها منسأ موسى وصل إلى الديار المصرية حاجاً أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون واجتمع به ، فأكرمه السلطان الناصر محمد (٢) .

هذا عن غرب إفريقية ، أما شرقها فكانت به الحبشة ، وهي دولة مسيحية ربطتها بمصر في تلك العصور روابط قوية نظراً لتبعية كنيسة الحبشة للكنيسة المرقسية بالإسكندرية . ويفهم من كتاب صبح الأعشى أن ملك الحبشة كان كلما خلا منصب المطرانية في بلاده ، بادر بإرسال رسالة إلى سلطان مصر يرجوه أن يأذن لبطريك الإسكندرية بإرسال مطران جديد إلى الحبشة (٣) ؟

وعندما يتكلم القلقشندى «عن ملوك الكفار ببلاد الشرق» فإنه يركز كلامه على مملكة الكرج من ناحية ومملكة أرمينية الصغرى من ناحية أخرى . ويشير القلقشندى إلى ما بين هاتين المملكتين وبين سلطنة المماليك من عداوة ، بسبب تأييدهما للمغول في فارس ، حتى وصفهم بأنهم «للعساكر الهولاكوية عتاد وذخر» ، وبأن «الملوك البيت الهولاكوهى عليهم حكم قاهر» (٤) .

(١) صبح الاعشى ، ج ٨ ، ص ٨ .

(٢) صبح الاعشى ، ج ٨ ، ص ٩ - ١٠ .

(٣) صبح الاعشى ج ٨ ، ص ٤١ - ٤٢ .

(٤) صبح الاعشى ، ج ٨ ، ص ٢٧ - ٣٠ .

أما فيما يتعلق بالدولة البيزنطية فيبدو من صبح الأعشى أن الطابع الغالب على العلاقات بينها وبين سلطنة المماليك كان طابع المهادنة والسلم . ولا يخفى علينا أن البيزنطيين وقفوا موقفا معاديا من الصليبيين بالشام ، الأمر الذى جعلهم يمنحون لمسألة سلاطين المماليك . وثمة نسخة للاتفاق بين الطرفين وردت من جهة امبراطور الدولة البيزنطية سنة ٦٨٠ هـ ونسخة أخرى صدرت عن السلطان المنصور قلاوون في نفس العام يتعهد فيها كل طرف باحترام مصالح الآخر ، لتدوم المحبة ، بين الطرفين (١) .

كذلك ذكر القلقشندي صورة خطاب من الامبراطور مافويل باليولوجي إلى السلطان الناصر فرج بن برقوق سنة ٨١٤ هـ يخاطب وده ويوصيه خيرا بالأقباط في مصر (٢) .

ويهم القلقشندي اهتماما خاصا بالعلاقات السياسية بين مصر والقوى المسيحية في غرب أوروبا ، وخاصة في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا . وتستعرض فطرنا في كتابه القلقشندي تلك المرونة في تعريب المصطلحات والألقاب الفرنجية ، فلفظ **Constable** كتبه القلقشندي كندسطل ، ولفظ **vassal** كتبه فصل ، ولفظ **Doge** كتبه دوج ودوك ، ولفظ **Captain** كتبه قبطان ، ولفظ **Podesta** كتبه بودشطا ولفظ **Consula** كتبه كئاصله ، ولفظ **Corsairs** بمعنى قراصنة كتبه كرسالية ، وألفونس كتبه الأدفونش ، والبرتغال كتبه برتقال ، **Roi du France** كتبه ريدفرنس .

ونستخلص من كتاب صبح الأعشى أن ثمة روابط عديدة ربطت سلطنة المماليك بجنوا والبندقية ونابلي في إيطاليا (٣) ، وطليطلة وبرشلونة وأرغونة في أسبانيا ، فضلا عن البرتغال (٤) . ويبدو أن أخبار سقوط عكا في قبضة المماليك في أواخر القرن

(١) صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٧٢ - ٧٨ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٤٦ - ٤٨ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٣٢ - ٣٦ .

الثالث عشر للميلاد ، جعلت حكام الممالك المسيحية في أسبانيا يسارعون إلى عقد اتفاقيات مع السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ، وهى الاتفاقيات التى ذكر القلقشندى صوراً هامة فريدة منها . (١) أما ملك فرنسا فيذكر القلقشندى أنه أرسل رسولا إلى مصر يفاوض سلطانها لتسليمه بيت المقدس مقابل مائتى ألف دينار تعهد بدفعها سنويا ولكن السلطان غضب لطلبه . (٢)

ويضيق بنا المقام عن تتبع مختلف العلاقات بين كافة القوى فى الشرق والغرب وبين مصر فى العصور الوسطى ، وهى العلاقات التى أشار إليها القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى بطريق مباشر أو غير مباشر . على أننا نخرج من الوثائق التى ذكرها القلقشندى بملحوظة هامة هى تقدم الحكام المعاصرين فى السياسة وتمسكهم بآداب المعاملة الدبلوماسية ، وقدرتهم على إخفاء نواياهم ومشاعرهم تجاه خصومهم . من ذلك ما جاء فى صبح الأعشى من نص رسالة فريدة أرسلها صلاح الدين الأيوبي إلى الملك بلووين ملك مملكة بيت المقدس يعزیه فى وفاة أبيه ، ويهته بجلوسه على عرش بيت المقدس بدله ، ويصف « مانالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلو مكانه ، وكيف لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه (٣) ! ! » مرة يروى القلقشندى عن صاحب طليطلة (الأدفونش) سوء نواياه وخبثه ، ومع ذلك فإن « مكاتباته متواصله ، والرسل بيتنا وبينه ماتنقطع على سوء مقاصده ، وخبث سره وعلايته » . وكان سلاطين مصر عندما يكتبونه يلقبونه بالملك « الجليل ، الهام ، الأسد ، الباسل : : : محب المسلمين ، صديق الملوك والسلاطين ! ! » (٤)

* * *

(١) صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٦٢ - ٧٠ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٦ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ١١٥ و ١١٦ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٣٥ .

وبعد ، فهذه عجالة قصيرة عن بعض الجوانب التي يمكن أن نستفيد فيها من كتاب صبح الأعشى في دراسة تاريخ مصر في العصور الوسطى ، وكل جالب من هذه الجوانب يمكن أن يكتب فيه الكثير مما لا يتسع له هذا البحث الموجز : بل إن كل وثيقة من عديد الوثائق التي تضمنها كتاب صبح الأعشى يمكن أن تكون موضوعا للدراسة طويلة مفصلة : هذا علنا جوانب أخرى لما خطورتها في دراسة تاريخ مصر في العصور الوسطى ، وأعرضنا عن ذكره بعد أن تعهد بعض الزملاء بالكتابة فيها ، مثل الحياة العلمية والدينية ، والعلاقة بين المسلمين والصليبيين في ضوء وثائق صبح الأعشى .

ومرة أخرى نكرر ماسبق أن ذكرناه في بداية هذا البحث من أن كتاب صبح الأعشى هو في حقيقة أمره موسوعة علمية ضخمة ، نخرج منها القارئ بجديد في كل مرة يعيد فيها قراءته . إن ما يحويه هذا الكتاب من مادة غزيرة أعظم من أن يحيط بها فرد في سهولة :

۳

فن الكتابة عند القلقشندی

بقلم: الدكتور جمال محرز

من المعروف أن أهل الحجاز هم الذين اشتقوا الخط العربي من الخط النبطي وأن الهيئة النبطية للخط ظلت غالبية على كتاباتهم وأنهم لم يتمكنوا من التخلص منها إلا بعد مضي قرنين من الزمان من تاريخ اشتقاقه أى في المدة الواقعة بين منتصف القرن الثالث الميلادى ونهاية القرن السادس الميلادى ،

ونحن نعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم اهتم بأمر تعليم المسلمين القراءة والكتابة ففراه يشترط لفك الذين يعرفون القراءة والكتابة من أسمى موقعة بلدر أن يعلم كل منهم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة .

واقبلدى المسلمون بالرسول واهتلوا بتعاليمه فاهتموا بأمر الخط أعظم اهتمام وأولوه عناية فائقة فوجدت المدارس لتعليمه واشتهرت الفسطاط بمدارسها ونبغ عدد من الكتاب فى الخط وعكف بعضهم على اشتقاق أنواع جديدة من الأنواع التى كانت معروفة فى عهده وهكذا تعددت أنواعه وأشكاله وحفظت لنا المصادر أسماء بعض من اشتهروا بجودة الخط فنذكر أن رياسة الخط جودة وإحكاماً انتهت فى العصر الطولونى إلى أبى ططبب المحرر للرجة أن أهل مدينة السلام كانوا يحسبون أهل مصر على أبى ططبب وابن عبد كان يعنى كاتب الإنشاء لابن طولون ويقولون : بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما ، واشتهر فى العصر الفاطمى ابن الصيرفى بحسن الخط واستخدمه بلدر الجمالى ،

وذاع صيت كثير من الناس فى الخط فيما تلا ذلك من عصور نكتفى

بذكر بعضهم ممن استطاعوا أن يكونوا لهم مدرسة في الخط ؛ فمن هؤلاء الحسن أبو علي الجويني الكاتب البغدادى المولد وقد رحل إلى القاهرة وأقام بها وتوفى عام ٥٨٦ هـ - ١١٧٢ م ، وابن العفيف وقد أسس مدرسة للخط في القرن الرابع عشر الميلادى وهو عماد الدين الأنصارى الشافعى المتوفى سنة ٧٣٦ هـ وسنة ١٣٣٥ م ، ومنهم ابن الصائغ مؤسس مدرسة تنسب إليه في القرن الخامس عشر الميلادى وهو عبد الرحمن بن يوسف الزين القاهرى .

ومن مظاهر اهتمام المسلمين بالخط وأمره وضعهم المؤلفات عنه وعن أنواعه والنسبة القاضلة فيه نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر كتاب القلم وهو رسالة في خط الكتابة لإسحق بن إبراهيم اليربرى المعروف بابن العديم من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وكتاب منهاج الإصابة في أحوال الكتابة للشيخ شمس الدين محمد بن أحمد ابن على الزفتاوى المولود سنة ٧٥٠ هـ مسنة ١٣٤٩ المكتوب المخود بالقسطاط وله مختصر في قلم الثلث ، ومنها العناية الربانية في الطريقة الشعبانية وهى ألفية من نظم الشيخ زين الدين شعبان بن محمد بن داود الأسارى محاسب القسطاط ، ومن كتب عن الخط القلقشندى في صبح الأعشى ، وقد أمدنا القلقشندى بمعلومات قيمة عن الخط ولعل أفضل ما نفعله في هذا المقال هو أن نستعرض ما حفظه لنا القلقشندى في كتابه المذكور ؛

وأول ما نلاحظ قبل أن يتكلم عن القلم أو الخط بمعنى آخر وما يجب أن يتوفر له من شروط ليصبح خطاً محققاً نراه يتحدث عن الخط وما ورد بشأنه في القرآن الكريم «اقرأ وربك الأكرم» الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » ومثل « والقلم وما يسطرون » ثم يذكر ما ورد على لسان البعض كقول عبيد الله بن عباس « الخط لسان اليد » وقول جعفر بن يحيى « الخط سمط الحكمة وبه تفصل شئورها وينتظم منشورها » وقول مسلم بن الوليد « من عجائب الله

تعالى في خلقه وإنعامه عليه من فضله تعليمه إياهم الكتابة المفيدة للباقيين والمخاطب للعيون بسرائر القلوب على لغات متفرقة في معان محقولة بحروف مؤلفة من ألف وباء وجيم وذال متباينات الصور مختلفات الجهات لقاحها التفكير ونتائجها التأليف تخرس منفردة وتنطق مزدوجة بلا أصوات مسموعة .

ثم ينتقل إلى حديث عن بيان حقيقة الخط فيقول : إنه علم تتعرف منه صور الحروف المفردة وأوضاعها وكيفية تركيبها خطأ أو ما يكتب منها في السطور وكيف سبيله أن يكتب وما لا يكتب وإبدال ما يكتب منها في الهجاء وبماذا يبدل ، ثم يعقد فصلاً لبيان المقصود من وضعه والموازنة بينه وبين اللفظ فيقول : إن المقصود من وضعه أداء المعنى المشعور به للمسمع إذ لا وقوف على ما في اللحن ووضع الخط لأداء اللفظ المقصود فهمه للناظر فيه ، فإذا أردت إيقافك أحداً على ما في ذهنك من المعاني تكلمت باللفظ وضعت له ، وإذا أردت تأدية ألفاظ لتلك الإيقاف إلى أحد بغير شفاه نقشت النقوش الموضوعية لتلك الألفاظ ، فيطالع تلك النقوش ، ويفهم منها تلك الألفاظ ، ومن الألفاظ تلك المعاني .

أما الموازنة بين الخط واللفظ فالأصل في ذلك أن الخط واللفظ يتقاسمان فضيله البيان مشتركان فيه من حيث أن الخط دال على الألفاظ ، والألفاظ دالة على الأوهام ، وهما يعبران عن المعاني ، إلا أن اللفظ معنى متحرك واللفظ معنى ساكن ويستمر في عقد المقارنات بين الخط واللفظ ، والتشابه بينهما بدرجة كبيرة جداً حتى أطلق على القلم اسم اللسان ، فقالوا : الأقلام ألسنة الإفهام ، والقلم أحد اللسانين .

وبعدنا بعد ذلك عن وضع الحروف سواء الحروف بصفة عامة أو حروف اللغة العربية ، فيورد النظريتين ؛ النظرية النوقيفية التي تنسب وضع الحروف إلى آدم عليه السلام ، والنظرية الاصطلاحية التي تنسب وضع الحروف إلى جماعة من طي .

وينتقل من هذا إلى عدد الحروف وجهة ابتدائها وكيفية ترتيبها
وصور الحروف العربية وتداخل أشكالها والحث على تحسين الخط
والطريق إلى تحسينه ويقول : وإن الوجه الصحيح في تصحيح الحروف
أن يبدأ أولاً بتقويمها مفردة مبسطة لتصبح كل صورة منها على حالها
ثم يؤخذ بالرباعي ثم بالخماسي فإن هذه هي أمثلة الأسماء والحروف
وأن يعتمد في التمثيل إلى توقيف المهرة في الخطوط العارفين بأوضاعها
ورسومها واستعمال آلتها ، فإن لكل خط من الخطوط قلما من
الأقلام يصلح لذلك الخط ، وهذه الأقلام المختلفة نظير آلات الصنائع
المختلفة التي يصنع الصانع لكل آلة منها جزءاً من صناعته لا يصنع به
غيره ولا يعمل على كتابة خط من الخطوط نقل مثاله بنفسه فإن ذلك
لا يكفيه إذ لو كان ذلك كافياً لاستغنى في جميع الصنائع عن من يوقف
عليها :

ويتلو ذلك الحديث عن هندسة الحروف ومعرفة اعتبار صحتها مبتدئاً
من الألف إلى الياء واصفاً كل حرف وما يجب أن يتوفر فيه من
اشتراطات ليكون خطاً محققاً :

ويمكن أن نقول : إن أساس الخط عندهم عملية هندسية أساسها
النقطة والدائرة فمن النقطة تتكون الألف وما شابهها ومن الدائرة
الجيم وما شابهها ويتكلم عند حديثه عن الحروف حرفاً حرفاً
ما يجب أن يتوافر فيه من عدد النقط أو أجزاء الدائرة كما يمدنا هذا
الفصل من كتابه بأوصاف الحروف أو أجزائها مثل الخط المنتصب
للألف ، والخط المنتصب والمنسطح للياء ، والخط المنكب ، ونصف
الدائرة للجيم والمنكب والمنسطح للدال والمنتصب والمقوسوس للسين
وهكذا ، وهو في هذا يورد النسبة بين كل جزء وآخر حتى تأتي
الكتابة محققة .

ثم يتكلم بعد ذلك عن معرفة ابتداء الحروف وانتهائها ، فبدأ

بالحروف التي تبدأ بنقطة ، هم الحروف التي تبدأ بشظية ، ثم بحلقة ، ثم ما ينحتم
بنقطة القلم ، ثم ما ينحتم بشظية وما ينحتم في ختمه لإرسالاً مبيتاً
حروف كل نوع :

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن بعض ما يجب على الكاتب
اعتباره عند الكتابة ثم حركة اليد بالقلم في أثناء الكتابة فيقول نقلاً
عن بعض الكتّاب : كل خط متصّب ينبغي أن يكون الاعتماد
فيه من القلم على سنيه معا وكل خط يمتد إلى يسرة ينبغي أن يمال
القلم فيه نحو اليسرة قليلاً ، وكل خط من يسرة إلى يمنة ينبغي أن يمال
رأس القلم إلى اليمين قليلاً وكل شظية ينبغي أن تكون بالسن اليمنى
من القلم ، وكل نقطة ينبغي أن تكون بسنى القلم ، وكل تعبير كما في النون
وتعريقة الصاد يجب أن تكون بالسن الأيمن ، وكل رسالة يجب أن
تكون بسن القلم اليمنى ، وكل تعريج كما في عراقه الجيم والعين
يجب أن يكون بسن القلم اليسرى ، وكل ما أخذ فيه من يمنة إلى
يسرة كاللام ونحوها ينبغي أن يمال فيه رأس القلم إلى اليسرة قليلاً ،
وكل ما أخذ فيه من يسرة إلى يمنة كـرأس الجيم ينبغي أن يمال
رأس القلم فيه إلى يمنة قليلاً وكل خط متصّب يجب أن يكون انتهاؤه
إرسالة ، وطول كل سنة من السين ونحوها مثل سدس ألف خطها هـ
أما تناسب الحروف ومقاديرها في كل قلم فينتقل عن إخوان الصفاء
من رسالة الموسيقى ويقول « ينبغي لمن يرغب أن يكون خطه جيداً
وما يكتبه صحيح التناصب أن يجعل لذلك أصلاً يبنى عليه حروفه ؛ ليكون
ذلك قانوناً له يرجع إليه في حروفه لا يتجاوز ولا يقصر دونه ، ومثال
ذلك في الخط العربي أن تخط ألفاً بأي قلم شئت وتجعل غلظه الذي
هو عرضه مناسباً لطوله وهو الثمن ، ليكون الطول مثل العرض ثمان
مرات ثم تجعل البركار على وسط الألف ، وتدير دائرة تحيط بالألف
لا يخرج دورها عن طرفيه : فإن هذا الطريق والمسلوك يوصلان إلى معرفة
مقادير الحروف على النسبة ، ولا تحتاج في مقاييسك ما تقصده إلى شيء
يخرج عن الألف وعن الدائرة التي تحيط به »

وهكذا يستمر في الحديث عن باقي الحروف ، ويتكلم بعد ذلك عن الحروف التي تروس والتي تطعمس والتي تفتح .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الأقلام المستعملة في ديوان الإنشاء في زمانه ومقدار قطع الورق المناسب لكل قلم ويذكر أنها سبعة أقلام هي : الطومار ، ومختصر الطومار ، والثلاث ، وخفيف الثلاث ، والرقاع ، والحقق والغبار .

أما عن قطع الورق فيذكر أن الطومار الكامل من مقادير قطع الورق أصل عمله وهو المسمى بالفرخة ، أما مختصر الطومار فله قطع البغدادى الكامل ، والثلاث لقطع الثلاثين ، وخفيف الثلاث لقطع النصف ، والرقاع لقطع العادة ، والغبار لقطع الصغير من ورق الطير .

ويذكر أن الطومار يكتب به السلطان علاماته على المسكاتبات والولايات ومناشير الإقطاع وأن الحقق استحدثت كتابته في تفراوات كتب القانات. أما الغبار فيكتب به بطائق الحمام والمطافات وما في معناه .

ثم يتحدث عن الأصل في تسمية قلم الثلاث وما في معناه من الأقلام المنسوبة إلى الكسور والثلاثين والنصف ويقول : « إن الأصل في ذلك أن للخط الكوفى أصليين من أربع عشرة طريقة وهو قلم الطومار ، وهو قلم مبسوط كله ليس فيه شيء مستدير ، وقلم غبار الحلية وهو قلم مستدير كله ليس فيه شيء مستقيم فالأقلام كلها تأخذ من المستقيمة والمستديرة نسباً مختلفة ، فإن كان فيه من الخطوط المستقيمة الثلاث سمي قلم الثلاث وإن كان فيه من الخطوط المستقيمة الثلاثان سمي قلم الثلاثين »

وثمة رأى آخر وهو أن قلم الطومار مساحة عرضه أربع وعشرون شعرة من شعر البرزون ، وقلم الثلاث منه بمقدار ثلثه وهو ثمانى شعرات وقلم النصف بمقدار نصفه وهوائتا عشرة شعرة ، وقلم الثلاثين بمقدار ثلثيه وهو ثمان عشرة شعرة ويتبع ذلك بإيراد أمثلة للأقلام السبعة المختلفة التي ذكرها ، والحروف المختلفة بالنسبة لواقعها في الكامات ثم يتحدث عن أوجه تجويد الكتابة وتحسينها بالكلام عن حسن التشكيل وحسن الوضع ، فاحسن التشكيل خمسة

شروطهى : التوفية بمعنى أن يوفى كل حرف مع الحروف حظه من الخطوط التى يركب منها من مقوس ومنحنى ومنسطح ، والثانى الإتمام وهو أن يعطى كل حرف قسمته من الأقدار التى يجب أن يكون عليها من طول أو قصر أو دقة أو غلظ ، والثالث الإكمال وهو أن يؤتى كل خط حظه من الهيئات التى ينبغى عليها من انتصاب وتستطيع وانكباب واستلقاء وتقويس ، والرابع الإشباع وهو أن يؤتى كل خط حظه من صدر القلم حتى يتساوى به فلا يكون بعض أجزائه أدق من بعض ، ولا أغلظ إلا فيما يجب أن يكون كذلك من أجزاء بعض الحروف مثل الألف والراء ونحوهما ، والخامس الإرسال وهو أن يرسل يده بالقلم فى كل شكل يجرى بسرعة من غير احتباس يضره ولا توقف يرعشه .

أما عن حسن الوضع فهناك أربعة أشياء لازمة وهى : الترصيف أى وصل كل حرف متصل إلى حرف والتأليف وهو جمع كل حرف غير متصل إلى غيره على أفضل ما ينبغى ويحسن ، والثالث التسطير وهو إضافة الكلمة إلى الكلمة حتى تصير سطرًا منتظم الوضع كالمسطرة ، والرابع وهو مواقع المدات المستحسنة من الحروف المتصلة .

وآخر ما يذكره القلقشندى عن الخط فصل عن مراعاة فواصل الكلام؛ إذ يقول إن الخط إذا كان متميز الفصول وصل معنى كل فصل منه إلى النفس على صورته ، وإذا كان متصلًا دعا إلى إعمال الفكر فى تحليل أغراضه ، ويذكر أن الفواصل دائرة عند النساخ وبياض عند كتاب الرسائل ؛ وينظم كلامه بمراعاة حسن التدبير فى قطع الكلام ووصله فى أواخر السطور وأوائلها :

ونراه يتحدث بعد هذا عن لواحق الخط ، وهى : النقط والشكل ؛ هذا عرض مجمل لما احتواه كتابه صبح الأعشى للقلقشندى من معلومات وبيانات وتعايم عن الخط وأنواعه والشروط التى يجب اتباعها لتجويده وتحسينه ونستطيع أن نقف من هذا كله على مقدار العناية والأهمية التى وجهها الكتاب والخطاطون المحيدون وغيرهم ، لتوفير كل ما يكون من شأنه أن يساعد الكتاب على تحسين خطوطهم وتجويدها ؛

ومما لاشك فيه أن هذه العناية قد أتت ثمارها ، وتوفر للبلاد الخطاطون
النجيدون الذين رأسوا ديوان الإنشاء ، وتولوا تحرير الوثائق والكتب والمواثيق
فضلاً عن تحرير المخطوطات ، والمصاحف الثمينة الغالية التي تزدهر بها معارض
دور الكتب والمتاحف المختلفة وتحفظ بعض المصاحف المملوكية بدار الكتب
بأسماء محرريها ، فثمة مصحف باسم السلطان برقوق قام بتحريره عبد الرحمن
الصائغ ، ومصحف آخر باسم السلطان فرج حرره موسى بن إسماعيل الكتاني ،
كما أن مصحفاً ثالثاً يحمل اسم كاتبه هو موسى بن إسماعيل بن أحمد
الخرجاني .

٤

ديوان الإنشاء.. نشأته وتطوره

بقلم: الدكتور حسن مجبشي

اهتم المسلمون منذ ظهر الإسلام بالمراسلات التي عرفت فيما بعد بالمراسلات الديوانية، ثم اتخذت كلمة «الإنشاء» سمة خاصة بها، وأصبح لهذه الكلمة الأخيرة معنى وظائفي، أى أنها أضحت «وظيفة» لها شروطها الخاصة ومراسمها الذاتية، بل يمكن القول بأن الشروط التي تطلب توافرها فيمن يشغلها باغت حداً لم تبلغه أية وظيفة أخرى اللهم إلا «الخلافة» حين وضع الفقهاء لها شروطاً لا تنعقد إلا بها^(١)، ولعل من أقدم الرسائل ذلك الكتاب الذي يقال إن الرسول عليه السلام أنفذه إلى هرقل يدعو له للإسلام، هذا بالإضافة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ له منذ البداية «كتاباً» يكتبون عنه فيما يصدر عنه من رسائل وفيما يكتب به أمراء وأصحاب سراياه من الصحابة، وكذلك من قرب من السلاطين والملوك يدعوهم إلى اعتناق الإسلام، ومعنى هذا أن الكتابة وجدت «كفن» ، و«الكتاب» كوسيلة للترجمة عما يراد الإفصاح عنه للمرسل إليهم : إلقاء كان أوردًا ، وقد استكثر الرسول من الكتاب حين جاوزوا الثلاثين عددًا ، فإذا وضعنا هذا العدد من الكتاب في الذهن جاز لنا القول بأنهم كانوا يؤلفون في مجموعهم بذرة أول «ديوان إنشاء» وضع في الإسلام ، وإن لم يتخذ هذا الاسم مدلولاً عليه ، ثم تطور بتقدم الأيام حتى بلغ ذروة التنظيم في العصر المملوكي نظراً لاتساع رقعة الدولة وتعدد جهات اختصاصها واتصالاتها لاسيما الخارجية منها بصورة جعلت من القائمين بالكتابة الديوانية هيئة خاصة ، وهذا ما حمل القلقشندي على إفراد كتابه الضخم «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» لهذا الموضوع ،

(١) راجع في هذا الموضوع كتاب الماوردي للأحكام السلطانية .

Rosenthal: Political Thought in Medieval Islam.

ولقد قام هذا الكتاب في أصله على «مقامة» كتبها هو بنفسه وسماها «الكواكب الدرية في المناقب البدرية»، وهي التي أدرجها في صبيحه^(١)، وإن كان هناك من يردّها إلى محاولة من بجانبه للنسج على منوال الحريري والمعلماني^(٢)، وليس من شك في أن قوام مادة «الإنشاء» - من حيث التطور التاريخي والنهج التقليدي في الكتابة، إنما يعتمد على إدراك القلقشندى لهذا القرن.

ولو رجعنا إلى المدلول التاريخي للفظ «الديوان» لوجدنا الأوائل القدامى قد ردوه على اختلاف فيما بينهم إلى أصلين، أولهما الأصل الفارسي، ولقد أشار إلى ذلك الماوردي في الأحكام السلطانية، فذكر أن هناك وجهين لأصل الفارسي للتسمية أحدهما أن كسرى مر ذات يوم على كتاب ديوانه وهم يحسبون مع أنفسهم ويجمعون فيما بينهم، فتعجب منهم وقال عنهم «ديوانه» أي «المجائين»، أما القول الآخر فهو أن «الديوان» بالفارسية اسم للشياطين «فسمى الكتاب بذلك لحلقهم بالأمور، ووقوفهم على الجلي منها والخفي»، وهذا الأصل الفارسي لم ينكره بعض علماء اللغة كالأصمعي، وتابعه الجوهري في الصحاح:

أما ثاني هذين الأصلين فهو الأصل العربي على سعة في مدلوله واستعماله، ومهما يكن الاختلاف في مرده اللغوي فالثابت أن العرب منذ أربعة عشر قرناً عرفوا هذا الديوان وإن كان إذ ذاك في صورة أولية، أشار إليها القلقشندى في قوله «لأنها لم تكن في الشهرة وتواتر الكتابة في زمانه» (صلى الله عليه وسلم)؛ ومعنى هذا كله أن الديوان قديم الإنشاء؛ وأن الشخصية البارزة فيه هي شخصية «الكاتب» أو «المتشئ» الذي تبوأ منذ بداية ظهوره مكانة سامية، فهو «الأمين على السر الذي يفضي به إليه بما قد يحجب الخبر فيه عن غيره»، ومن ثم شرطوه بشروط كان

(١) القلقشندى: صبح الأعشى ج ١٤.

Cf. C.E. Bosworth: A Maqama on Secretaryship: al-Qalqashandi's al-Kawakib al-Durriya fil manaqib al-Badriyya, BSOAS., Vol. XXVII, Pt. 2, 1964, pp. 291-298.

الالتزام بها في معظم العصور (١) ضرورة لا تخرج عنها الدولة أو الخليفة أو السلطان ، وردوها إلى أسس عشرة أولها : العدالة ، من حيث اعتبار الكتابة ولاية شرعية وهذا تكريم لها ، وثانيها : ما يعرف بالتكليف ، وذلك للحاجة إلى بالغ مدرك لما يقتضيه الرأي والأمر وما لا يجوز فيه التعديل على الصبي ، وثالثها : الذكورة ، ورابعها : الإسلام ، لأن الدولة إسلامية من ناحية واعتماداً على الآية الكريمة من ناحية أخرى (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودُّوا ما عنكم (٢)) ، وخامسها : الحرية التي يانتفأها يتنفي الكمال والقدرة على التصرف غير المشروط أو المقيد ، وسادسها : البلاغة ، وسابعها : وفور العقل فلا ولاية ولا شهادة لغير العاقل ، وثامنها : العلم بمواد الأحكام الشرعية حتى لا تخرج القضية عن نطاق العدل الذي قضى به الشرع ، وتساعها : شرف النفس ، وعاشرها : الكفاية لما يقتضيه منصب الكتابة من تولى الرجل المناسب .

وإذا كانت بعض الوظائف تتطلب في وقتنا الحاضر ما يعرف بالمقابلة الشخصية فقد كانت هناك صفات أخرى تطلبها القوم يومذاك في الكاتب منها :

صباحة الوجه وفصاحة اللفظ ، وطلاقة اللسان ، وإيثاره الجلد على المزحل ، وتوقد الفهم وحسن الإصغاء ، وإيثاره الشغل على الفراغ ، ثم بعد ذلك ملازمته لمجلس الملك أو السلطان إذا كان جالساً ، وملازمته للديوان إن لم يكن جالساً ، ليتأسي به سائر كتاب الديوان وكفى لا يجلدوا رخصة في الغيبة عن ديوانهم على حد تعبير قوانين ديوان الإنشاء لمن يشغل وظيفته ، كما تطلبوا فيه كتمان السر ، الأمر الذي يصير القلقشندى على خطورته ويراه ضرورة لا يمكن التجارز عنها فيمن يشغل وظيفة كاتب الإنشاء فيقول عنها « هذه الصفة هي الشرط اللازم والواجب المحتم » ، وأورد عن المأمون في هذا الصدد قوله : « الملوك تحتل كل شيء إلا ثلاثة أشياء : القدحُ

(١) نخل المستولون عن بعض الشروط في العصر الفاطمي .

(٢) قرآن كريم ، سورة آل عمران ، ٣ : ١١٨ .

في الملك، وإفشاء السر، والتعرض للحرم، وقد ثبت هذا المعنى في الأذهان وأصبح أمراً مألوفاً بعد التجاوز عنه نقضاً لا يجوز معه انعقاد الوظيفة حتى ليشير الفقه شندى إلى أن العامة في مصر يبدلون « الباء » في كتاب السر « بيم » فيقولون « كاتم السر » ويرد ذلك إلى رأيين إما لأنه يكتم سر الملك، وإما من باب إبدال الباء بالميم على لغة ربيعة، ثم يعقب على ذلك قاتلاً: « ولكنهم لا يعرفون الثاني » وهذا ترجيح منه لفكرة كتمان السر.

• • •

هذه هي بعض صفات الكاتب في الديوان، فما هو شأن الديوان في العصور الإسلامية؟ . . لقد سار الخلفاء الراشدون على نهج الرسول، فانخذ كل منهم كتاباً أو أكثر، فلما قامت الدولة الأموية أصبح أمر هذا الديوان مفوضاً إلى كاتب يقيمه خليفة الوقت الذي كان هو ذاته « يوقع على القصص ويحدها بنفسه، أما الكاتب فيكتب ما يبرز إليه من توقيعه، ويصرفه بقلمه على حكمه » أى أن التوقيع كان لصاحب السلطة العليا، أما التصريف فلمتولى مهمة الكتابة، وظل لفظ « الكاتب » يطلق طوال عصر بني أمية على متولى هذا الديوان حتى ولى الخلافة أبو العباس السفاح فاستوزر أبا سلمة الخلال وأصبح هذا الفعل نهجاً يسلكه من جاء بعده من خلفاء بيته، على أن أهمية المكاتبات في هذا العصر أدت إلى نقلة جديدة في ديوان الإنشاء لم تكن من قبل، تلك هي إضافة ديوان الرسائل هذا تارة إلى الوزير حيث يتولى أموره ويصرفها بنفسه، وقد يفرد عنه — أى عن الوزير — تارة أخرى بكاتب ينظر في أمره، وفي هذه الحال الثانية يقوم كاتب ديوان الإنشاء باعتماد ما يرد إليه من ديوان الوزارة ويمشى على ما يلقى إليه من توقيع الوزير الذي ينفذ إشارة الخليفة. وقد وجد بفضل الكتابة في الديوان جماعة من البلغاء أسهموا بقدرهم في الأدب مثل يحيى بن خالد وزير الرشيد، وابن العميد وأبي إسحاق الصباني.

على أن العناية باللغة وفنون الأدب والبلاغة والتأمل بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأشعار القدماء وأمثالهم: ما لبثت أن زحزحت عن

مكانتها تبعاً لتدهور الأوضاع السياسية وضعف قوة العرب ، فحل محلها — بعد سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ — كتابات ديوانية بالمغولية والفارسية حين آلت مقاليد الأمور لهؤلاء الأعاجم ، ولم يكن من المتوقع بطبيعة الحال إلا أن يبطل رسم الكتابة المعتبرة ، وهذا هو الذى ألم بالكتابة الديوانية فى غير مصر التى عرفت الديوان بصورة أو بأخرى منذ عهد بعيد فرعته وليدأ ، واهتمت به حتى اكتمل عوده فى النهاية ، وانتظمت قواعده ، واعتبرت أصوله فى العصر المملوكى ؛ ويمكن لإجمال هذه المراحل فيما يلى :

كانت المرحلة الأولى فى قيام الديوان فى مصر مصاحبة للفتح العربى لها ولم يكن من المنتظر أن تحدث طفرة فى الكتابة ، فمصر قريبة العهد بالحكم البيزنطى ورسومه وتقاليده ووظائفه ، كما يغلب اللسان القبطى على العامة وبعض الخاصة ، بيد أن البلاد كانت قد دخلت فى مرحلة جديدة هى مرحلة الاستقرار العربى وما يتطلبه الحكم الجديد من مراسلات مع الخلافة ومعاملات مع الشعب ، إلى جانب ما كان لابد من وجوده من التنظيمات الإدارية البيزنطية ، ومن ثم فليس لنا أن نتظر انتقالاً كلياً مما جرى عليه القوم إلى تعريب كامل ، لذلك لم تبدل عناية كبرى بشأن ديوان المراسلات ، ولقد فسر القلقشندى صرف المهمة عن الديوان إلى أن المسئولين اقتصروا منذ بداية الفتح العربى حتى أوائل الدولة الطولونية على « المكاتبات لأبواب الخلافة ، والترز اليسير من الولايات » .

على أن سمات ديوان الإنشاء أخذت فى الانبثاق فى الفترة الممتدة من أوائل الدولة الطولونية حتى نهاية الإخشيدية ، لكن هذه السمات كانت أشبه ببراعم لم تتفتح أزهارها إلا فى العهد التالى ، وهو عهد الخلافة الفاطمية ، وهذا هو دور الاستقلال الأول فى تاريخ مصر الإسلامية ووقوفها تجاه الخلافة العباسية موقف النضال والعداء ، وإذ كان الفاطميون جد حريصين على تدعيم سلطانهم فى نفوس الجماعات التى تدين لهم بالطاعة وكذلك بين الأمم ، وإذا كانت مصر قد أصبحت ذات علاقات تجارية

وسياسة مستقلة بكثير من الدول والولايات ما بين إسلامية ونصرانية فلا مشاحة إذا اهتم الفاطميون بديوان الإنشاء ، وإن استعملوا فيه بصورة واضحة جماعات من المسلمين والذميين على السواء ، وكان هذا حدثاً جديداً يكاد يزعم الشرط الرابع من الشروط التي كان من المطلوب توافرها في «الكاتب» ، وتطالعنا في هذا العصر أسماء أفراد من غير أهل الإسلام مثل ابن سوردين النصراني وأبي سعيد العميدى وابن أبي الدم اليهودى .

وكان متولى ديوان الإنشاء أو الرسائل أو الكتابة — وكلها تسمية لمسمى واحد — من أجل «الكتاب بلاغة» و«متزلة» ، ويخاطب «بالأجل» ويلقب حينذاك «بكتاب الدست» ، وكانت المكاتبات تسلم إليه مخومة ، وأصبحت له رسوم معينة تقتضيها مكانته عند الفاطميين الخلفاء ، فهو عندهم «أول أرباب الإقطاعات في الكسوة والرسوم والملاطقات» . هذا إلى أن له حاجباً من الأمراء الشيوخ ، ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة :

ثم جاءت الدولة الأيوبية ، فكان مجيئها بداية فترة جديدة في ديوان الإنشاء لما جرى خلالها من تطور ملحوظ ، إذ نلاحظ لأول مرة ما عמד إليه صلاح الدين من جمعه الوزارة وديوان الإنشاء للقاضى الفاضل ، وكأنه كان في ذلك ناظراً إلى ما حدث عند قيام الخلافة العباسية من جمع الوزير بين الوزارة والكتابة ، وقد بدا ذلك الجمع بين الاثنين أمراً مقررأ في أغلب الأحيان زمن الأيوبيين الذين أرادوا في الوقت ذاته محو رسوم الفاطميين في هذا المجال ، فلم يستعملوا سوى المسلمين ، ولا تطالعنا في هذه الفترة أسماء لأصحابها عرق قريب أو بعيد في النسية .

فلما انتهت ولاية الأيوبيين وقامت دولة المماليك أو الدولة التركية كما تسمى أحياناً أصبح كاتب ديوان الإنشاء في المكاة المرموقة في الدولة ، يصاحب السلطان في حله وترحاله ويرافقه في حملاته ، ويعرف من أمرار الحكومة ما قد يخفى في كثير من الأحيان على صفوة النخاسة من خاصة السلطان :

وتم صفة أخرى هي أن صاحب ديوان الإنشاء أصبح ينقل من مصر إلى دمشق ، حدث هذا لأول مرة للقاضي شرف الدين عبد الوهاب ابن فضل الله الذي كتب في مصر للأشرف بن قلاون وأخيه الناصر محمد في سلطنته الثلاث ، وللعادل كتباً ، والمنصور لاجين ، والمظفر بيبرس ؛ ثم نقله الناصر محمد بن قلاون إلى كتابة السر بدمشق :

وتطالعنا في هذه الفترة أسماء كثيرين من كتاب ديوان الإنشاء قد يرجع البعض منهم إلى أسرة واحدة ، ويأخذ كل منهم نفسه بالاهتمام بالفنون اللازمة للمهينة لإياه لشغل وظيفة كاتب السر ؛ وكان الواحد في بعض الأحيان يستعمل ولده بالنيابة ، أو يوليه استقلالاً ، كما حدث من القاضي محيي الدين بن فضل الله حيث فوض أمر الديوان ، استقلالاً لولده القاضي علاء الدين سنة ٧٣٨ هـ ، ولم تكن هذه الظاهرة تعني إثثار ذوى القربى أو ترجع إلى عصبية أسرية ، ولكن يمكن تفسيرها باهتمام العائلة بالآلات اللازمة لكتابة الإنشاء ، نظراً لما تدره الكتابة على شاغلها من كسب مادي ومعنوي ومكانة مرموقة في المجتمعين المصري والشامي ، وهي مكانة ترقى بصاحبها إلى مجالسة السلطان .

ولم يكن ثم لقب واحد متفق عليه في بداية هذه الدولة يطلق على كاتب ديوان الإنشاء فكان « يعبر عنه بكاتب الدست حيناً وكاتب الدرج حيناً آخر » ثم أطلق لقب « كاتب السر » لأول مرة زمن المنصور قلاون ، أطلقه على القاضي فتح الدين عبد الظاهر ، ومن ثم نزل لقب « كاتب الدست » درجة فأصبح يطلق على من دونه من كتاب الديوان « والألقاب كالأشخاص منها ما يهرم فيموت ومنها ما يحل مكانه بلجديد »

وإذ كانت القاهرة مركز سلطان الديار المصرية الشامية وفهنا الخليفة وإذ كانت هناك دواوين لكتابة الرسائل في كل ولاية ونيابة فقد أطلق على متوليه في مصر لقب « صاحب دواوين الإنشاء » بالجمع في بعض الأحيان تعظيماً له لمحاورته السلطان والخليفة ، أما كاتب ديوان الإنشاء . بدمشق فيسمى « بمتولى ديوان الإنشاء بالشام » ، وأما متوليه

في حلب وحمص وحماه وطرابلس وصفد فيسمى «بصاحب ديوان المكاتبات» مضافاً إلى النيابة الموجودة بها . أما النيابات الصغرى كغزة والكرك والإسكندرية فيقال لمنولى ديوان كل منها « كاتب الدرج » . وهناك ظاهرة أخرى تطلعتنا في بداية الدولة الجركسية هي اصطناع جماعة من غير أهل مصر وإن كانوا من المتعممين ، فقد عهد بقوق في سلطنته الأولى بالديوان إلى القاضي أوحى الدين عبد الواحد التركمانى ، وفي ولايته الثانية إلى علاء الدين الكوكى ثم لبلر الدين محمود الكلاستانى .

كان للديوان في مصر رسوم وتقاليد معتبرة منها ما يتعلق بموظفيه ومنها ما يتعلق بمحفوظاته : صادرة ، أو واردة ، وقد ارتفعت منزلة صاحب ديوان الإنشاء في مصر فبعد أن كانت مهمته في العصور الأولى مقصورة على أن يكتب بأسلوبه ما يلقى به إليه أصبحت له اختصاصات معينة يتصرف فيها بحكمته ووفق قواعد مرعية هي نتاج تجارب سابقة موصولة في حقل الكتابة والمراسلات الديوانية ، ولعل أهم ما أضيف إليه من الاختصاصات هو مراعاة الألقاب والمراتب والدعاء في المكاتبات والولايات وهذا أمر منظور فيه إلى تعقيدات نظم الحكم والسلطنة في الدول والإمارات المختلفة يستوى في ذلك منها الإسلامية وغير الإسلامية ، فليس له أن يزيد أحداً في لقبه عما لقبه به الحاكم ، ولذلك نص القلقشندي على أنه ينبغي على صاحب الديوان « أن يتزل كل واحد من الكاتبين وأرباب الولايات منزلته على ما يقتضيه مصطلح الزمان من علو وهبوط » . وحينئذ عليه أن يخطأ في ذلك ويؤخذ كتاب الإنشاء بما حدد لهم من غير إفراط ولا تفريط ، فالملوك والسلاطين يسمحون ببدرات المسال ولا يسمحون بالدعوة الواحدة ، وإن نظرة واحدة للألقاب التي تفتح بها للرسالات سواء ما ورد منها في القلقشندي أو في غيره من المصادر والمراجع أو مازال منها مخفوطاً ليتمكن الاستدلال منها على مكانة الكاتب وملته ومذهبه .

يضاف إلى هذا أنه ينبغي على الكاتب أن يتصفح ما يخرج من الديوان من الولايات والمناشير والمكاتبات فإنه « إذ أزل الكاتب في شيء زل بسببه متولى الديوان ، بل السلطان بل الدولة بأسرها ، ومعنى هذا أنه لا يجوز أن يلقب أحداً دون لقبه وإلا أنزله من مكانه وترتب على ذلك أمران أحدهما أن يستقر في الأذهان أن الدولة الصادر منها الكتاب لا تعرف مجريات الأحداث والأمور خارج حدودها وأنها تعيش في عزلة وثانيها أن مخاطبة المخاطب بلقب دون لقبه فيه حط من منزلته وما يترتب على هذا الخلط من تغير نفساني قد يؤدي إلى تراخ في العلاقات أو تؤثر فيها ، ثم إن لصاحب ديوان الإنشاء حق الدخول على السلطان حتى في أوقات لا يسمح فيها بالدخول لأحد عليه ، وله أن يأخذ في مثل هذه الحظرات اثنين هما طارق الليل فشر ما جاء به ولو كان خيراً ما جاء في تلك الساعة ، ورسول الثغر فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فليدخله عليه ولو كان في لحافه .

لم يبلغ ديوان الإنشاء في أى مملكة من الممالك الإسلامية ما بلغه ديوان الإنشاء في الديار المصرية من حيث التنظيم وتعدد الوظائف واختصاص كل واحدة بعمل معين وتطورها في بعض الأحيان ، ونستطيع على هدى ما جاء في ثنايا صبح الأعشى أن نقسم هذه الوظائف إلى فترتين أولاهما ما كان سائداً فيها حتى بداية العصر المملوكي وثانيهما وظائف العهد المملوكي .

وبناء على ما يذكره القلقشندي فقد كان هناك في كلتا الحالتين صاحب الديوان وكان تحت إدارته في العهد الأول سبعة كتاب دونه مترلة وإن كانوا كلهم في الأهمية بالدرجة القصوى وهم :

- ١ - كاتب يتولى الإنشاء من نفسه ويبدع في العبارة بقدر ما أتاحت له بلاغة اللغة وتمكنه منها وحفظه للأشعار والمؤثورات والحكم العربية وفوق كل ذلك وجوب حفظه للقرآن الكريم والأحاديث النبوية فكان تلقى إليه الكلمة الواحدة والمعنى المفرد فيتولاه من حيث الصياغة وحسن التعبير ووضوح الفكرة والإطناب حيث ينبغي الإطناب وتضمين ما يؤيدها من

أى الذكر الحكيم والاستشهاد بالأحاديث الشريفة والتمثل بالأشعار الرائعة والحكمة البليغة ، أى أنه كان يتطلب فيه أن يكون مالكا لمقاييد البلاغة والفصاحة قادرا على إدارة اللغة والألفاظ وفن التلاعب بالمعاني تلاعباً يمكنه من مدح المعلوم وذم الممدوح ، ولم يكن ذلك بالأمر الذى يعاب عليه أو يقدح فى مكانته ، بل كان - فى كثير من الأحيان - ميزة يرقى بها إلى المكانة السامية والوظيفة الرقيقة والمنصب الجليل فى الديوان، أما الثانى فكاتب يكتب عن السلطان واشترط فيه إلى جانب البلاغة أن يكون على دين مولاه وأن يكون « عالماً بقدر طبقة المكتوب إليه »

٣ - وأما الثالث فكاتب يكتب مكاتبات أهل الدولة وكبرائها وولاتها ووجوهها من النواب والقضاة ، وأن ينشئ تقليدات ذوى الخدم الصغار ، ويشترط فيه أن يكون كريم النفس عفيفها لا يقع تحت أغراء يدخله فى تجربة تودى به إلى إفشاء سر أو التشلىق بأمر قبل صدوره لأنه كما يقول القلقشندى يعلم بالوالى قبل توليه والمصروف قبل صرفه .

٤ - وأما الرابع فكاتب يكتب المناشير ، ولقد تطلبت كثرتها - لاسيما فى الدولة المملوكية - كثرة عديدة من الكتاب الذين يتولون هذا الضرب من الكتابة فيستقل كل واحد أو جماعة منهم بمجموعة خاصة وهذه الكثرة العديدة تخمها ضرورة توفير نسخ متعددة للنسخة الأصل مطابقة لها تمام المطابقة حتى فى التنقيط والضبط بتعبير هذا العصر « مغلدة فى الديوان » ، لاتغادر المبيضة بحرف لتكون موجودة فيما لواحيج إليها .

٥ - وأما الخامس فكاتب يبيض ما يبيضه المنشئ ، ويشترط فيه حسن الخط .

٦ - وأما السادس فكاتب تقتصر مهمته على النظر فيما قد كتب أى أنه أشبه بالمراجع حتى يؤمن عثرات القلم وسهو البال من خطأ لغوى أو إعجام أو تصحيف أو سقوط حكمة أو حرف يغير المعنى أو حذف لفظة أو إضافتها مما قد يتبدل معه المقصود ويفسر الموضوع على غير وجهه

والظاهر أنه كان يشترط فيه فوق كل شيء إتقان علم اللغة وحفظ القرآن والحديث :

٧ - وأما السابع فكانت يكتب التذاكر والدفاتر الخاصة بمتمعلقات الديوان ، وكان عدد أفراد هذه الطائفة كبيراً كما يستدل من تعدد المهام الموكولة إليهم ، شأنهم في ذلك شأن رجال الفئة السالفة وتنقسم وظيفة الكاتب منهم في هذا الضرب إلى أقسام لعل أهمها هو قيامه بوضع جزازات أو تذاكر منفصل بعضها عن بعض تشتمل على أهم ما يتضمنه كل كتاب من الكتب الصادرة من الديوان أو الواردة إليه أى أنه يستفرغ كل ما في الرسالة من أمور يفصل بعضها عن بعض فإذا احتجج لمسألة خاصة بلماها أمكن العثور عليها في يسر وسهولة ، وتكون لكل تذكرة علامة باسمها أى ذات عنوان شاملة لاسم مرسلها والمصدرة إليه وعليها تاريخ المكتبة :

ومن وظيفة الكاتب في هذه الطبقة أيضاً أن يضع دفترًا بالألقاب المختلفة ومراتب مخاطبة كل شخص وما يجب أن يدعى له به في السجلات والمكاتبات والمناشير والتوقيعات حتى لا يخاطب فرد بقلب غير لقبه عظم أو صغر هذا اللقب ، ففي كليهما حط من مكانته ومن مكانة الدولة ويشمل هذا الدفتر أوراقاً منفصلة ، فتكون لكل شخص ورقة خاصة به متضمنة تاريخه وألقابه ووظائفه وما أنعم به عليه من إقطاع وخلع . وتاريخ صرفه واسم من صرف به ، فإن ولى وصرف من يومه تضمنت الورقة الولاية والصرف وإن تعددتا ، وهذا يتطلب السرعة في إعداد هذه التذاكر ولا يقتصر على تذكرة . ومن ثم كان لنا أن نتوقع أن العمل في ديوان الإنشاء كان مستمراً ليلاً ونهاراً والغرض من هذا الدفتر أن يكون موجوداً لدى كتاب الإنشاء إذ لا تسع الذاكرة مهما كانت واعية أن تحفظ في دقة كل ما يتعلق بهذه الأمور ، وإذا كان كتاب هذه الطائفة كثيرين فقد وكل إليهم إلى جانب هذا كله وضع دفتر بالأحداث الجلية مع ذكر تواريخها ، وليس من شك في أن المنفعة جلية وهي عندى أشبه بالجزازات التي يدونها الباحث الحديث حين يجمع مادة من مختلف المراجع والمصادر

الأصلية ، ومن ثم لا ينبغي عليه إن أراد كتابة بحثه إلا أن ينسق بين بعضها والبعض الآخر ؛

وليس من شك في أنه لو عثر اليوم على هذه الجزازات أو بعضها لأمكن التنسيق بينها وإلقاء ضوء كشاف على تاريخ مصر السيامي والاجتماعي والاقتصادي والحربي وعلاقات مصر بمختلف الدول حينذاك وفي هذا يقول القلقشندي : إنه لو جمع من هذا الدفتر وسابقه تاريخ لاجتمع .

ويقوم كاتب التذاكر أيضاً بعمل فهرست منفرد للكتب الصادرة والواردة يومياً وشهرياً وسنوياً مع ذكر ورودها وصدورها وخلاصة مضمونها فإن كان الأمر هاماً نسخ الكاتب بأكمله وسلمه على حده للخازن ؛

وخامسها : عمل فهرست للإنشاءات والتقاليد والناشير ويجرى هذا الفهرست على حساب الشهور كل شهر على حدة ، فإذا حال الحول ودارت السنة استجد آخر على نحوه ، على أن هناك كتباً ترد على ديوان الرسائل المصرية تكون بلسان غير العربية ، كالتركي والفارسي الملك يوكل إلى فرد بارع في لسان المكتوب متمكن منه حاذق له بالقيام بترجمته إلى العربية (رواية برقوق) ، وإذا كانت هذه الرسائل غير العربية كثيرة فقد تطلب ذلك عمل فهرست بجمع هذه الأصول وترجمتها ويتضمن هذا الفهرست محتويات كل كتاب واسم من قام بترجمته إلى العربية لتكون العهدة عليه ويكون لما جاء من فهم لترجمته مستولاً ؛

* * *

هذه هي طائفة موظفي الديوان « من الكتاب » ونلاحظ فيها تكويناً هرمياً قمته صاحب الديوان وقاعدته طائفة كبيرة من الكتاب كل منهم حجر في هذا البناء ، عل أنه يوجد إلى جانبهم في الديوان أيضاً وظيفتان هما :

١ - وظيفة الخازن الذي يؤتمن على حفظ كل المراسيم والناشير

والقرارات والمعاهدات ، وهذا ما يعرف بالأرشيف في العصر الحديث مصطلحا ووظيفة ، وقد اشترطوا ألا يتم النسخ إلا في حضور الخازن وأن يكتب الكاتب أمامه ما يفيد اسم الجهة التي ورد منها الكتاب وتاريخ وروده وتاريخ الرد عليه ، فلن لم يكن ثم جواب عليه قالوا ، أخذ الخازن على المنشور خط صاحب الديوان نفسه أنه لا جواب عنه ، وذلك لتبرأ ذمته ولا يتهم في وقت من الأوقات أنه أخضاه أو يدعى أنه لم يعلم به .

٢ - أما الوظيفة الثانية فكانت وظيفة صاحب الديوان وهو الذي يتخذه صاحب الديوان نفسه حتى لا يصبح مكانه مجمعا لكل من أرد الدخول عليه ، فيصرنه ذلك عن تصريف مهام الأمور ومراجعة مختلف كتاب الديوان ، أما في القرن الثامن ومستهل القرن التاسع للهجرة فقد أصبح ديوان الإنشاء يتألف من طبقتين فقط هما :

١ - كتاب الدست ، وكانوا يجلسون بين يدي السلطان وتحت كاتب السر ، وقد بدأ هذا التنظيم زمن الظاهر بيبرس حيث جعلهم ثلاثة على رأسهم القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهذا مما يدل على سر مكانتهم لدى السلطنة على أن هذا العدد أخذ في الزيادة حتى إنهم بلغوا العشرة زمن الأشرف شعبان بن حسين ثم جاوزوا العشرين في أخريات أيام القلقشندي وقد أدت هذه الزيادة العددية إلى أن انخرط في سلك كتاب الدست جماعات ممن ليسوا بأهل لأن يكونوا بينهم :

٢ - أما الفئة الثانية فتعرف بكتاب الدرج ومهمتهم كتابة ما يوقع به كاتب السر أو كتاب الدست أو إشارة الأمير أو الوزير أو الدوا دار من المكاتبات والتقاليد والتوقييع والمراميم والمناشير وغيرها ، وقد نسبوا إلى كتابتهم هذه المكثوبات في الدرج وهو في عرف الوقت بنوع من الورق المستطيل المركب من عدة أوصال تبلغ العشرين وتكون متلاصقة ، وينفي القلقشندي إطلاق لقب الموقعين على كتاب الدرج ، وإنما يقول : إنه يجوز أن

يطلق عليهم «كتاب الإنشاء» لأنهم يكتبون ما ينشأ من المكاتبات ، ولقد
كثُر عددهم حتى بلغ مائة وثلاثين ، وإن يكن أبرعهم قد شاركوا
كتاب الدعاء في التقاليد والتواقيع على أنهم لم يعودوا يهتمون بحسن اللفظ
وبلاغة العبارة ، بل إنهم مهتمون بتلقيق كلام المتقدمين في بعض الظروف
والأحوال ،

الجانب الأثرى فى كتاب "صبح الأعشى"

بقلم: الدكتور أحمد راج

يفرد القلقشندي في كتابه «صبيح الأعشى» فصلا عن قواعد الديار المصرية المستقرة ، وهي ثلاث :

القاعدة الأولى — القسطنط

القاعدة الثانية — القاهرة

القاعدة الثالثة — القلعة

وهذا الفصل ؛ وهو الأول من الباب الثالث ، بالجزء الثالث من الكتاب ، لا يشغل سوى صفحات معدودة ، أى من صفحة ٣٢٠ حتى ٣٧٩

والقلقشندي ، في حديثه عن هذه القواعد ، إنما يتحدث عن حاضرة الديار المصرية في عصره . وذلك أن الحديث عن صناعة الإنشاء — وهي الهدف الأصلي من تأليف كتابه صبيح الأعشى — اقتضى منه التحدث عن حاضرة البلاد باعتبارها مقراً لديوان الإنشاء :

وقد أخذ القلقشندي هذه الفكرة عن أستاذه شهاب الدين أحمد بن يحيى الدين ابن فضل الله العمري ، الذي عبر عنها في موسوعته «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» بقوله : [وأكابر المدن المشهورة بهذه المملكة قاعدة الملك الكبرى القاهرة ، وقد تقدم القول على أنها هي والقلعة والقسطنط ثلاث مدن صارت مدينة واحدة . (١)]

(١) نقل لنا كازانوف في كتابه « تاريخ ووصف قلعة القاهرة » ، وصف القلعة عن النسخة الخطية بالملكية الأهلية بباريس (القسم العربي ، رقم ٢٢٢٥) لكتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري . وقد بدأ ابن فضل الله العمري وصفه للقلعة بهذه العبارة التي أوردناها بالمتن — انظر :

CASANOVA : Histoire et description de la Citadelle du Caire, t. VI, Fasc. 4 dans Mém. Mission. Arch. Fr. du Caire, Paris, 1894, pp. 667-672.

كما أخذ عنه هذا المعنى من جاء بعد القلقشنلى من مؤرخى القرن التاسع الهجرى . وعلى رأس هؤلاء السيوطى ، الذى يقول فى هذا الصدد ؛ [وحاضرة مصر تشتمل على ثلاث مدن عظام ، القسطنطية وهى بناء عمرو بن العاص ، وهى المسماة عند العامة بمصر الحقيقية ، والقاهرة بناها جوهر القائد لمولاه الخليفة المعز ، وقلعة الجبل بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب : (١)] ومعروف أن القلعة أصبحت مقراً للحكم منذ أن انتقل للإقامة بها الملك الكامل ، ابن أخ صلاح الدين ، بعد أن كمل بناؤها على يديه فى سنة ٦٠٤ هـ . فقد كان من الطبيعى أن يفكر صلاح الدين فى أن يقيم بجوار (قلعة الجبل) وفى حماها ، أى أن يبنى له قصراً يجوارها ؛ غير أنه لم يقدر له أن ينفذ ذلك المشروع ، إذ شغله أحداث سورية والجهاد ضد الصليبيين عن ذلك . ومن ثم وقع إتمام ذلك المشروع على كاهل ابن أخيه الملك الكامل ، وما إن تم له ذلك حتى تحول من دار الوزارة الفاطمية إلى القلعة وأقام بها .

فالملك الكامل هو الذى قام ببناء القصور السلطانية وغيرها من عمائر السلطنة بجانب (قلعة الجبل) التى بناها صلاح الدين . وهذه المنشآت السلطانية احتواها سور آخر ، عرف بالسور الجنوبي لوقوعه جنوب السور الشمالى ، وهو (قلعة الجبل) ذاتها . وقد شبه كازاتوفا فى دراسته عن القلعة هذا السور الجنوبي بمدينة ملكية صغيرة ، مثل قوساى أو بوتسدام ، أقيمت فى حى (قلعة الجبل) ؛

واقضت الإقامة بالقلعة على هذا النحو ، وتقل مقر السلطنة إليها ، بناء ما يتطلبه نظام الحكم من عمائر ومنشآت ، سواء بقلعة الجبل (القلعة العسكرية) أو بالقلعة (المدينة السلطانية) . وهذه العمائر والمنشآت هى : الإيوان ، والجامع ، والدور السلطانية ، وباب السرايا الخاص بالدور السلطانية ، وباب القلعة الذى يصل بين قلعة الجبل والمدينة السلطانية والأبراج ، وأبراج

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٥ .

الحمام ، وخزانة الكتب وقاعة الصاحب (دارالوزارة) ، والإسطنبول السلطاني الذي بنى أسفل الربوة التي أقيمت عليها المدينة السلطانية : وكما اقتضى نقل مقر السلطنة إلى القلعة على هذا النحو أن يكون إلى جانبها الإسطنبول السلطاني ؛ فقد اقتضى وجود الإسطنبول السلطاني أن يكون بجانبه الميدان السلطاني وسوق الخيل . وسوق الخيل في ذلك الوقت كانت له أهميته الكبرى ، فمنه تشتري الدولة ما تحتاجه من خيل وعتاد وكل ما يتصل بالحرب والتجهيز والإعداد لها : ولذلك نقل الملك الكامل سوق الخيل إلى ميدان الرملة تحت القلعة بجوار الإسطنبول السلطاني : كما أنشأ بجوارها الميدان السلطاني الذي كان يمتد من ميدان الرملة حتى باب القرافة ، أحد أبواب سور القاهرة الممتد من القلعة إلى الفسطاط والذي كان يتوصل منه إلى القرافة الكبرى . وهذه المنطقة أسفل القلعة التي كانت تضم الإسطنبول السلطاني وسوق الخيل والميدان السلطاني هي التي أصبحت تكون السور الثالث أو النطاق الثالث للقلعة : وكان يسمح بالدخول إلى هذا النطاق من باب السلسلة ، المواجه للموسى السلطان حسن : والذي كان يتوصل منه إلى الإسطنبول السلطاني (١) .

وهذه الأسوار الثلاثة أو النطاقات الثلاث هي التي عرفت باسم (القلعة) التي أصبحت القاعدة الثالثة في حاضرة الديار المصرية ، وقاعدة الحكم في مصر الإسلامية والحديثة منذ أن انتقل إليها الملك الكامل إلى أن تركها الخديوي اسماعيل .

وإذا ما انتقلنا إلى شرح بقية النص الذي جاء على لسان ابن فضل الله العمري ، ونقله عنه القلقشندي وغيره من مؤرخي القرن التاسع الهجري ، لعرفنا أن وصف حاضرة الديار المصرية على هذا النحو إنما جاء تعبيراً صادقاً عما استقر عليه أمر هذه القواعد الثلاث — وعلى وجه التخصيص — منذ عهد الناصر محمد بن قلاوون ، إذ في عهده التحمت هذه القواعد

(١) انظر :

— كازانوكا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة (الأصل الفرنسي) ، الجزء الأول .
— القلعة ، والفصل السابع ، الجزء الثاني ، الفصل ، السابع عشر .

الثلاث بعضها ببعض ، ولم تعد مدناً منعزلة يعزل بين كل منها فضاء واسع ، وإنما أصبحت مدينة كبيرة واحدة .

فعهد الناصر محمد بن قلاوون ، الطويل الأمد ، يعتبر أعظم العهود قاطبة في تاريخ الدولة المملوكية . كما كان الناصر محمد بن قلاوون أعظم السلاطين في زمانه وأعظمهم جاهاً وثروة . وفضلاً عن ذلك فقد كان رقيق الإحساس ذواقاً للحياة المترفة الناعمة ، فدفع بحاسته المرهفة وذوقه الفنى حركة الإنشاء والتعمير دفعة قوية نشيطة . فيذكر لنا من أرخ له قائمة لانهاية لها ، مما قام بإنشائه هو ، وأمرأه مملكته من جسور وقنوات وقصور ومساجد . . وغيرها من المنشآت . وبارشاده وتشجيعه أنشئت خارج سور القاهرة المعزية أربعة أو خمسة أحياء جديدة ، وهى : بركة الفيل ، وناحية بولاق ، وساحل النيل من منية السرج إلى جامع الخضيرى ، والقطعة التى فيما بين قبة الإمام الشافعى إلى باب القرافة ، والصحراء فيما بين القلعة وخارج باب المحروق إلى قبة النصر . ودوجز القول فإن معالم مدينة القاهرة الجديدة إنما تؤرخ بعهد (١)

إذا ما أضفنا إلى هذه الصورة ، ما حدث من استمرار حركة البناء والتعمير فيما بين القلعة والقاهرة المعزية من جهة : والقلعة والفسطاط من جهة أخرى ، خلال الفترة الممتدة من نهاية عهد الناصر محمد بن قلاوون (ت سنة ٧٤٦ هـ) حتى زمن القلقشندى (ت سنة ٨٢١ هـ) ، لأدركنا مدى الالتحام الذى حدث بين هذه القواعد الثلاث (٢) ولأمكننا

(١) عن حركة البناء والتعمير فى عهد الناصر محمد بن قلاوون انظر :

— الدكتور زيادة : حركة البناء والتعمير فى عهد الناصر محمد ، « من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى » — المجلة التاريخية المصرية ، والمجلدان التاسع والعاشر ، ١٩٦٠ — ١٩٦٦ ، ص ٢٤١ — ٢٥٠ .

— أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب ، الجزء التاسع ، ص ١٧٨ — ٢١٠ .

— كازانوف : المرجع السابق (الأصل الفرنسى) ، الجزء الثانى ، الفصل التاسع
ف منشآت محمد بن قلاوون .

(٢) انظر الدراسة التى قام بها سالون Salmon عن قلعة الكيش وبركة الفيل ،
والتي ساقى إليها بالفرنسية فيما بعد

أن تتصور المدينة الكبيرة التي تكونت من هذه القواعد الثلاث : المدينة الكبيرة التي أصبحت تعرف لدى المصريين ، منذ ذلك الوقت ، بمدينة القاهرة ، والتي وصفها لنا ، كوحدة واحدة ، جميع الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر خلال القرن التاسع والعاشر الهجريين (١) .

* * *

إن هذا الجانب الأثري في كتاب « صبح الأعشى » يمثل أحد الجوانب التي لا تتصل بموضوع الكتاب مباشرة . غير أن ما كتبه القلقشندي عن القلعة باعتبارها قاعدة الحكم في حاضرة الديار المصرية ، يعتبر أهم أجزاء هذا الجانب ، بل يعتبر من أهم ما احتواه كتابه . وهذه الأهمية تستمد وجودها من عنصرين : الأمانة في النقل عن أستاذه شهاب الدين أحمد بن محي الدين بن فضل الله العمري ، والدقة والإصالة في وصف ما أضافه إلى ما نقله نتيجة المشاهدة العيانية الطويلة .

وهذا الحكم إنما جاء بعد عدة دراسات تاريخية أثرية قام بها عدد من المشرقين الفرنسيين ، يمثلون مدرسة ذات أسلوب عمل خاص كوست جهودها لإحياء معالم عواصم مصر الإسلامية : القسطنطينية ، والقاهرة (المعزية) ، والقلعة .

فهذه المدرسة تعتمد ، في المقام الأول ، على استخراج النصوص التاريخية الخاصة بالمعالم الأثرية من المصادر المعاصرة ، حقبة حقبة ، ثم تقوم بتطبيق هذه النصوص التاريخية على الطبيعة في ضوء ما تبقى من أحياء وآثار وأطلال ومعالم ؛ كمحاولة لإحياء المعالم الكاملة لهذه العواصم في فترات ازدهارها ومجدها .

(١) انظر :

- DOPP : Le Caire vu par les voyageurs occidentaux du Moyen-Age, Extrait du B.S.R.G.E., T. XXIV, Le Caire, 1951.
- CLERGET (M.) : Le Caire. Etudes de géographie urbaine et d'histoire économique 2 vol., Le Caire 1934.

وأول هذه المدرسة يرجع الفضل في إحياء معالم حواضر مصر الإسلامية . فقد قام رافيس Ravaisse في عام ١٨٨٧ بدراسة تاريخية وصفية للقاهرة المعزية منذ إنشائها حتى القرن الخامس عشر الميلادي ، وهي الدراسة التي صدرت بعنوان :

— *Essai sur l'histoire et sur la topographie du Caire d'après Makrizi (dans Mém. Miss. Arch. Fr., T. I et III).*

وقام سالمون SALMON بدراسة مماثلة عن قلعة الكيش وبركة الفيل لإحياء معالم مدينة القطائع والجانب الجديد من مدينة القاهرة الممتد من باب زويلة حتى القلعة ، وهي الدراسة التي صدرت في عام ١٩٠٢ بعنوان .

— *Études sur la topographie du Caire. La Kal'at al-Kabch et la Birket a-iFil (dans Mém. de l'Ins. Fr. d'Arch. Or., T. VII, Le Caire, 1902.*

وكان قد سبقه كازانوفا Casanova في دراسته التاريخية الوصفية للقلعة التي انتهى منها في عام ١٨٩٤ ونشرها بعنوان :

— *Histoire et description de la Citadelle du Caire (dans Mém. Miss. d'Arch. Fr. du Caire, T. VI, 4ème Masc.), Paris, 1894.*

وفي عام ١٩١٩ انتهى كازانوفا من دراسته لإحياء معالم مدينة [الفسطاط ونشرها بعنوان :

— *Reconstruction topographie de la ville Fustat ou Misr (dans Mém. de l'Inst. Fr. d'Arch. Or du Caire, T. XXXV.*

هذه الدراسات جميعاً اعتمدت أساساً على كتاب « الخطط » للمقريزي ، فهو المرجع الرئيسي الذي وصل إلينا عن خطط وآثار عواصم مصر الإسلامية حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي على وجه التقريب . وقد أثبتت هذه الدراسات التطبيقية صحة الجانب الأكبر مما ذكره المقريزي في خططه عن هذه المعالم والآثار الخاصة بالفسطاط

والقاهرة والقطنان وبركة القيل ، بصرف النظر عما يوجه إليه من حجة
النقل عن غيره ، ولا سيما الأوحدي المؤرخ : (١)

إلا أن كازانوفاً خرج من دراسته للقلعة وقد اهتمت ثقته بما جاء في كتاب
« الخطط » من وصف لأسوار القاهرة والقلعة . فضلاً عما لاحظته ،
في عديد من المواضع ، من إغفال المقرئى الإشارة إلى من نقل عنه
ممن سبقه من المؤرخين ، فقد أخذ عليه الكثير من المتناقضات . فهو
يناقض نفسه في كثير من الأحيان ، فيما ذكره في مواضع مختلفة
من كتابه « الخطط » عن الأثر الواحد : بل فيما ذكره في بعض
الأحيان عن موضوع معين في كتابه « الخطط » وفي كتابه « السلوك » ،
وهو كتابه الرئيسي الثاني . (٢)

كما خرج من هذه الدراسة بنتيجة هامة ، وهي أن أدق وصف
للقلعة هو ما كتبه شهاب الدين أحمد بن محب الدين بن فضل الله
العمري في موسوعته « مسالك الأبصار » وأن هذه الدقة في الوصف
إنما جاءت نتيجة عمله في ديوان الإنشاء ، مشاركاً لأبيه الذي كانت له رئاسة
الديوان ، طوال سنوات عديدة في عهد الناصر محمد بن قلاوون . (٣)
وأن كلاماً من القلقشندي والمقرئى نقلاً عن ابن فضل الله العمري هذا
الوصف مع فاروق كبير من حيث الأمانة والدقة في النقل : فقد أغفل
المقرئى الإشارة إلى ابن فضل الله العمري ، بينما أشار القلقشندي إلى
ذلك صراحة : (٤)

(١) انظر :

— الدكتور زيادة : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، ص ١٠ — ١٢

— الأستاذ محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، الفصل

الثاني ، ص ٥٢ — ٥٩ .

WIET : Compte rendu d'Ibn Muyassar, ofurnal Asiatique 1921.

(٢) انظر كازانوف : المرجع السابق ، الجزء الثاني ، الفصل الحادي عشر (قلعة

الفصل الثاني والثالث والرابع (أسوار القاهرة) ، الفصل الثامن (القلعة منذ عهد

الملك الكامل حتى عهد الناصر محمد بن قلاوون) .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، الجزء الأول ، ص ٩٨ — ٩٩ .

(٤) انظر كازانوف : تاريخ ووصف قلعة القاهرة (الأصل الفرنسي) ، الجزء الأول ،

القاهرة زمن شهاب الدين بن فضل الله العمري) .

وفضلاً عن ذلك فقد أضاف القلقشندي إلى وصف القلعة الذي نقله عن ابن فضل الله العمري ملاحظاته الخاصة المستمدة من المشاهدة العيانية والتجربة الحية . وقد أثبت كازانوفاً دقة وصحة هذه الملاحظات ، بل أوضح أنه لولا ذلك لما أمكنه أن يذهب إلى ما انتهى إليه في دراسته التاريخية والوصفية للقلعة . (١)

ومن حق القارئ أن نوضح له الأسباب التي جعلت وصف القلعة يشهد بتميز عن وصف غيره من المؤرخين ، وعلى رأسهم عمدتهم المقرئ ، بالأمانة في النقل والدقة في وصف الحديد الذي أضافه إلى ما نقله .

إن القلقشندي يتحدث في مقدمة كتابه ، وكذلك في الجزء الرابع عشر من هذا الكتاب ، عن كيفية إلحاقه كاتباً أو موقعاً بديوان الإنشاء سنة ٧٩١ هـ . فهو ينكر صراحة أن المقامة التي سماها « الكواكب الدرية » في المناقب البدرية ، كانت جواز المرور له إلى هذه الوظيفة ، فهو يقول :

[هذه المقامة التي قدمت الإشارة إليها في خطبة هذا الكتاب إلى أني كنت أنشأتها في حدود سنة إحدى وتسعين وسبعائة ، عند استقرارى في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة ، وأنها اشتملت — مع الاختصار — على جملة جمّة من صناعة الإنشاء ، ووسمتها « بالكواكب الدرية » في المناقب البدرية ، ووجه القول فيها لتقرّظ المقرئ البدرى ، بن المقرئ العلاني ، بن المقرئ الحيوى ، بن فضل الله ، صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية يومئذ] . (٢)

وبلر الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله هو أحد أفراد أسرة فضل الله العمري التي تولت لأكثر من قرن من الزمان وظيفة صاحب ديوان الإنشاء ، أو كاتب السر في دولتي المماليك البحرية

(١) انظر كازانوف : المرجع السابق ، الجزء الثاني ، الفصل الثالث عشر (القلعة زمن القلقشندي والمقرئ) .

(٢) صبح الأمل ، الجزء الأول ، المقامة ، ص ٨ . الجزء الرابع عشر ، ص ١١٠ .

وما بعدها .

والبرجية . وقد شغل أفراد هذه الأسرة هذه الوظيفة عن جدارة أدبية ، (١) وإلى أحد أفرادها وهو القاضي شهاب الدين أحمد بن محيي الدين يرجع الفضل في وضع المصطلح الشريف الخاص بأصول المكاتبات والمراسلات وغيرها من أعمال ديوان الإنشاء : (٢)

هذا وقد شغل بدر الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله وظيفة كاتب المر ثلاث مرات . الأولى من رمضان ٧٦٩ هـ حتى شوال ٧٨٤ هـ ، أى إلى أن عزل منها بعد شهر واحد تقريباً من تولية الظاهر برقوق عرش السلطنة . (٣) والثانية من ٤ من ذى الحجة ٧٨٦ هـ حتى ١٤ من صفر ٧٩٢ هـ وخلف فيها الظاهر برقوق ، والمنصور حاجي خلال السنة الأخيرة منها ، وبعد أن نجح الظاهر برقوق في استعادة عرشه فر بدر الدين إلى دمشق خشية أن يتهمه السلطان بالتآمر مع المتآمرين على خلع . وفي السنة قبل الأخيرة من هذه الفترة (سنة ٧٩١ هـ) ألحق القلقشندي بديوان الإنشاء بعد أن امتدحه في المقامة التي أهداها إليه . (٤) وفي المرة الثالثة تولى رئاسة ديوان الإنشاء في سلطنة الظاهر برقوق أيضاً ، في الفترة من شوال ٧٩٣ هـ حتى ٢٠ شوال ٧٩٦ هـ ، وهو اليوم الذي أدركته فيه الوفاة . (٥)

ومن هذا يتضح أن بدر الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله

(١) صبح الأعشى ، الجزء الأول ، ص ٧ - ٨ ، ص ٩٨ - ٩٩ .

- تولى رئاسة ديوان الإنشاء من بين أفراد هذه الأسرة خمسة أشخاص وهم :

١ - القاضي شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله .

٢ - القاضي محيي الدين بن فضل الله ، ومعه ابنه القاضي شهاب الدين أحمد وكان يقرأ البريد على السلطان وينفذ المهمات .

٣ - القاضي محيي الدين بن فضل الله ومعه ابنه القاضي علاء الدين وكان كاخيه شهاب الدين أحمد يقرأ البريد على السلطان وينفذ المهمات .

٤ - القاضي علاء الدين بن محيي الدين بن فضل الله استقلالاً .

٥ - القاضي بدر الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله .

(٢) صبح الأعشى ، الجزء الأول ، للمقدمة ص ٧ .

WIET : Les secrétaires de la Chancellerie en Egypte sous les Sultans circassiens, No. 1, pp. 1-2. (٣)

- تولى برقوق عرش السلطنة في ١٩ رمضان ٧٨٤ هـ .

WIET : Op. cit., No. III, pp. 3-4. (٤)

WIET : Op. cit., No. V, pp. 4-5. (٥)

هو صاحب الفضل على القلقشندي في إلحاقه بالعمل بديوان الإنشاء ، كما أن القلقشندي خدم في الديوان مرعوساً له في فترتين من الفترات التي تولى فيها رئاسة الديوان . وما من شك أن القلقشندي يحمل له في قلبه كثيراً من التقدير والاعتراف بالفضل والجميل . وتجلى كل ذلك في إشارته ، في كثير من المواضع في كتابه إلى أفراد هذه الأسرة ، وعلى رأسهم شهاب الدين أحمد بن محيي الدين صاحب كتاب « مسالك الأبيصار في ممالك الأمصار » وكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » (١) .

وأما صحة الملاحظة المستمدة من المشاهدة العيانية ، والتي أعطت وصفه القلعة صفة الأصالة والدقة فقد جاءت نتيجة عمله بديوان الإنشاء بالقلعة فترة طويلة من الزمن . وربما يرد على هذا القول بأن المقرزي عمل أيضاً موقعاً بديوان الإنشاء أثناء الفترة الأولى التي تولى فيها رئاسة الديوان بدر الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله . غير أنه يرد على ذلك بأن مدة عمل المقرزي في هذه الوظيفة كانت قصيرة ، فهذا ما يتضح مما جاء على لسانه في وصفه لقاعة ديوان الإنشاء بالقلعة . ففي هذا الصدد يقول :

[وأنا جلست فيها عند القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله العمري أيام مباشرتي التوقيع السلطاني إلى نحو السبعين والسبعائة] . (٢)

بل إن هذه الحقيقة التي ذكرها المقرزي عن نفسه موضع شك كبير ، فالمعروف أنه ولد في سنة ٧٦٦ هـ (٣) وهذا يعني أنه عندما ترك العمل بديوان الإنشاء حسبما جاء بالنص المنقول عنه — كان يبلغ زهاء الأربع أو الخمس سنوات . وفضلاً عن ذلك ، فإنه إذا سلمنا بوجود خطأ في النص فيما يختص بالتاريخ الذي ذكره ، فمن المعروف أن المقرزي شغل بعد تركه لهذه الوظيفة عدداً من الوظائف بمصر ،

(١) GAUDEFRÖY-DEMOMBYNES : La Syrie à l'époque des Mamlouks, Introduction, pp. III-IV.

(٢) الخطط . الجزء الثاني . ص ٢٢٥ .

(٣) الدكتور زيادة : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، ص ٦ .

كان آخرها وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى للمرة الثالثة فى سنة ٨٠٧ هـ ، وكان هذا آخر العهد به بحياة الوظائف إلى أن توفى فى سنة ٨٤٥ هـ (١) :

وأما صاحبنا القلقشندى فقد ظل يعمل كاتباً بديوان الإنشاء بالقاهرة مدة طويلة ، تبلغ — على وجه اليقين — ربع قرن من الزمان ، وربما تصل إلى الثلاثين عاماً . فالقلقشندى — كما سبق أن أوضحنا — التحق بالعمل فى ديوان الإنشاء سنة ٧٩١ هـ . وقد نقل عنه كل من أرخ لسيرته ما ذكره هو عن استقراره فى هذا الديوان فى هذه السنة ، إلا أن أحداً منهم لم يُشير إلى السنة التى اعتزل فيها الخدمة بالديوان (٢) وأقصى ما استطعنا أن نعرفه عن سيرته أنه انتهى من تأليف كتابه : صبح الأعشى ، فى شهر شوال سنة ٨١٤ هـ . (٣)

وكنتم دائماً التساؤل ، كيف تسنى للقلقشندى أن ينقل إلى موسوعته هذا العدد الضخم والذى لاحصر له من المكاتبات والرسائل ؛ وغيرها من المقامات الخاصة بفنون الكتابة وصناعة الإنشاء ، فضلاً عما احتوته من فصول عديدة عن النظم والمعاملات والآثار والاجتماع وغيرها من جوانب الحياة المختلفة فى مصر الإسلامية . إن الجواب المنطقي على هذا التساؤل هو أن القلقشندى لا يد وأن يكون قد شغل وظيفة الكتابة فى ديوان الإنشاء فترة طويلة من الزمن استطاع خلالها أن يحصل على

(١) شغل المقرئى وظيفة الحسبة ثلاث مرات . الأولى فى سنة ٨٠١ هـ ، والثانية فى سنة ٨٠٢ هـ ، والثالثة فى سنة ٨٠٧ هـ .

انظر : السلوك ، المخطوط بالكتبة الأملية بباريس ، القسم العربى ، رقم ١٧٢٨ ، ورقة ١٠ ب ، ١١٦ ، ١١٩ ، ٤٨ .

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ، الجزء الثانى ، رقم ٢٥ ، ص ٨

— ابن الصمد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، الجزء السابع ، ص ١٤٩ .

— كما ترجم للقلقشندى كثيرون كابن حجر ، وابن تفرى بردى وغيرهم ، إلا أنهم لم يضيفوا جديداً فى هذا الصدد .

(٣) ورد ذلك على لسان الأستاذ محمد عيد الله عن أثناء اللقاء حديثه عن القلقشندى فى الندوة التى أقيمت لهذا الغرض بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية . الدكتور زيادة : المرجع السابق ، ص ٨ .

نسخ مما تحت يده من معلومات وحقائق تتعلق بهذه الجوانب المختلفة جميعاً .

ومن ثم قرأت معظم ما استطاعت أن تصل إليه يدي من تراجم له ، وهى كثيرة ، غير أنى لم أجد فى إحداها بغيتى . ولذا انتقلت أقلب صفحات كتاب صبح الأعشى ، جزءاً جزءاً ، على أجد على لسان القلقشندى ما يوضح حقيقة أمره ، وبعد جهد جهيد وجدت ما أبحث عنه وعرفت مما أوردته عن نفسه أنه ظل — على وجه اليقين — يعمل بديوان الإنشاء حتى سنة ٨١٦ هـ وربما ظل يعمل به حتى أدركته الوفاة فى سنة ٨٢١ هـ .

فى الجزء التاسع ، صفحة ٢٢ ، يذكر القلقشندى عن نفسه :
[قلت : وكتبت للمقرالبدري ، محمود الكُستانى ، الشهير بالسراى ، مهتئاً له باستقراره فى كتابة السر الشريف بالديار المصرية فى الدولة الظاهرية برقوق فى سلطته الأولى .

رَفَعْتُ للمجد مذ وُلِّيت بنيساناً وشدت للفضل بعد الوهن أركاناً (١)
هذا ومن المعروف أن بدر الدين محمود الكُستانى تولى كتابة السر بعد أن شغرت ب وفاة بدر الدين محمد بن فضل الله فى شوال سنة ٧٩٦ هـ ، وظل يشغل هذه الوظيفة حتى ١٠ جمادى الأولى سنة ٨٠١ هـ (٢)
وفى الجزء الرابع عشر ، صفحة ١٩١ ، يذكر أيضاً عن نفسه :

[قلت : وهذه رسالة أنشأتها فى تقرىض المقر الفتحى ، أبى المعالى فتح الله صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالديار المصرية والممالك الإسلامية ، أدام الله تعالى معاليه ، فى شهور سنة أربع عشرة وثمانمائة ، وهى : (٣)]

(١) بل ذلك بقية أبيات القصيدة >

WIET : Op. cit., No. VI, pp. 5-6.

(٢)

(٣) بل ذلك نص الرسالة وتشغل عدة صفحات ، من صفحة ١٩١ حتى صفحة

وفتح الدين فتح الله تولى رئاسة ديوان الإنشاء مرتين. المرة الأولى من شهر جمادى الأولى سنة ٨٠١ هـ حتى شهر ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ (١)، والمرة الثانية من ٧ ذى الحجة سنة ٨٠٨ هـ حتى شوال سنة ٨١٥ هـ : (٢) وفي الجزء التاسع ، صفحة ٤٢ ، يقول أيضاً عن نفسه :

[قلت : ومما كتبت به تهنته بالصوم للمقرّ الأشرف الناصري محمد بن البارزى كاتب السر الشريف المؤيدى بالممالك الإسلامية ، فى سنة ست عشرة وثمانمائة نظماً :

أيا كاتب السر الشريف ومم به تميمس نواحى مصر تها مع الشام (٣)]
ومحمد بن البارزى تولى كتابه السر فى ١٣ شوال سنة ٨١٥ هـ وظل بها حتى أدركته الوفاة فى ٨ شوال سنة ٨٢٣ هـ (٤) .

وعلى هذا النحو نستطيع أن نستنبط أن القلقشندى ظل قائماً بالعمل فى ديوان الإنشاء حتى نهاية سنة ٨١٦ هـ على أقل تقدير ، وربما حتى تاريخ وفاته فى سنة ٨٢١ هـ فليس لدينا أى نص ينفى ذلك أو يؤيده . ويترتب على هذه الحقيقة حقيقة أخرى ، وهى إن القلقشندى وإن كان قد انتهى من تأليف كتابه « صبح الأعشى » فى شوال سنة ٨١٤ هـ إلا أنه ظل يضيف إليه طوال السنوات الباقية من حياته طالما كان لا يزال يعمل بديوان الإنشاء .

ومن هذه الشواهد يتضح أيضاً أن القلقشندى عاش طول حياته الوظيفية مادحاً لرؤساء ديوان الإنشاء . غير أنه من حق القلقشندى عايناً ألا أترك هذه الملاحظة لبفهم منها القارئ والسامع ما يقلل من قدره ومكانته ، إذ يتعين على المؤرخ أن يضع فى اعتباره قبل الحكم على الأشخاص طبيعة الفترة التى عاشوها . وهذه الفترة من حياة القلقشندى

WIET : Op. cit., No. VII, pp. 6-7.

WIET : Op. cit., No X, pp. 14-16.

(١)

(٢)

(٣) بل ذلك بقية أبيات التصية .

WIET : Op. cit., No. XI, pp. 16-18.

(٤)

الوظيفية تعتبر من أخطر الفترات التي عرفها تاريخ مصر المملوكية ، بل من أظلمها وأكثرها اضطراباً .

فقد عاصر القلقشندي وهو في بداية عمله بديوان الإنشاء الأحداث التي أدت إلى خلع الظاهر برقوق من عرش السلطنة ، وتولية المنصور حاجي أحد أحفاد الناصر محمد بن قلاوون مكانه ، ثم عودة برقوق إلى عرش السلطنة بعد مضي سنة من خلعه منها (٧٩١ - ٧٩٢ هـ) . وشهد أيضاً الفترة الأخيرة من سلطنة برقوق بما صاحبها من اضطرابات حاكما ضده المتطلعون إلى عرش السلطنة من أفراد المماليك (١) . وهذه الفترة هي التي شهدت أيضاً بداية المجاعة الطويلة المتقطعة التي استمرت من سنة ٧٩٦ هـ حتى سنة ٨٠٩ هـ والتي صاحبها في السنوات الأخيرة منها ازدياد حدة المجاعة وانتشار الوباء . (٢) كما صاحبها منذ مطلع القرن التاسع الهجري الأحداث والحزن المتصلة بغزواتهم لبلاد الشام وتهديده مصر بالغزو . وأخيراً يأتي عهد الناصر فرج الذي امتلأ كله من بدايته حتى نهايته (٨٠١ - ٨١٥ هـ) بالاضطرابات اللعوية وتآمر كبار الأمراء بمصر والشام على التخلص منه بسبب صغر سنه وقت أن تولى السلطنة ، ولرفضهم الاعتراف بمبدأ توريث السلاطين السلطنة لأبنائهم من بعدهم : لأوكفي لإبراز مدى دموية هذا العهد أن الناصر فرج قتل بيده ، في سنة واحدة ، ستائة وعشرين أميراً من أمراء المماليك ، وجرد ضد المتآمرين عليه بالشام ثمان تجريدات عسكرية أُنقذ على كل منها أكثر من مليون دينار . وأنه عزل عن العرش ثم تمكن من العودة اليه ، وأنه قتل إحدى زوجاته بيده بطريقة وحشية تدل على مزاجه الدموي وتعطشه لسفك الدماء . وأخيراً انتهت حياته بالقتل وهو بدمشق ،

(١) انظر ابراهيم علي طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص

١٥ - ٢٢ .

(٢) الحريزي : اعادة الأمانة بكشف الغمة ، نشر الدكتور زيادة والدكتور الشبال ،

ص ٢٣ .

— WIET et HAUTECEUR : Les Mosquées du Caire, t. I, p. 82.

وكان قد خرج إليها على رأس حملة ليؤدب أحد الخارجين عليه : (١)
وفضلاً عن هذا كله ، فهذه الفترة هي التي شهدت فيها مصر الضائقة
الاقتصادية التي ازدادت حدة وغنى عند مطلع القرن التاسع الهجري
ودفعت بالبلاد نحو التدهور الاقتصادي (٢) .

وأخيراً حسب القلقشندي في ظل هذه الظروف أن استطاع أن
يحافظ على وظيفته ، التي ظل قابلاً بها أكثر من ربع قرن من الزمان ؛
وليس ثمة شك أنه كان أحق برئاسة ديوان الإنشاء من الكثيرين الذين
تولوا أثناء فترة عمله به ، (٣) غير أنه كان يفتقر إلى المؤهلات التي
تؤهله لشغل هذه الوظيفة حسب معيار ذلك العصر (٤) ، وحسبه ذلك فخراً ؛
وقبل أن أنهي الحديث عن هذه النقطة ، لا بد من أن أشير إلى
ما ذكره المقرئ عن ديوان الإنشاء . فهو - بالإضافة إلى ما سبق أن
قلته عن طول مدة عمل القلقشندي بالديوان - يلقي المزيد من الضوء
على الطريقة التي صنف بها القلقشندي كتابه . يقول المقرئ :

[وكان بجوارقاعة الصاحب بقلعة الجبل ديوان الإنشاء ، ويجلس فيه
كاتب السرّ وعنده موقعو الدَّرَج وموقعو الدَّسْت في أيام الموابك

(١) النظر :

— WIET : L'Egypte arabe, pp. 521-524, 526-532, 533-540.

— WIET et HAUTECOEUR : Op. cit., pp. 80-82.

— إبراهيم علي طرخان : المرجع السابق ، ص ٢٥ - ٣٠ .

(٢) النظر :

— المقرئ : اغاثة الأمانة بكشف الغمّة ، ص ٤٣ وما بعدها .

— DARRAG : L'Egypte sous le règne de Barsbay, chap. III, pp. 57-107.

(٣) النظر :

WIET : Les secrétaires de la Chancellerie :

No. II, pp. 2-3.

أحمد الدين عبد الواحد الخنفي

No. IV, p. 4.

علاء الدين علي الكركي

No. VII, pp. 6-7.

فتح الدين فتح الله

No. VIII, pp. 7-13.

سميد الدين بن غراب

No. IX, pp. 13-14.

فخر الدين محمد بن المزوق

No. X, pp. 14-16.

فتح الدين فتح الله - للمرة الثانية

(٤) النظر :

— المقرئ : اغاثة الأمانة بكشف الغمّة ، ص ٤٣ - ٤٥ (ولاية المخطط السلطانية

والمناصب الدينية بالرشوة) .

طول النهار ، وكانت الكتب الواردة وتعلق ما يكتب من الباب السلطاني موضوعة بهذه القاعة فلما زالت دولة الظاهر برقوق ثم عادت اختلت أمور كثيرة ، منها أمر قاعة الإنشاء بالقلعة وهجرت وأخذ ما كان فيها من الأوراق وبيعت بالقنطار ونسي رسمها (١) .

ومن هذا النص السابق ذكره للمقریزی ، يستخرج المؤرخ سبياً آخر للتدليل على مدى قدرة القلقشندي على دقة الملاحظة في الجديد الذي أضافه إلى وصف القلعة . فمن هذا النص نعرف مكان قاعة دار الإنشاء بقلعة الجبل ، أي بالقلعة العسكرية التي بناها صلاح الدين ، فديوان الإنشاء كان يوجد بجوار قاعة الصاحب ، وقاعة الصاحب من إنشاء الملك الكامل ، وقد عرفت بهذا الاسم لأن الوزراء كانوا يلقبون بلقب الصاحب ، وأول من لقب منهم به صفي الدين بن شكر الذي كان وزيراً للملك الكامل . (٢)

وأما القلقشندي فإنه يزيدنا إيضاحاً — في وصفه للقلعة — عن مكان قاعة الصاحب : فيقول في معرض حديثه عن الباب الثالث (الرئيسي) للقلعة :

[وهو بابها الأعظم الذي يدخل منه باقي الأمراء وسائر الناس ، يتوصل إليه من أعلى الصورة المتقدم ذكرها ، يرقى إليه في درج متناسبة حتى يكون منخله في أول الجانب الشرقي من القلعة . ويتوصل منه إلى ساحة مستطيلة يذتهى منها إلى دركاه جليلة يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول ، وفي قبلي هذه الدركاه دار النيابة ، وهي التي يجلس بها النائب الكافل للحكم إذا كان ثم نائب ، وقاعة الصاحب وهي التي يجلس بها الوزير وكتاب الدولة ، وديوان الإنشاء وهو الذي يجلس فيه كاتب السر وكتاب ديوانه ، وكذلك ديوان الجيش وسائر الدواوين السلطانية . وبصلر هذه الدركاه باب يقال له باب القلعة يدخل منه إلى دهاليز

(١) الخطط ، الجزء الثاني ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٢) انظر كازانوف ، المرجع السابق (الأصل الفرنسي) ، الجزء الأول ، الفصل

السابع .

فسيحة على يسرة الداخل منها باب يتوصل منه إلى جامع الخطبة المتقدم ذكره ويتوصل من ظاهر هذا الجامع إلى باب الستارة ودور الحرم السلطانية (١)

ومن هذا النص نعرف أن قاعة الصاحب كانت تقع بقلعة الجبل بجوار باب القلة . وباب القلة هذا هو الذى يصل بين قلعة الجبل ، أى القلعة العسكرية (السور الشمالى) وبين المدينة السلطانية التى أقامها الملك الكامل بجانبا (أى السور الجنوبى) والنطاق الثالث الذى أنشئ أسفل القلعة ليضم الأصطبل السلطانى وغيره من المنشآت الملحقة بالقلعة . أى أن دار ديوان الإنشاء التى كان يعمل بها القلقشندى ، كانت تقع فى مكان وسط بالقلعة ككل . ومن هذا المكان يستطيع القلقشندى أن يلم بكل ما يجرى فى أقسام القلعة وأسوارها الثلاثة ، ويعرف دقائق وصف كل مكان بها .

وربما يظن المرء أن الأمر كان فى غاية اليسر والسهولة ، وأن أى إنسان يدخل القلعة أو يعمل بها كان يستطيع أن يلم بدقائق وصفها فالدخول إلى القلعة والخروج منها كان يسير وفق نظام محكم دقيق ، نظراً للوضع الذى آلت إليه القلعة على يد الملك الكامل وخلفائه من الأيوبيين ، والمماليك خاصة . فقد أصبحت مقر الحكم وحاضرة البلاد ، فضلاً عن إقامة السلاطين وخوادم كبار الأمراء والمماليك بها .

فقد كان يتوصل إلى قلعة الجبل (القلعة العسكرية) من بابها الرئيسى الذى عرف بباب المدرج وبباب سارية . ونظراً لأهمية هذا الباب ، فقد كان المنتصرف عليه نائب القلعة ، الذى كان يعرف أيضاً باسم وإلى باب القلعة . وكان يتوصل إلى المدينة السلطانية من باب السر ، ويختص للدخول والخروج منه بأكابر الأمراء وخوادم الدولة . كما كان يتوصل إليها من باب القلة بعد أن يجتاز المرء باب المدرج ويعبر الساحة التى تصل بينها ثم يسمح له بعبور باب القلة بعد أن يكون قد استجوب على يد وإلى

(١) صبح الأعشى ، الجزء الثالث ، ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

هذا الباب ، الذى كان يعرف باسم والى باب القلعة . ولم يكن هذا الوالى يقل أهمية من حيث المنصب عن نائب القلعة . أما النطاق الثالث أسفل القلعة فقد كان يتوصل إليه عن طريق باب السلسلة الذى كان يقع فى مواجهة مدرسة السلطان حسن . (١) كما أن العمل بالقلعة كان يجرى وفق رسوم دقيقة صارمة ، سواء من حيث العمل بالدواوين أو من حيث المجالس والمواكب السلطانية . (٢)

لقد أوضحت فى هذا العرض العوامل التى أدت إلى إبراز قيمة الجانب الأثرى الذى تضمنته كتاب صبح الأعشى ، وعلى وجه التخصيص وصفه للقلعة . وبذلك أكون قد أسهمت فى إيضاح أحد الجوانب الهامة لهذا الكتاب ، وأسهمت أيضاً بالمشاركة بجهود متواضع بجانب الجهد الكبير الذى قام به المستشرق الفرنسى كازانوف *Casanova* فى دراسته للقلعة .

وسبق أن قلت : إن كازانوف عرف قيمة وصف القلقةشندى للقلعة بعد أن أخضعه للدراسة المقارنة الدقيقة ، ولذلك وضعه فى مكان الصدارة من النصوص التى اعتمد عليها فى دراسته التاريخية الوصفية للقلعة : (٣) غير أن منهج البحث والخطوة التى وضعها لنفسه ليسير فى دراسته للقلعة منذ بنائها على يد صلاح الدين حتى عهد الخديوى اسماعيل ، جعلته لا يتطرق إلى عدد من المسائل الفرعية التى لا تمس موضوع بحثه إلا بقدر محدود . ومن هذه المسائل الفرعية القضية التى نحن بصدددها ، وهى الأسباب التى أدت إلى إبراز قيمة وصف القلقةشندى للقلعة . من حيث الأمانة فى النقل ، والأصالة والدقة بالنسبة للجديد الذى أضافه إلى ما نقله عن غيره .

(١) انظر كازانوف : المرجع السابق (الأصل الفرنسى) ، الجزء الثانى ، الفصل السادس عشر (وصف عام للقلعة منذ عام ١٧٩٨ حتى نهاية القرن التاسع عشر) ، ملحق (ولاية القلعة فى عصر سلاطين المماليك) .
(٢) انظر :

حليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف المالك وبيان الطرق والمساكن ، ص ٦٢ - ٦٥ ، ص ٩٦ - ٩٩ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٣) انظر كازانوف : المرجع السابق (الأصل الفرنسى) ، الجزء الأول ، الفصل السابع (منشآت الملك الكامل) ، الفصل التاسع (منشآت محمد بن قلاوون) ، الجزء الثانى ، الفصل الثالث عشر (القلعة زمن القلقشندى والمريزى) .

وثائق القلقشندى فى "صبح الأعشى"

بقلم: الدكتور عبد القادر أحمد طليحات

١ - تعتبر الرسائل الديوانية الصادرة عن دواوين الإنشاء في حكومات الدول الإسلامية -والتي نسميها «وثائق» من أهم المصادر التاريخية ، فهي تقع في المرتبة الثانية من حيث توثيق الخبر ؛ أعنى أن الخبر الخبرى الذى يورده المؤرخ في كتابه ؛ يؤخذ مأخذ الترجيح لا التعيين ، والخبر الذى يرد في الرسائل الديوانية يعتبر أساساً للتعين أو اليقين ، أما ما كان أثراً من الآثار فيعتبر تعييناً يقينياً ، فالرسالة الديوانية أو الوثيقة ، إذا ما صح صدورها من ديوان الإنشاء ، يمكن أن تعتبر الحكم الفصل في صحة خبر المؤرخ من عدمه .

فهناك أخبار عند المؤرخين ، يقف منها الدارس أو الباحث الحديث موقف المشكك ، ولا يستطيع الفصل فيها لغرابيتها بحسب نظريته للأمر ولكن هذا الشك يزول - إما سلباً أو إيجاباً - إذا ما عثر على وثيقة تؤيد الخبر أو تنفيه ، ومن أمثلة الأخبار التي نعينها ، خبر ذكره سبط ابن الجوزى في كتابه «مرآة الزمان» عن الملك الأيوبي يوسف بن ممدود ابن الملك العادل المعروف بالحواد ، لما تقلبت به الأحوال بسبب خلافه مع أبناء أسرته ، قصد الصليبيين وأقام معهم ، وحضر معهم غزوهم «قلنسوة» وأنهم قتلوا ألفاً من أهلها المسلمين وهو لا يحرك ساكناً . وليس من شك في أن هذا الخبر يستدعى الوقوف عنده والشك في صحته ، ولكن هناك رسالة أوردها القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» أرسلها الملك الحوادر نفسه إلى أمير صليبي يقال له «فرانك» (وهو فردريك الثاني ملك بيت المقدس ، كما سنرى فيما بعد) ، وهي رسالة ودية ، ردأ على رسالة وصلته منه لم يذكرها القلقشندي ولا غيره . بل أكثر من هذا

فإن الخاتمة التي ختم بها الملك الجواد الرسالة ، تبين أن غيره من الأيوبيين أيضاً كانوا على علاقة ودية بالصلبيين ؛ وأن المكاتبات الودية كانت تتبادل بينهم ، ومنهم الملك الكامل ؛ حيث يختم الملك الجواد رسالته إلى « فرانك » بقوله « فأما ما ذكره المقام العالى السلطاني ، الملكى ، الكاملى الناصرى زاده الله شرفا وعلاوا — من أنه لافرق بين المملكتين ، فهذا هو المعتقد فى صدق عهده ، وخالص وده » . وهذه الرسالة تعنى ، أن العلاقة بين معظم أعيان الملوك الأيوبيين ، وأعيان الملوك الصليبيين ، لم تكن كلها علاقة عداء وحروب فحسب ، وإنما كان إلى جانبها علاقة ود ، تثبتها مكاتبات ودية تتبادل بينهم .

والرسائل الديوانية كثيرا ما تغير مفهوم الدارس الحديث للأحداث فى ضوء أخبار المؤرخ . أو فى ضوء رسائل ديوانية أخرى . من ذلك الصورة المرسومة فى الأذهان ، بأن سياسة صلاح الدين الأيوبي مع الصليبيين كانت سياسة عداء بحث ، وكانت بالتالى سياسة خصومة وجفاء ، وبخاصة مع الحكام منهم ، ولكن الرسالة التي أرسلها صلاح الدين إلى « بلطون » الخامس — ملك بيت المقدس — يعزیه فيها بوفاة والده ، ويهنته باستخلافه على مملكة بيت المقدس بعده ، وغبطة صلاح الدين باستخلافه وتمنياته الطيبة له بالتوفيق ، تغير معالم هذه الصورة تغييرا تاما ، وتكشف عن وجود أصول للعلاقات الدبلوماسية ، شبيهة بالعلاقات الدبلوماسية الحديثة .

كذلك الرسالة التي أرسلها الملك الأيوبي المعروف بالجواد . إلى « فرانك » ملك بيت المقدس ؛ توقفنا على سياسة الأيوبيين — بعد وفاة صلاح الدين — مع الصليبيين ، وهى نفس السياسة الودية التي اتبعها صلاح الدين . وفى ضوء مثل هذه الرسائل يمكن الكتابة عن الحروب الصليبية ، كتابة تختلف كل الاختلاف عن الكتابة التي تعتمد على الأخبار الخبرية وحدها . (وسنعرض هاتين الرسالتين بعد قليل) فالرسائل الديوانية ، من الرسائل التي لا يستغنى عن الانتفاع بها

دارس التاريخ ، بل هي من المصادر الأولى الضرورية للباحث أو الدارس لكي يستوفى عن طريقها بحثه ، ويكون (بحثه) موضع التقدير والثقة ، والواقع ، أنه قد آن لدارسى التاريخ الإسلامى ، أن يجدوا فى دراساتهم ، بأن يولوا علم الوثائق أهمية خاصة ، باعتباره عمادا من أعمدة البناء التاريخى ، وباعتباره الوسيلة المؤدية إلى اليقين فى الحكم على الأخبار وروايات الإخباريين .

٢ - وقد أشبع القلقشندى كتابه بالمكاتبات الديوانية التى يمكن الاستفادة منها فى الأبحاث التاريخية على طول التاريخ الإسلامى منذ ظهور النبى - عليه الصلاة والسلام - حتى عصر القلقشندى ، فقد تضمن كتاب « صبح الأعشى » الكتب المتبادلة بين النبى وحكام عصره فى فارس وبزنطة ومصر ، وبينه وبين الرعماء العرب فى الجزيرة العربية ، وكذلك المكاتبات الصادرة عن حكومات الخلفاء الراشدين ، والأمويين ، [والعباسيين ، واليوبيين ، والسلاجقة ، والطولونيين ، والإخشيديين ، والفاطميين ، والأيوبيين ، والسلاطين المماليك فى مصر والشام ، وكذلك المكاتبات الصادرة عن حكومات المغرب والأندلس .

والمكاتبات الصادرة عن دواوين الإنشاء التى تضمنها كتاب القلقشندى متنوعة الموضوعات ، مثل :

- عهود وتقاليد ومراسم وتوقيعات بتعيين موظفين عسكريين وإداريين وقضائيين .

- عقود صلح ومهادنات بين الحكام المسلمين وأعدائهم (كالروم ، والصليبيين ، والأسبان النصارى) .

- رسائل ودية متبادلة بين الحكام المسلمين وبعضهم بعضا ، (مثل الكتابين المتبادلين بين صاحب « فاس » والسلطان الناصر محمد بن قلاوون) .

- رسائل ودية متبادلة بين الحكام المسلمين والحكام غير المسلمين المجاورين لهم (مثل الكتابين المتبادلين بين القائد أبو الفوارس ختور التركى وبين ملك الروم « وردس بن قنبر » المعروف بعسقاروس .

— إجازات بالتدريس ، والإفتاء ، ورسائل تهاى وتعازى ،
وتقاريط على الكتب ، والإقطاع ، والنيابة عن السلطنة . وهذه
المكاتب لها أهميتها القصوى للباحثين المحدثين — كل فى اختصاصه ،
حيث يمكنه جمع مادة ومعلومات لموضوعه ، موثوق بها .

٣ — وقد يعتقد البعض ، أن القلقشندى اهتم بجمع هذه المكاتب
فى كتابه لأهميتها التاريخية ، أو لىستفيد منها الناس من الناحية الخيرية ،
والحقيقة أن الأمر لم يكن كذلك ، وإنما كان اهتمام القلقشندى
بجمعها لكى يستفيد منها كتاب عصره فى ديوان الإنشاء وكتاب
الأجيال التالية من ناحية صناعة الإنشاء ، فهى إذن نماذج لأساليب
الكتابة الديوانية يقدمها للكتاب الذين تقصر أقلامهم عن الأساليب
التقليدية للكتابة الإنشائية البلاغية ، وعن أصول إنشاء مثل هذه
الرسائل ، ويبين غرض القلقشندى هذا بوضوح فى أكثر من
مناسبة :

— فهو يذكر فى مقدمة كتابه الغرض من تأليفه بصفة عامة
فيقول : إنه لما عين فى ديوان الإنشاء أنشأ مقامة بناها « على
أنه لابد للانسان من حرفة يتعلق بها ، ومعيشة يتمسك بسببها ،
وأن الكتابة هى الصناعة التى لا يلقى بطالب للعلم من المكاسب سواها ... »
وأنه جنح فى المقامة « إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها . . . »
ونبه فيها « على ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ، وما ينبغى
أن يسلكه من الجواد » وضمنها « من أصول الصنعة ما أربت على
المطولات وزادت ، وأودعها من قوانين الكتابة ما استولت به على
جميع مقاصدها أو كادت » ثم أشار عليه بعضهم أن يسطر ما جاء
فى المقامة ، فشرع فى ذلك ، وألف كتاب « صبح الأعشى » .

— وينقد بعض الرسائل ويبدى عدم رضائه عنها لأسباب مختلفة ،
مثل تعليقه على « توقيع بتصدير الجوامع الأموى » فيقول

« وهى من تلفيق كتاب الزمان ، على أنها بالمدرس أليق منها بالمصدر » (١) .

— ويعلق على « توقيع بتدريس المدرسة الخاتونية البرانية الحنفية بدمشق ، كتب به للشيخ « صدر الدين على بن آدمى » بقوله : « كأنه رأى التوقيع فى الأصل ، لمن لقيه « بدر الدين » لأن « البلر » المناسب لهذا الافتتاح ، فنقله بعض جهلة الكتاب إلى « صدر الدين » كما تراه » (٢) .

— ويعلق على نسخة « أمان » بقوله : « قلت : وهذا الأمان ، أوله ملفق من كلام « التعريف » (٣) وغيره ، وآخره كلام صوقى مبتذل نازل ، ليس فيه شيء من صناعة الكلام » (٤) فيلاحظ على هذه التعليقات ، أن القلقشندى اهتم من المكاتبات بالأسلوب والعرض فقط ، فهو فى المثال الأول : يحذر الكاتب من الخلط — عند كتابة التوقيع — بين « التصدير » و « التدريس » ويفيه إلى وجوب معرفة الفرق بينهما حتى لا يخطئ فى إنشائه . وفى المثال الثانى : ينبه الكاتب إلى وجوب مراعاة افتتاح التوقيع بما يطابق لقب الموقع إليه ؛ لأن لكل لقب افتتاحية خاصة تناسبه (٥) . وفى المثال الثالث : يقدم أسلوباً مبتذلاً كنموذج لبتجنبه الكاتب .

— كذلك يصرح القلقشندى فى كثير من الرسائل ، بأنه دونها لتكون نموذجاً ينجح الكاتب على نهجه ، مثال ذلك ، قوله : إن التقاليد والتفاويض والتواقيع وغيرها ، الصادرة عن ديوان الإنشاء فى مصر — والتى ذكرها !

(١) : ح/١٢/ص/٢٥٧ .

(٢) : ح/١٢/ص/٣٦٨ .

(٣) : يقصد كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » لابن فضل الله العمري .

(٤) : ح/١٢/ص/٣٤٩ .

(٥) : مثال ذلك ، أن من لقيه « بدر الدين » يفتتح توقيمه هكذا : « أما بعد

حمد الله الذى اطلع « بدر الدين » مشرقاً فى منازل السمود .. » (ح/١٢/ص/٣٦٧) .

ومن لقيه « شرف الدين » يفتتح توقيمه ، هكذا : « أما بعد حمد الله الذى قسم للمناير .

« شرفاً » يتجدد .. » (ح/١٢/ص/٣٧٠) .

في كتابه — « ليس هو على سبيل الاستيعاب ، بل على سبيل التمثيل والتذكير لينسج على منواله ، وينجح على نهجه » (١) .

— ويعلق على منشور أعجبه كتب به عن الملك المنصور قلاوون لابنه الناصر محمد بقوله : « كما أن هذا المنشور منشور سلطان ، فهو في البلاغة لحسن إنشائه سلطان المناشير » . (٢)

— ويعلق على نص هذقة لم يعجبه أسلوبها بقوله : أنه أثبتنا ، « ليستمد منها الكاتب ما لعله لا يحضر بباله من مقاصد المهادنات » (٣) .

٤ — كذلك لم يكن غرض القلقشندي أن يجعل كتابه سجلا للمكاتبات التي صدرت عن الحكومات الإسلامية أو التي وردت إليها ، ودليل هذا ، أنه يذكر أنه اطلع على كتاب صدر عن الخليفة المكلف بالله « عندما بعث محمد بن سليمان الكاتب إلى الديار المصرية فانتزعها من يد بني طولون واستولى عليها للخليفة ، في نحو كراسة ، تاريخها سنة ثمان وستين ومائتين » . ثم يقول : (أضربت عن ذكرها لظولها) . (٤)

— ويعلق على المكاتبات — التي ذكرها — التي صدرت عن الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية ، والممالك الشامية ، لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم ، من : التقاليد ، والتفاويض ، والتواقيع ، والمراسيم — المكبرة والمصغرة « ليس هو على سبيل الاستيعاب ، بل على سبيل التمثيل والتذكير ، لينسج على منواله ، وينجح على نهجه » (٥) . فمن هذه الأمثلة التي ذكرناها — وغيرها كثير — يتبين أن غرض القلقشندي بإيراده نصوص المكاتبات في كتابه هو لتقديمها كنماذج لتعليم صناعة كتابة الرسائل إلى جانب الأدوات

• (١) : ج/١٢/ص/٢٧٩ .

• (٢) : ج/١٣/ص/١٦٩ .

• (٣) : ج/١٤/ص/٦٣ .

• (٤) : ج/٨/ص/٢٩٠ .

• (٥) : ج/١٢/ص/٢٧٩ .

الأخرى ، وهذه الأداة هي الناحية الإنشائية وما يتطلبها من جودة الإنشاء ، وبلاغة الأسلوب ، وسلامة التعبير وتكييفه بحسب مقام المرسل إليه أو بحسب المناسبة ، ووضوح الفكرة ، وحسن العرض ، وترتيب النقاط .

هـ - ولكن كيفما كان الغرض الذى من أجله أورد القلقشندى الرسائل بأنواعها فى كتابه فلإنها هامة جداً ، لأكثر من سبب :

- فقد تبين أن من ضمن رسائله رسائل نادرة فقدت أصولها ، فلا توجد إلا فى كتابه ، منها : الرسالة التى وجهها الملك الأبوي (الحواد) إلى (فرانك) ملك بيت المقدس ، والتى أشرنا إليها من قبل ، فإن العثور على نصها فى غير صبح الأعشى أمر مستحيل ، وخاصة أن القلقشندى لم يذكر مصدره الذى نقلها منه (وسوف نذكر نص الرسالة فى بحثنا هذا) . ومن الرسائل النادرة أيضاً : الرسائلتان المتبادلتان بين أبي الحسن على بن عثمان بن يوسف بن يعقوب المربى ، صاحب (فاس) وبين سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون ، ولم يذكر القلقشندى مصدره الذى نقلهما منه ، وقد حاولنا العثور على المظان التى يحتمل أنها ذكرتهما ، حتى علمنا من السيد أمين عبد المجيد أن القلقشندى ينفرد وحده بهما (١) ، فتعدئذ أوقفنا البحث اعتماداً على قوله ،

- يمكن ضبط الرسائل الموجودة فى المصادر المختلفة على مثيلاتها التى فى «صبح الأعشى» من حيث اللفظ ، أو النقص ، أو تحديد تاريخ الرسالة ، والعكس بالعكس بالنسبة لرسائل القلقشندى وقد أجرينا نحن مقابلة على رسالتين وردتا فى «صبح الأعشى» على مثيلتهما فى مصادر أخرى ، وتبين من المقابلة اختلاف فى بعض الألفاظ ، كذلك وجدنا نقصاً فى رسالتى القلقشندى ، فلما إحداهما ، فهى الرسالة الصادرة عن محمد بن طغج الإخشيد إلى إمبراطور الروم ،

(١) يقوم السيد أمين عبد المجيد بإعداد موضوع عن بنى مرين بالقرب الأقصى للحصول على درجة الماجستير فى التاريخ .

وأما الأخرى فهي الرسالة التي كتبها محيي الدين بن عبد الظاهر إلى
الصاحب بهاء الدين ابن حنا وزير الملك الظاهر بيبرس :

٦ - ونحن بسبيل عرض أربع رسائل من رسائل القلقشندي
الهامة ، والتي تعتبر نادرة ؛ لأنه يتفرد بها .

فأما الرسالة الأولى ، فهي الرسالة الودية ، التي أرسلها صلاح
الدين الأيوبي إلى « بردويل » ملك بيت المقدس يعزیه فيها بوالده ،
ويشته بالملك بعده (ولم يذكر القلقشندي تاريخها) : « بردويل »
هو « بلدوين الخامس » الذي خلف أباه « بلدوين الرابع » على ملك
بيت المقدس سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) وقد تحقق لنا هذا التاريخ من
وجهين :

الوجه الأول : أن « بلدوين الرابع » ملك بيت المقدس بعد وفاة
« عموري » سنة ٥٧٠ هـ ، وكان صلاح الدين لم يكن قد مكن لنفسه
بعد في الشام ، ثم إن بلدوين الرابع لم يكن ابناً لعموري : ثم لما توفي
« بلدوين الرابع » سنة ٥٨١ هـ خلفه ابنه بلدوين الخامس على بيت المقدس .
والوجه الآخر : أن الرسالة أرسلها صلاح الدين إلى ملك بيت
المقدس قبل أن يستولى - صلاح الدين - على بيت المقدس في
سنة ٥٨٣ هـ .

وأهمية هذه الرسالة ، ترجع إلى أنها أوقفتنا على سياسة صلاح الدين
مع الصليبيين والتي لم ترد عند أي مؤرخ آخر ، ولا حتى عند المؤرخين
المعاصرين لصلاح الدين كابن الأثير ، والعماد الكاتب ، وابن شداد
وهي سياسة التودد إلى الصليبيين عندما يكون مشغولاً بغيرهم ،
ففي الفترة ما بين سنة ٥٧٠ هـ وسنة ٥٨١ هـ كان صلاح الدين مشغولاً بحروبه
مع « بني زنكي » للاستيلاء على دولتهم في الشام والجزيرة ، فأخذ يتودد
إلى الصليبيين حتى نال بغيته من الزنكيين ، ثم اتجه بعد ذلك إلى
الصليبيين يقاتلهم . والرسالة ؛ وإن كانت موجهة إلى « بلدوين
الخامس » إلا أنه يفهم من مضمونها - كما سنرى - أنها نصها - أن الرسائل

كانت متبادلة بين صلاح الدين وبين « بلدوين الرابع » أيضاً الذى يصفه صلاح الدين بـ « الصديق » ، ويتأسف « لفقده الذى عظمت به الأرزاء » . وهذا هو نص الرسالة التى يقول القلقشندى : إنها من إنشاء القاضى الفاضل (وكان رئيس ديوان إنشاء صلاح الدين) وقد مهد القلقشندى الرسالة بقوله :

« كتب القاضى الفاضل عن السلطان « صلاح الدين يوسف بن أيوب » إلى « برديول » أحد ملوك الفرنج ، وهو يومئذ مستول على بيت المقدس وما معه ، معزياً له فى أبيه ، ومهنئاً له بمجلوسه فى الملك بعده ، ماصورته :

« أما بعد — خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد ، والسعد الساعد ، والحظ الزائد ، والتوفيق الوارد ، وهنأه من ملك قومه ماورثه ، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهر وأحدثه ، فإن كتابنا صادر إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق ، والنعمى الذى وددنا أن قائله غير صادق ، بالملك العادل الأعز الذى لقاه الله خير ما لقى مثله ، وبلغ الأرض سعادته كما بلغه محله ، معزاً بما يجب فيه العزاء ، ومتأسف لفقده الذى عظمت به الأرزاء ، إلا أن الله سبحانه قد هون الحادث بأن جعل ولده الوارث ، وأنسى المصائب ، بأن حفظ به النصاب ، ووهبه النعمتين : الملك والشباب ، فهنيئاً له ما حاز ، وسقياً لقبر والده الذى حتى له الفداء لوجاز ، ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين أدام الله سلامته قائم عنا بإقامة العزاء من لسانه ، ووصف ما نالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلومكانه ، وكيف لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه . وقد استفتحنا الملك بكتابنا وارتبادنا ، وودنا الذى هو ميراثه عن والده من وادنا ، فليلق التحية بمثلها وليأت الحسنة ليكون من أهلها ، وليعلم أننا له كما كنا لأبيه : مودة صافية ، وعقيدة وافية ، ومحبة ثبت عقدها فى الحياة والوفاة وسريرة حكمت فى الدنيا بالموافاة ، مع مافى الدين من المخالفات : فليسترسل إلينا استرسال الواثق الذى لا ينجل ، وليعتمد علينا

اعتماد الولد الذى لا يحمل عن والده ما تحمّل ، والله يديم تعميره ، ويحرم
تأميره ، ويقضى له بموافقة التوفيق ، ويلهمه تصديق ظن الصديق (١) :

وأما الرسالة الثانية : فهي رسالة الملك « الجواد » الأيوبي ،
إلى « فرانك » ولحسن الحظ ، أن القلقشندى ذكر تاريخها ، وهو
شهر شعبان سنة ٦٣٠ هـ . و « فرانك » هذا ، هو « فردريك الثانى »
الذى تنازل له الملك الكامل الأيوبي عن عدة بلاد ، ومنها بيت
المقدس ، وذلك بموجب معاهدة الصلح التى عقدت بينهما فى
(٦٢٦ هـ) ١٨ فبراير ١٢٢٩ م وبذلك أصبح « فردريك » ملكاً
على بيت المقدس (٢) .

وفهم من مضمون الرسالة ، أنها رد على رسالة أرسلها « فرانك »
إلى الملك « الجواد » ، كما يفهم من مضمونها أيضاً ، أن المكاتب كانت
جارية بين « فرانك » وبين الملك الكامل ، ومعنى هذا ، أنه برغم
العداء الشديد بين الخصوم الألداء : المسلمين والصليبيين ، فإن العلاقات
الدبلوماسية بين ملوكهم ، كان لها نصيب كبير فى سياستهم ،
وكأنت أداة المخاطبة بينهم هو الأسلوب المهذب الرفيع ، الذى
يرتفع عن المهارات ، ويتنزه عن الإسفاف ، كما يتبين من نص
الرسالة . وقد مهد القلقشندى للرسالة بقوله :

« كتب بعض كتاب الدولة الأيوبية عن الملك « الجواد » —
أحد ملوكهم — فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر ،
جواب كتاب ورد عليه من « فرانك » — أحد ملوك الفرنج —
فى شعبان سنة ثلاثين وستمئة :

« وردت المكاتب الكريمة ، الصادرة عن المجلس العالى ، المولى
الملك ، الأجل ، الأعز ، الكبير ، المؤيد ، الخطير ، العالم العامل ،

(١) : ح / ٧ / ص / ١١٥ .

(٢) باركو : الحروب الصليبية ، ص / ١٤٥ (ترجمة الدكتور الباز العرينى) .
بن الأمير : الكامل فى التاريخ ، ح / ٩ / ص / ٢٧٨ .

الظهير ، العادل ، الأوحـد ، المجتـبى ، شمس الملة النصرانية ،
جلال الطائفة الصليبية ، عضد الأمة الفرنجية ، فخر أبناء المعمودية
عمدة الممالك ، ضابط العساكر المسيحية ، قيصـر المعظم (فلان) معز
إمام رومية ، ثبت الله لديه نعمه ، وعزز موارد جوده وديـمـة ،
وأضـى صوارم عزائمـه وأعلى هممه ، ولابرحت أنوار سعده تتلالا ،
وأخبار مجده تبسط وتعالى ، وسحاب الألسنة الناطقة بحمده تسهل
وتتوالى ، إلى أن يتحلى جيد الضحى بعقود الليل ، وتطلع الشعـرى من
مطالع سهيل — فجدد الثناء على جلاله ، وأكد المديح لإحسانه وإفضاله
وأنفـس أسباب المودة والخصافة ؛ وشدّد أواخى الإخلاص والموافاة
فاستبشرت النفوس بوروده ، وسرت القلوب بوفوده ، ووقف منه
على الإحسان الذى نعرفه ؛ ووجد عقله مشتملا على جواهر الوداد
الذى نألفه ، فشكر الله على هذه الألفة المنتظمة ، والمحبة الصادقة
المكرمة ، والمجلس العالى ، الملك الأجل أعلى الله قلـره ، ونشر
بانخـير ذكره ، أولى من أهدى المسرات ، بورود المراسم والحاجات
ووصل الأنس بكريم المكاتبات ، مضمـنة السوانح والمهمات .

« فأما ما ذكره المقام العالى السلطانى الملكى الكاملى الناصرى — زاده
الله شرفا وعلا — من أنه لافرق بين المملكتين ، فهذا هو المعتقد فى
صدق عهده ، وخالص وده ، ولازال ملكه عاليا ، وشرفه ناميا
إن شاء الله تعالى » (١) .

وأما الرسلتان الأخريان النادرتان ، وهما : رسالة أبى الحسن على
المرينى ، ورد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عليها ؛ فإنهما طويلتان
جدا ، ولذلك تقتصر على ذكر مضمونهما وأهميتهما .

فأما رسالة أبى الحسن على ؛ فإنها تطلعنا على تقليد جرى عليه ولاية
الأمر فى الأقطار الإسلامية ، وهو أن يقرن الود بتبادل الأخبار الجارية
فى أقطارهما ، ونجد أبا الحسن فى هذه الرسالة يخبر صاحب مصر بجميع

(١) : ج/٧/ص/١١٧ .

أخبار المغرب في فترة من أدق الفترات التي شاهدت الصراع بين بني مرين أصحاب « فاس » وبين بني عبد الواد أصحاب « تلمسان » من ناحية ، ثم بين بني مرين وملوك الأسيان النصارى من ناحية أخرى (١) .

وتطلعنا رسالة محمد بن قلاوون إلى أبي الحسن ، على ما يتبع عادة عندما يقصد بعض أفراد الأسر المالكة في المغرب إلى الحج مارين بمصر ، وقد جرى العرف بالإخبار بالأمر إلى صاحب مصر ، ثم بقيام صاحب مصر ، بفروض الود والمجاملة والاستقبال والتشجيع ، مع تبادل الهدايا في مثل هذه المناسبات . كذلك تطلعنا على إخبار السلطان ، أبا الحسن على ، على الحرب التي أعلنها على صاحب « سيس » الذي خرج عن طاعته ، وامتنع عن دفع الجزية السنوية المقررة عليه ، ومالاقاه السلطان وجيشه من متاعب ومشاق حتى أخضعه وأعادته إلى الطاعة .

وتدل خاتمة رسالة السلطان على حقيقة هامة غير مألوفة : لم ينتبه إليها الدارسون للعصر المملوكي ، وهي أن الممالك جروا على سياسة التوفيق بين المذهب السني والمذهب الشيعي . ولعل ذلك التوفيق كان مقصودا ؛ لأن بني مرين باعتبارهم ورثة الموحدين ، كانوا يعطفون على الشيعة ، بينما كان قلاوون وأهل بيته سنيين ، فاقترضت المجاملة من السلطان أن يشير إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، وإلى علي بن أبي طالب ربيبه وزوج ابنته ، منتهزا فرصة تطابق إسمه (أي السلطان) وهو « محمد » على اسم النبي ، وتطابق إسم صاحب فاس وهو « علي » على إسم على رضى الله عنه ، فختم الناصر دعاءه — في ختام رسالته — « ... ويدع على الإسلام مزيد العز الذي يتجدد كل آونة ، من طلائع رايات « محمد » وبدائع آراء « علي » ، بمنه وكرمه » (٢) .

٧ — وقد أجرينا مقابلة رسالتين ذكرهما التلقشندي ، على مثيلتهما ذكرتهما مصادر أخرى ، والغرض من هذه المقابلة ، هو التنبيه إلى عدم

(١) : ج ٨ / ص ٨٧ .

(٢) : ج ٧ / ص ٣٩٥ .

الإعتماد على نصوص القلقشندي وحسده ، حيث تبين أن فيها اختلافات وتقص وزيادة بالنسبة لمثيلاتها في المصادر الأخرى ، كذلك ضرورة ضبط الرسائل — لفظاً وموضوعاً — الموجودة في المصادر على رسائل القلقشندي .

فأما الرسالة الأولى : فهي الرسالة التي أرسلها محمد بن طنج الأخشيد إلى أميراطور الروم « أرمانوس ردا على رسالة أرسلها إليه الإمبراطور (١) . ويفهم من رسالة الأخشيد ، أن رسالة إمبراطور الروم إليه ، كانت عن اقتراح تقدم به بتبادل الأسرى بين الطرفين ، ويطلب كذلك من الاخشيد أن ييسر مهمة التجار الروم الذين يقدمون إلى مصر للتجارة . وواضح أيضاً من رد الأخشيد : أن الإمبراطور كان يعتبر نفسه أعلى مكانة من الأخشيد ، وأنه — لهذا — يتفضل عليه بالمكاتبة ، مما حمل الأخشيد إلى الإطالة في رده على الإمبراطور ، فعدد له البلاد التي تحت حكمه : مؤكداً له أنه لا يقل عنه مكانة .

وقد وجدنا نصاً آخر للرسالة في الجزء الأول من القسم الخاص بعصر من كتاب « المغرب في حلى المغرب » (٢) . وقد قابلنا نص القلقشندي على هذا النص . وخرجنا من المقابلة بين النصين بملاحظتين :

الملاحظة الأولى : وجود اختلافات لفظية كثيرة بين النصين ، بعضها أصح وأضبط في نص القلقشندي ، وبعضها الآخر أصح وأضبط في نص كتاب « المغرب » .

الملاحظة الأخرى : وجود نقص في نص القلقشندي : وقد أشرنا إليه وإلى الاختلافات اللفظية في الهامش . والجدير بالملاحظة أن القلقشندي نقل نص الرسالة التي ذكرها من كتاب « المغرب »

(١) لم يذكر القلقشندي رسالة «الإمبراطور» إلى الاخشيد ، كذلك لم نجدها في

مصادر أخرى .

(٢) الكتاب منسوب لابن سميذ الأندلسي وحله ، بينما الواقع أن مؤلفي الكتاب

سنة مؤرخين . وقد حقق الجزء الأول من القسم الخاص بمصر من الكتاب الدكتور

زكي محمد حسن وآخرون . (مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ م) .

كما صرح هو بذلك ، ومع ذلك وجدت الاختلافات اللفظية الكثيرة بين النصين ، كذلك وجد النقص في نص القلقشندي ، وسبب هذا — بطبيعة الحال — هو تصرف النساخ عند النقل من نسخة المؤلف ، أو من النسخ التي نسخت عنها ، فاطلع القلقشندي على مخطوط من الكتاب غير المخطوط الذي اعتمده محققو الكتاب للنشر .

ولم يذكر القلقشندي تاريخ رسالة الإخشيد ، غير أنه يمكن تحديده من كتاب « المغرب » سنة ٣٢٤ هـ أو سنة ٣٢٥ ، حيث يذكر المؤلف — بعد ذكره نص الرسالة — الخبر التالي : « وفي هذه السنة — وهي سنة خمس وعشرين (وثلاثمائة) ، جهز الإخشيد المراكب الحربية للمسير إلى الثغور للفداء الذي كوتب فيه ، وشحنها بنصاري الروم ممن أهدى إليه ومن اشتراه ، وأنفذ الثياب والطيب والطعام لمن يحصل في الفداء من المسلمين » (١) . ويلاحظ أن الإخشيد تولى على مصر في سنة ٣٢٣ أو سنة ٣٢٤ ، على اختلاف بين المؤرخين :

وقد اعتمدنا نص القلقشندي للنشر ، وأشرنا إلى الاختلافات اللفظية وإلى النقص في الهوامش .

وقد مهد القلقشندي للرسالة بقوله (٢) : « ومما كتب الإخشيد محمد بن طفج صاحب الديار المصرية وماعها من البلاد الشامية ، والأعمال الحجازية ، إلى « أرمانوس » — ملك الروم — وقد أرسل أرمانوس إليه كتابا يذكر من جملة بأنه كاتبه وإن لم تكن عادته أن يكتب إلا الخليفة ، فأمر بكتابة جوابه فكتب له الكتاب عدة أجوبة ورفعوا نسخا إليه ، فلم يرتضى منها إلا ما كتبه إبراهيم بن عبد الله النجيري ، وكان عالما بوجوه الكتابة ، ونسخته — على ما ذكره ابن سعيد في كتاب « المغرب في أخبار المغرب » :

(١) المغرب ، ص/١٧٣ (ونص الرسالة ، ص/١٦٧ - ١٧٢) .

(٢) ح/٧/ص/٨٠ .

« من محمد بن طفج مولى أمير المؤمنين إلى أرماتوس (١) عظيم الزوم ومن يليه .

« سلام بقدر ما أنتم له مستحقون ، فإننا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

« أما بعد ، فقد تُرجم لنا كتابك الوارد مع « نقولا » و « إسحاق » رسوليك ، فوجدناه مفتتحا بذكر فضيلة الرحمة ، وما نُسمى (٢) عنا إليك ، وصح من شيمنا فيها لديك (٣) ، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة فى رعايانا ، وما وصلت به هذا القول من ذكر الفداء والتوصل إلى تخليص الأسرى ، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه (٤) .

« فأما ما أطنبت فيه من فضيلة الرحمة فمن سديد القول ، الذى يليق بنوى الفضل والنيل ، ونحن بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارفون ، وإليه راغبون ، وعليه باعثون ، وفيه بتوفيق الله إيانا مجتهدون وبه متواصلون وعاملون ، وإياه نسأل التوفيق لمراشد الأمور وجوامع المصالح بمته وقلوته .

« وأما ما نسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة ، فانا نرغب إلى الله — جل وعلا — الذى تفرد بكمال هذه الفضيلة ، ووهبها لأوليائه ثم أثابهم عليها ، أن يوفقنا لها ، ويجعلنا من أهلها ، ويسرنا (٥) للاجتهاد فيها ، والاعتصام من زيغ الهوى عنها ، وعرة (٦) القسوة بها ، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفا على طاعته ،

(١) فى « المغرب » (ص/١٦٧) : « أرماتوس » . وقد جاء الاسم فى الخبر نفسه « أرماتوس » حيث يقول الخبر : « وورد الى الاخشيذ كتاب « أرماتوس » عظيم النصرانية » .

(٢) : نسمى : فى المغرب : نَمَا

(٣) لديك : فى المغرب : اليك

(٤) : وتفهمناه : فى المغرب : وفهمناه .

(٥) ويسرنا : فى المغرب : ويسيرنا

(٦) وعرة : فى المغرب : وعزة . (وما فى الصحيح أصيب) والمراد : مرة .

وموجبات مرضاته ، حتى نكون أهلاً ما وصفتنا به ، وأحق حقاً بما دعوتنا إليه ، ومن (١) يستحق الزلفى من الله تعالى ، فلنا فقراء إلى رحمته . وحق لمن أنزله الله بحيث أنزلنا ، وحمله من جسيم الأمر ما حملنا ، وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا بمولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، أن يبتهل إلى الله تعالى في معونته لذلك وتوفيقه وإرشاده (٢) ، فان ذلك إليه وبيده : (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

« وأما ما وصفته من ارتفاع محللك عن مرتبة من هو دون الخليفة في المكاتب لما يقتضيه عظم ملككم ، وأنه الملك القديم الموهوب من الله ، الباقي على الدهر وأنتك إنما خصصتنا بالمكاتب لما تحققته من حالنا عندك ، فإن ذلك لو كان حقاً وكانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن منزلة من تكاتبه ، وكان لك في ترك مكاتبتنا غم ورشد ، لكان من الأمر البين أن أحظى وأرشد ، وأولى بمن حل محللك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته ، ولا يراه (٣) وصمة ولا نقيصة ولا عيباً ، ولا يقع في معاناة صغيرة من الأمور تعقبها كبيرة ، فإن السائس الفاضل قد يركب الأخطار ، ويخوض الغمار ، ويعرض مهجته ، فيما ينفع رعيته ، والذي تجشمته من مكاتبتنا إن كان كما وصفته فهو أمر سهل يسير ، لأمر عظيم خطير ، وجل نفعه وصلاحه وعائدته تخصكم ، لأن مذهبنا انتظر إحدى الحسنين ، فمن كان منا في أيديكم فهو على بينة من ربه ، وعزيمة صادقة من أمره ، وبصيرة فيما هو بسبيله . وإن في الأسارى من يؤثر مكانه (٤) من ضنك الأمر وشدة البأساء على نعم الدنيا وخيرها لحسن منقلبه ، وحميد عاقبته ، ويعلم أن الله تعالى قد أعاده من أن يفتنه ، ولم يعذه من أن يبتليه : هذا إلى أوامر الإنجيل الذي هو إمامكم ،

(١) ومن : في المغرب : ومن .

(٢) وإرشاده : في المغرب : وإرشاده . (وما في الصبح : أصبح) .

(٣) يراه : في المغرب : يرى .

(٤) مكانه : ساقطة في المغرب .

وما توجه عليكم عزائم سياستكم ، والتوصل إلى استنقاذ أسرائكم ، ولولا أن إيضاح القول في الصواب ، أولى بنا من المسامحة في الجواب ، لأضربنا عن ذلك صفحا ، إذ رأينا أن نفس السبب الذي من أجله سما إلى مكاتبة الخلفاء — عليهم السلام — من كاتبهم ، أو علنا عنهم إلى من حل محلنا في دولتهم ، بل إلى من نزل عن مرتبتنا ، هو أنه لم يثق من منعه ، ورد ملتصقه ممن جاوره ، فرأى أن يقصد به الخلفاء الذين الشرف كله في إجابتهم ، ولا عار على أحد وإن جل قدره في ردهم ، ومن وثق في نفسه ممن جاوره ، وجد قصده أسهل السيلين عليه ، وأدناها إلى إرادته ، حسب ما تقدم لها من تقدم . وكذلك كاتب من حل محلك من قصر عن محلنا ، ولم يقرب من منزلتنا ، فمما لكنا عدة ، كان يتقلد في سالف الدهر كل مملكة منها ملك عظيم الشأن :

« فمئنا : ملك مصر الذي أطفى (١) فرعون على خطر أمره ، حتى ادعى الإلهية وافتخر على نبي الله موسى بذلك (٢) .

ومئنا : ممالك اليمن التي كانت للتبابعة ، والأقيال العباهلة : ملوك حمير ، على عظم شأنهم : وكثرة عددهم .

« ومئنا : أجناد الشام التي مئنا (٣) جند حمص ، وكانت دارهم ودار هرقل عظيم الروم ومن قبله من عظمائها .
« ومئنا : جند دمشق على جلالة في القديم والحديث ، واختيار المملوك المتقدمين له .

« ومئنا : جند الأردن على جلالة قلعه ، وأنه دار المسيح — صلى الله عليه وسلم — وغيره من الأنبياء والحواريين .

(١) أطفى : في المغرب : أطفأ .

(٢) بعد هذه الفقرة في «المغرب» مانصه : «ومئنا (ملك) .. للنبي .. الإسكندر ومن خلفه من اليونانيين» . ويعلق محقق كتاب «المغرب» على السقط الذي في النص بقوله : «هنا تمزيق في المخطوطة ، والظاهر — كما يتضح من سياق الكلام — أنه يعني ملك الإسكندر في مصر وملك البطالسة الذين خلفوه فيها ، والذين شيدوا دولة من اعظم وأعنى دول العالم القديم» .

(٣) منها : في المغرب : فيها .

« ومنها : جند فلسطين ، وهى الأرض المقدسة ، وبها المسجد الأقصى ، وكرسى النصرانية ، ومعتقد غيرها ، ومَحَج النصارى واليهود طرا ، ومقد داود وسليمان ومسجدهما : وبها (١) مسجد ابراهيم وقبره وقبر اسحاق ويعقوب ويوسف وإخوته وأزواجهم عليهم السلام ، وبها (٢) مولد المسيح وأمه وقبرها .

« هذا ، إلى ما تنقلده من أمر مكة المخوفة بالآيات الباهرة ، والدلالات الظاهرة ، فلإنا لو لم تنقلد غيرها لكانت بشرفها ، وعظم قدرها ، وما حوت من الفضل توفى على كل مملكة ، لأنها محج آدم ومحج إبراهيم وارثه ومهاجرة ، ومحج سائر الأنبياء ، وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام وداره وقبره ، ومنبت ولده ، ومحج العرب على مر الحقب ، ومحل إشرافها ، وذوى أخطارها ، على عظم شأنهم ، وفخامة أمرهم ، وهو البيت العتيق ، المحرم المحجوج إليه من كل فج عيق ، الذى يعترف بفضله وقدمه أهل الشرف ، من مضى ومن خلف ، وهو البيت المعمور ، وله الفضل المشهور :

« ومنها : مدينة الرسول — صلى الله عليه وسلم — المقدسة بتربته ، وأنها مهبط الوحى ، وبيضة هذا الدين المستقيم الذى امتد ظله على البر والبحر ، والسهل والوعر ، والشرق والغرب ، وصحارى العرب على بعد أطرافها ، وتنازع أقطارها ، وكثرة سكانها فى حاضرتها وباديتها ، وعظمها فى وفودها وشدتها ، وصدق بأسها ونجديتها ، وكبر أحلامها ، وبعد مرامها : وانعقاد النصر من عند الله براياتها وإن الله تعالى أباد خضراء كسرى ، وشرذ قيصر عن داره ومحلل عزه ومجده بطائفة منها . هذا إلى ما تعلمه من أعمالنا ، ونحت أمرنا ونهينا ثلاثة كرامى من أعظم كراميكم : بيت المقدس ، وأنطاكية ، والإسكندرية ؛ مع ما إلينا من البحر وجزائره ، واستظهارنا بأتم العناد

(١) وبها : فى المغرب : ومنها .

(٢) وبها : فى المغرب : ومنها .

وإذا وفيت النظر حقّه علمت أن الله تعالى قد أصفانا بجل الممالك التي
يَنْتَفِعُ الأَنامُ بها ، وبشرف الأرض المخصوصة بالشرف كله دنيا وآخرة ،
وتحققت أن مترلنا بما وهبه الله لنا من ذلك فوق كل مترلة :
والحمد لله ولى كل نعمة .

« وسياستنا لهذه الممالك قريبها وبعيدها على عظمها وسعتها بفضل
الله علينا وإحسانه إلينا ومعونته لنا وتوفيقه إيانا كما كتبت إلينا وضح
عندك من حسن السيرة ، وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من
الأولياء والرعية ويجمعهم (١) على الطاعة واجتماع الكلمة ، ويوسعها
الأمن والدعة في المعيشة ويكسبها المودة والمحبة .

« والحمد لله رب العالمين أولا وآخرأ على نعمه التي تفوت عندنا
عدد (٢) العادين ، وإحصاء المجتهدين ، ونشر الناشرين ، وقول القائلين ،
وشكر الشاكرين ، ونسأله أن يجعلنا ممن تحدث بنعمته عليه شكرا
لها ، ونشرا لما منحه الله منها ومن (٣) رضى اجتهاده في شكرها ومع
أراد الآخرة وسعى لها سعيها ، وكان سعيه مشكورا ، إنه حميد مجيد .
« وما كنت أحب أن أباهيك بشيء من أمر الدين ، ولا أنجاوز
الاستيفاء لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذى كرمه وأظهره ،
ووعدنا في عواقبه الغلبة الظاهرة ، والقدرة القاهرة ، ثم الفوز الأكبر
يوم الدين . لكنك سلكت مسلكا لم يحسن (٤) أن نعدل عنه ،
وقلت قولاً لم يسعنا التقصير في جوابه ، ومع هذا فإننا ، لم نقصد
بما وصفناه من أمرنا مكائرتك ، ولا اعتمدنا تعيين فضل لنا نعوذ (٥)

(١) ويجمعهم : ساقطة في المغرب .

(٢) عدد في المغرب : عه .

(٣) ومن : في المغرب : ومن . (والمعياره ومن رضى اجتهاده في شكرها . ومن
أراد الآخره نقلها مصحح «صبح الأعشى» من المغرب . وقد أشار هو الى ذلك) .

(٤) لم يحسن أن نعدل . في المغرب : لم يجوز لي أن أعدل . (وقد أشار محقق
«صبح الأعشى» في الحاشية الى الاختلاف الذى فى «المغرب» ، ولكنه ذكر عبارة المغرب
بصيغة الجمع ولم يجوز لنا أن نعدل ولعله رجع الى نسخة أخرى غير النسخة المطبوعة التى
نستخدمها نحن) .

(٥) نعوذ : فى المغرب : نعوذ (بالدال المهملة) .

به ، إذ نحن نكرم عن ذلك ، ونرى أن نُكرمك عند محلك ومثرتك ، وما يتصل بها من حسن سياستك ومذهبك في الخير وعطفتك لأهلك ، وإحسانك لمن في يدك من أسرى المسلمين ، وعطفك عليهم ، وتجاوزك في الإحسان إليهم : جميع من تقدمك من سلفك . ومن كان محموداً في أمره ، رغب في محبته : لأن الخير أهمل أن يُحبَّ حيث كان ، فإن كنت إنما تؤهل لمكاتبتك ومماثلتك من اتسعت مملكته ، وعظمت دولته ، وحسنت سيرته ، فهذه ممالك عظيمة ، واسعة جمة ، وهي أجل الممالك التي ينفع بها الأئام ، وسر الأرض المخصوصة بالشرف ، فإن الله قد جمع لنا الشرف كله ، والولاء (١) الذي جعل لنا من مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مخصصين بذلك إلى مالنا بقديمتنا وحديثنا ووقعنا . والحمد لله رب العالمين الذي جمع لنا ذلك بمنه وإحسانه ، ومنه نرجو حسن السعي فيها يرضيه بلفظه ، ولم ينطو عنك أمرنا فيما اعتمدناه .

« وإن كنت تجرى في المكاتبه على رسم من تقدمك فإنك لو رجعت إلى ديوان بلدك ، وجدت من كان تقدمك قد كاتب من قبلكنا (٢) من لم يحل محلنا ، ولا أغنى غنائنا ، ولا ساس في الأمور سياستنا ، ولا قلده مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ما قللنا ، ولا فوض إليه ما فوض إلينا ، وقد كوتب أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، وآخر من كوتب « تكن » مولى أمير المؤمنين ولم يكن تقلد سوى مصر وأعمالها .

ونحن نحمد الله كثيراً أولاً وآخرأ على نعمه التي يفوت عندنا عددها عدَّ العادين ، ونشر النافرين . ولم نرد بما ذكرناه المفاخرة ،

(١) والولاء : في المغرب : بالولاء .

(٢) من قبلنا : في المغرب : من قبلك (بدون تشكيل) . ونحن نرجح أن الصحيح هو من قبلنا كما يفهم من السياق ، ولأن الاختشيد يضرب مثلاً بأبي الجيش خمارويه تكن ، ويعتبرهما الاختشيد أقل منه مكانة .

ولكننا قصدنا بما عددنا (١) من ذلك حالات : أولها ، التحدث (٢) بنعمة الله علينا ، ثم الجواب عما تضمنته كتابك من ذكر المحل والمنزلة في المكاتب ، ولتعلم قدر ما بسطه الله لنا في هذه المسالك (٣) ، وعندنا قوة تامة على المكافأة على جميل فعلك بالأسارى ، وشكر واف لما توليهم وتوخاه من مسرتهم إن شاء الله تعالى وبه الثقة ، وفقك الله لمواهب خيرات الدنيا والآخرة ، والتوفيق للسداد في الأمور كلها ، والتيسير لصلاح القول والعمل الذى يحبه ويرضاه ويثيب عليه ، ويرفع في الدنيا والآخرة أهله ، بمنه ورحمته .

• وأما المُلْك الذى ذكرت أنه باقٍ على الدهر لأنه موهوب لكم من الله خاصة : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . وإن الملك كله لله يؤتى الملك من يشاء ويتزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وإليه المصير (٤) وهو على كل شئ قدير ، وإن الله - عز وجل - نسخ ملك الملوك وجبرية الجبارين بنبوّة (٥) محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله أجمعين - ، وشفع نبوته بالإمامة وحازها إلى العترة الطاهرة من العنصر الذى سنه أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، والشجرة التى منها غصنه ، وجعلها خالدة فيهم يتوارثها منهم كابر عن كابر ، ويلقبها ماض إلى غابر ، حتى نجز أمر الله ووعده ، وبهر نصره (٦) وكلمته ، وأظهر حجته وأضاء عمود الدين بالأئمة المهتدين ، وقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون حتى يرث الله الأرض ومن عليها وإليها يرجعون .

• وإن أحق ملك أن يكون من عند الله ، وأولاه وأخلقه أن

(١) عددنا : فى المغرب : عددناه .

(٢) التحدث : فى المغرب : الحديث .

(٣) المسالك : فى المغرب : الممالك (وما فى المغرب : أصبح) .

(٤) وإليه المصير : ساقطة فى المغرب .

(٥) بنبوّة : فى المغرب : بنبوّة .

(٦) نصره : فى المغرب : ثوره . (وعانى المغرب أصبح) .

يكنفه الله بحراسته وحياطته ، ويحفه بعزه وأيده ، ويحمله بهاء السكينة في بهجة الكرامة ، ويحمله بالبقاء والنجاء ملاح فجر ، وكرّ دهر ، مُلك إمامة عادلة خلقت نبوة فجرت على رسمها وسننها وارتمت أمرها ، وأقامت شرائعها ، ودعت إلى سبلها ، مستنصرة بأيدها ، منتجرة لوعدها ، وإن يوماً واحداً من إمامة عادلة خير عند الله من عمر الدنيا تملُكا وجبرية .

« ونحن نسال الله تعالى أن يديم نعمه علينا ، وإحسانه إلينا بشرف الولاية ، ثم بحسن (١) العاقبة بما وفر علينا فخره وعلاه ، ومجده وإحسانه إن شاء الله ، وبه الثقة وهو حسبنا ونعم الوكيل .

« وأما الفداء ورأيك في تخليص الأسرى ، فإننا وإن كنا واثقين لمن في أيديكم بإحدى الحسينين ، وعلى بينة لهم من أمرهم ، وثبات (٢) من حسن العاقبة وعظم المثوبة ، عالمين بحالمهم ، فإن فيهم من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا ولذتها ، سكونا إلى ما يتحققه من حسن المنقلب وجزيل الثواب . ويعلم أن الله قد أعاده من أن يفتنه ، ولم يعذه من أن يقتله ، وقد تبينا مع (٣) ذلك في هذا الباب ما شرعه لنا الأئمة الماضون ، والسلف الصالحون ، فوجدنا ذلك موافقا لما التمسته ، وغير خارج عما أحببته ، فسررنا بما تيسر منه ، وبعثنا الكتب والرسل إلى عمالنا في سائر أعمالنا ، وعزمتنا عليهم في جمع كل من قبلهم وأتباعهم بما وفر الإيمان في إنقاذهم (٤) وبذلنا في ذلك كل ممكن ، وأخرنا إجابتك عن كتابك ليقدم فعلنا قولنا ، وإنجازنا وعدنا ، ويوشك أن يكون قد ظهر لك من ذلك ما وقع أحسن الموقع منك إن شاء الله .

« وأما ما ابتدأتنا به من المواصللة ، واستشعرته لنا من المودة

(١) بحسن : في المغرب : لحسن (وما في الصبح . أصح) .

(٢) وثبات : في المغرب : وبيان .

(٣) مع : في المغرب : في .

(٤) في إنقاذهم : في المغرب : بإنقاذهم . (وما في المغرب . أصح) .

والحجة ، فإن عندنا من مقابلة ذلك ما توجه السياسة التي تجمعنا على اختلاف المذاهب ، وتقتضيه نسبة الشرف (١) الذي يؤلفنا على تباين النحل ، فإن ذلك من الأسباب التي نخصنا وإياك . ورأينا من تحقيق جميل ظنك بنا إيناس رُسُلك وبسطهم ، والاستماع منهم والاصغاء إليهم والإقبال عليهم ، وتلقينا انبساطك إلينا ، وإطافتك إيانا بالقبول الذي يحق علينا ليقع ذلك موقعه ، وزدنا في توكيد ما اعتمدته ما (٢) حملناه رسلك في هذا الوقت على استقلالنا إياه من طرائف بلدنا وما يطرأ من البلاد علينا ، وإن الله بعدله وحكمته أودع في كل قرية صنفاً ، ليتشوف إليه من بعد عته ، فيكون ذلك سبباً لعمارة الدنيا ومعاش أهلها . ونحن نفرذك بما سلمناه إلى رسولك لتقف عليه إن شاء الله :

« وأما ما أنفذته للتجارة فقد أمكننا أصحابك منه ، وأذننا لهم في البيع وفي ابتياع ما أرادوه واختاروه ، لأننا وجدنا جميعه مما لا يحظره علينا دين ولا سياسة ، وعندنا من بسطك وبسط من يرد من جهتك ، والحرص على عمارة مابدأتنا به ورعايته ، ورب ما غرسته ، أفضل ما يكون عند مثلنا لمثلك ، والله يعين على ما نؤيه من جميل ، ونعتقد من خير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

« ومن ابتداء بجميل (٣) لزمه الجرى عليه والزيادة ، ولا سيما إذا كان من أهله وخليفة به : وقد (٤) ابتدأتنا بالمؤانسة والمباينة ، وأنت حقيق بعمارة ما بيننا ، وباعتمادنا (٥) نحو أنجك وعوارضك (٦) قبلتنا ، فأبشر بتيسير ذلك إن شاء الله :

(١) الشرف : في المغرب : الشرق . (وما في الصبح ، أصح) .

(٢) ما : في المغرب : مما .

(٣) بجميل : في المغرب : الجميل .

(٤) وقد : في المغرب : بقد .

(٥) وباعتمادنا : في المغرب : واعتمادنا .

(٦) وعوارضك : في المغرب : وعوارضك . (وما في الصبح ، أصح) .

« والحمد لله أحق ما ابتدئ به ، وختم بذكره ، وصلى الله على محمد (١) نبي الهدى والرحمة ، وعلى آله وسلم تسليماً » .

وأما الرسالة الأخرى : فهي التي كتبها محي الدين بن عبد الظاهر ، إلى صاحب بهاء الدين بن حنا ، وزير الظاهر بيبرس ، يصف فيها القتال الذي دار بين الظاهر وبين التتر في سنة ٨٦٧٢ هـ ، وقد ذكرها القلقشندي (٢) كذلك وجدنا نصاً آخر لها في « التذكرة الصفدية (٣) » ، وفي الرسالة يشرح ابن عبد الظاهر ، ما وجده الظاهر بيبرس وجيشه من المتاعب والصعوبات والمشاق وهم في طريقهم إلى التتر حتى وصلوا إلى « الأبلستين » ، كذلك وصف القتال الذي دار بين الفريقين والذي انتهى بانتصار بيبرس « وجلوسه على تخت بني سلجوق » — كما يقول القلقشندي .

وقد قابلنا بين النصين ، وخرجنا من المقابلة بأربع ملاحظات :

الملاحظة الأولى : وجود اختلافات لفظية كثيرة بين النصين ، بعضها أصح وأضبط في نص القلقشندي ، وبعضها الآخر أصح وأضبط في نص « التذكرة » .

الملاحظة الثانية : وجود زيادة معلومات في نص القلقشندي لا توجد في نص « التذكرة » .

« الملاحظة الثالثة : وجود نقص معلومات في نص القلقشندي ، وموجودة في نص « التذكرة » .

الملاحظة الرابعة : وجود خطأ تاريخي في نص القلقشندي ، في السنة التي فتح فيها بيبرس « الحدث الحمراء » من صاحب « سيس » . ولما كانت الرسالة طويلة جداً ، فأننا نقتصر على الإشارة فقط إلى الملاحظات الثلاث الأخيرة :

(١) على محمد : في المغرب : على سيدنا محمد .

(٢) ج/١٤/ص/١٣٩ .

(٣) مطبوع (دار الكتب ، رقم : ٩٧٩٦ أدب) .

— فأما فيما يختص بالمعلومات الزائدة في نص القلقشندى ، فإنها تقع
بعد بيت الشعر :

فَمَسَّاهُمْ وَبُسْطَهُمْ حَرِيرٌ وَصَبَّحَهُمْ وَيَسْطَهُمْ تَرَابٌ
« وأصبح الأعداء لا ترى إلا أشلاؤهم ، ولا تبصر إلا أعيائهم ، كأنما
جزر جزائر يتخللها من الدماء سيل ، وكأنما رءوسهم المجموعة لدى الدهليز
المنصور أكرت تلعب بها صواجله من الأيدي والأرجل من الخيل » (١) .
أما النقص في نص القلقشندى ، فهو وصف جزء من الرحلة أثناء
عودة بيبرس وجيشه إلى القاهرة . والنقص يبدأ بعد العبارة التالية : « فدخل
مولانا السلطان في يوم الأربعاء تاسع عشرين من ذى القعدة ، فترل قريب
« كسول » (٢) « المقدم ذكرها ، وعدل إلى طريق « مرعش » فزال بحمد
الله — والنقص بعدها كما ورد في « التذكرة » (٣) : « عقاب تلك العقاب (٣) ،
وقالت الأنهار والملتقبة (٤) لكل منا اركض برجلك هذا مغتسل بارد
وشراب ، ونزلنا يوم الخميس مستهل ذى الحجة قرب قلعة خراب من
بلاد مرعش تعرف بالأسكركين إلى جانب نهر يعرف بأنجان ، وأقام
مولانا السلطان يوماً هناك بغير رحيل . ورحل يوم السبت فترل قريب
بركلو حاً من بلاد مرعش ؛ ورحل يوم الأحد رابع الشهر ، فترل قريب
عقبة مري — أحد دربندات سيس — إلى جانب النهر الأسود . ورحل يوم
الاثنين ، فترل قبالة الدريساك ، ورحل يوم الثلاثاء سادس الشهر ، فترل
قريب حارم ، وركب وقته وساق إلى منزله التي كان بها نازلاً في سنة
ثلاث وسبعين وستمائة نوبة سيس ، فضرب قريب أنطاكية دهليز الإقامة ،
وقالت تلك الحمائل الموثقة وتلك الحداثق المخذقة لأطناب خيامه مسلمة
هنتت بالسلامة ، وأتت عصا التسيار وقال لأهل الخيام هذه الدار وأنا الجار ،
فأساموا خيولهم في مراعى لا يحيط بكنها المراعى ، ووفروها على أعشاب
لتباعد ما بين الرفيق ورفيقه لا يسمعه » . (انتهى النقص) :

(١) : ج ١٤ / ص ١٤٨ .

(٢) : ص ٣٣ .

(٣) : المبادأة متصلة : « فزال بحمد الله عقاب تلك العقاب » .

وأما الخطأ التاريخي ، فإن في نص القلقشندی (ص ١٤٣) أن بيبرس فتح « الحدث الحمراء » سنة ٧٧٢ هـ ، وفي نص « التذكرة » (ص ٦) ، أنه فتحها في سنة ٦٧٢ ، وما في « التذكرة » أضيف ؛ ويؤكد ذلك مدة سلطنة بيبرس التي تبدأ من سنة ٦٥٨ وتنتهي في سنة ٦٧٦ .

٨- والذي نريد أن نخرج به من هذا البحث الموجز عن وثائق القلقشندی ، هو التنبيه إلى أشياء تهتم الباحث الحديث ، منها :

— أن من بين وثائق القلقشندی ، وثائق نادرة يتفرد هو بها ، ووثائق يتطلب العثور عليها في مصادرهما وقتاً طويلاً وجهداً مضمياً .

— وأنه يمكن ضبط نصوص الوثائق الموجودة في المصادر المختلفة على مثيلاتها عند القلقشندی .

— وضرورة ضبط وثائق القلقشندی على مثيلاتها في المصادر الأخرى بعد ما تبين أن في بعض وثائقه اختلافات لفظية ونقص في المعلومات :

٩- وأود أن أثبت هنا ، أنه كان في عزمنا إخراج هذا البحث بصورة أوسع مما هو عليه الآن ، ولكننا أوجزناه بسبب اقتراح أستاذنا الجليل الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة علينا ، بنشر وثائق القلقشندی على حدة نشرأ علمياً مع دراسة لها ، وقد تفضل وأبدى استعداداه لتقديم المعونة والتوجيه كلما احتجنا إليهما: وبناء على هذا الوعد والتشجيع ، سوف نقوم بتنفيذ الاقتراح وإخراجه إلى حيز الوجود ، خاصة وأنه قد خطونا خطوة لا بأس بها ، وهي وضع الأساس الذي يقوم عليه البناء ، وبالله التوفيق .

٧٠

علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية في ضوء وثائق "صبح الأعشى"

بفلم: الدكتور محمد يوسف نسيم يوسف

عاصر أبو العباس أحمد القلقشندي فترة تغير وانتقال شهدها العالم المعروف وقتذاك : إذ ولد بمصر سنة ٨٧٥٦ (١٣٥٥ م) وتوفي في ٨٨٢١ (١٤١٨ م) عن ٥٦ سنة ، بعد حياة حافلة أمضاها في العلم والعمل والدراسة والتأليف : وأسهم التحاقه بديوان الإنشاء بمصر سنة ٨٧٩١ (١٣٨٩ م) ، فضلا عن تنقلاته وجولاته وأسفاره العديدة في البلاد الخاضعة لحكم المماليك ، مساهمة واضحة يبدو أثرها فيما أثنى به المكتبة العربية من مؤلفات قيمة تناولت شتى الموضوعات . ومن أهمها ، إن لم يكن أهمها على الإطلاق ، كتابه المعروف باسم «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» (١) .

عاصر القلقشندي نهاية العصور الوسطى يمثلها ومبادئها ونظمها وتقاليدها ، وبداية عصر جديد له أوضاع ومفاهيم جديدة مغايرة . إذ عاش مع الانقلابات والانقضاضات الهائلة التي اهتز لها كيان العالم الوسيط من أساسه في الفكر والسياسة والاقتصاد والحرب . فلم يكن هناك شيء ثابت على حاله ، بل كان كل شيء في تغير دائم مستمر . ولقد شمل هذا التغير شتى مرافق الحياة ومختلف أوجه النشاط في المجتمع الإنساني . عاش في عصر كانت فيه الدماء الساخنة تجري في العروق معلقة انتهاء عصر وبزوغ فجر

(١) Encyclopédie de l'Islam, t. II (Leyde & Paris, 1927), 742-3; Ronart, S. & N., Concise Encyclopaedia of Arabic Civilization : The Arab East (Amsterdam, 1959), 432.

وللمزيد من التفاصيل عن القلقشندي وسيرته ومؤلفاته ، انظر السخاوي : الضوء اللاحق لأهل القرن التاسع ج ٢ (القاهرة ١٣٥٤ هـ) ص ٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ج ٧ (القاهرة ١٣٥١ هـ) ص ١٤٩ ، راجع أيضا كلمة محمد عيد الرمبول في كتاب « صبح الأعشى » - ج ١ (القاهرة ١٩١٣) ص ١٩ - ٢٤ .

جديد (١) : تحدث عن القاهرة ، عاصمة المصريين ، وهي في أوج قوتها وعظمتها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ؛ «فهي أم الممالك ، حاضرة البلاد ، دار الخلافة ، كرسى الملك ، منبع الحكماء ، ومحط الرجال » كما أشار إلى سلاطين الممالك الذين تربعوا على عرشها في عصره (٢) : وإن كان قد تحدث عن مصر وحكامها ، فلم يغفل الغرب وأحواله : فقد كانت لمول والممالك الإيطالية ، وبخاصة البحرية منها المشتغلة بالتجارة ، قد سبقت غيرها إلى عصر النهضة ، وازدادت صلاتها بمصر قوة ورسوخاً : فتردد الرسل والمبعوثون والسفار بينها وبين مصر ، وعقدت المهادنات ؛ وتواترت المكاتبات ، وتوثقت العلاقات الطيبة تدعياً للمصالح المشتركة : كذلك شاهد الفكرة الصليبية وهي تلفظ آخر أنفاسها في أواخر القرن الرابع عشر ، بشل حملة بطرس الأول لوسنيان حاكم قبرص اللاتيني على الإسكندرية السنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ، وكان ذلك في عهد السلطان المملوكي الأشرف شعبان (٣) .

وإن دل هذا على شيء فعلي أن الفكرة الصليبية لم يعد لها مكان في مجتمع القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، بعد أن انصرف الناس في غرب أوروبا عنها إلى مصالحهم الخاصة ومشكلاتهم الداخلية . كما يدل على أن المجتمع الغربي بدأ يتبذ سياسة الحديد والنار ، ويتجه اتجاهاً مخالفاً لما كان

(١) أنظر عن ذلك :

Le Goff, J., *La Civilisation de l'Occident Médiéval* (Paris, 1965), 445 ff.; waugh, w.T., *A History of Europe from 1378 to 1494* (London, 1932), 1-9; Huizinga, J., *The Waning of the Middle Ages* (London, 1955), 9 ff., 153 ff., 228 ff.

(٢) صبح الأعشى - ج ٣ (القاهرة ١٩١٤) ص ٣٦٧ - أنظر أيضاً صفحات ٢٧٨ - ٢٨١ و ٤٣١ و ٤٣٧ - ٤٣٨ من الجزء نفسه .

(٣) صبح الأعشى - ج ٤ (القاهرة ١٩١٤) ص ٢٤ ، وج ٨ (القاهرة ١٩١٥) ص ١١١ - ١١٥ . وللمزيد من المعلومات عن حملة لوسنيان على الاسكندرية ، أنظر : Atiya, A. S., *The Crusade in the Later Middle Ages* (London, 1938), 345-78; idem, *Crusade, Commerce and Culture* (Bloomington, 1962), 102-4.

هذه وقد حكم بطرس لوسنيان قبرص في الفترة من سنة ١٣٥٩ م إلى سنة ١٣٦٩ م ، أما الأشرف شعبان سلطان مصر فهو سفيد للملك الناصر محمد وقد تولى الحكم لمدة ١٤ سنة (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٧ م) ومات مقتولاً .

سائداً في عصر التوسع الصليبي ، وذلك بازدياد التلاحم بينه وبين الشرق الأتني الإسلامي بعامة ومصر بصفة خاصة . وقد تمثل ذلك في العلاقات الطبية التي قامت بين مصر وبين الدول التجارية الإيطالية ، وعلى رأسها البندقية وجنوة وبيزة ، والتي يمدنا كتاب «صبح الأعشى» بمعلومات عنها على جانب كبير من الأهمية تسد فجوة كبيرة فيما نحن بصدده (١) .

وغنى عن القول أن هذا الكتاب يعتبر بالنسبة للأمة العربية والعالم المحيط بها المتعامل معها ، دائرة معارف في شتى النواحي الأدبية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والفكرية والفلسفية . وعلى الرغم من فوات مئات السنين على وفاة مؤلفه ، فالكتاب لا يزال حتى اليوم مصلاً أساسياً يرجع إليه طلاب العلم والمعرفة في الشرق والغرب على السواء في كثير من المعارف والعلوم ، فضلاً عن أهميته بالنسبة للعلاقات بين شتى العالم في فترة من أدق فترات التاريخ . . . وعلى الرغم من الدراسات التي صدرت عنه وعن مؤلفه ، لا يزال « صبح الأعشى » كترأ مغلقاً على ما يحتويه من نفائس ، ومنجماً لم يستغل بعد الاستغلال الكافي ، ومعيناً لايُنصب للباحث في الأفرع التي أشرنا إليها .

ويمتاز القلة شندى بأنه مصدر ثقة فيما يكتب ، وبخاصة الفترة التي عاصرها وشاهد أحداثها . والمتصفح للكتاب يدرك على الفور أن صاحبه رجع إلى عشرات المصادر العربية والأجنبية التي استقى منها معلوماته ، وقد فقد بعضها ولم يصلنا ، فحفظ لنا مادته من العبث والضيعاع .

وإذا نظرنا إلى الكتاب نظرة مدققة فاحصة ، عريضة شاملة ، فسوف نجد أن مؤلفه يتبع منهاجاً علمياً واضحاً يقوم على وحدة الفكرة من ناحية ، وعلى أسلوب التفريغ داخل إطار محدد مرسوم من ناحية أخرى . فهو يتقسم إلى عشر مقالات تسبقها مقدمة وتلحق بها خاتمة .

(١) تضمنت وثائق « صبح الأعشى » الخاصة بالمكاتبات والمراسلات والمهادنات وعقود الأمان بين مصر والممالك التجارية الإيطالية الكثير من المعلومات الهامة التي لم نتمرس لها المراجع الأجنبية .

وقد ركز المؤلف في المقالة الأولى على التعريف بصناعة الإنشاء وكل ما يتعلق بها لتكون المدخل إلى باقي المقالات التي أبان فيها أهمية معرفة المسالك والممالك ، والدول والبلدان التي لها علاقات بمصر ، كما أشار إلى منتجاتها وصادراتها ووارداتها ، وذكر المكاتبات المتبادلة بينها وبين مصر بما في ذلك كتب الأمان والمهادنات وعقود الصلح . كل هذا يكشف عن ثقافة القلقشندي المتكاملة في النواحي الجغرافية والتاريخية والسياسية والاقتصادية ، فضلا عن مكانته المعروفة في الناحية الأدبية (١) .

وبين ثنايا أجزاء « صبح الأعشى » نجد المادة التي تهتمنا ، الخاصة بالعلاقات بين مصر والممالك التجارية الإيطالية - مبعثرة هنا وهناك ، وهي تلقى ضوءاً واضحاً على طبيعة هذه العلاقات وماهيتها . وترجع المادة التي زودنا بها القلقشندي إلى العصرين الأيوبي والملوكي ، وإن كان الجانب الأكبر منها يتعلق بعصر القلقشندي نفسه ، أي النصف الثاني من القرن الرابع عشر والسنوات الأولى من القرن الخامس عشر . ومن هنا جاءت قيمتها التاريخية باعتبار أن صاحبها كان معاصراً لها وشاهد عيان لأحداث ذلك الزمان ، بحكم عمله في ديوان الإنشاء بمصر ، الذي أتاح له فرصة التعرف على كل ما يخص بتلك العلاقات والاطلاع على وثائقها ومستنداتها : وثمة ملاحظة أخرى هي تلك المادة التي تلازم زمنياً عصر التوسع الصليبي ضد العالم الإسلامي . ومن هنا جاءت العلاقات بين مصر والممالك التجارية الإيطالية معبرة عن طبيعة ذلك العصر أصدق تعبير . فهي تكشف عن وجود علاقات اقتصادية بين مصر والجياليات التجارية الإيطالية داخل نطاق النزاع الديني .

وكيفما كان الأمر ، نستدل من وثائق « صبح الأعشى » أن الدول التجارية الإيطالية التي كانت لها علاقات بمصر وقتذاك هي على التوالي :

(١) انظر كتاب الدكتور عبد اللطيف حمزة وعنوانه « القلقشندي في كتابه صبح

الأعشى - عرض وتحليل » القاهرة ١٩٦٢ (مجموعة أعلام العرب - المجلد رقم ١٢) .

البنديقية وجنوة وبيزة . وقد قامت علاقاتها مع مصر على أساس تجارى بحث . ولنفهم ذلك يحسن أن نعود قليلا إلى الوراء لنلقى نظرة عاجلة على الظروف التى مر بها الغرب منذ بداية العصر الوسيط حتى عصر التوسع الصليبي .

فى أواخر القرن الخامس الميلادى سقطت الإمبراطورية الرومانية القديمة إثر غزوات البرابرة عليها ، وقامت على أنقاضها فى الغرب ممالك جديدة لها أنظمتها وحضارتها الجديدة مغايرة (١) . ويسقطها تتدهور حياة المدينة باقتصادها النقدي ونشاطها التجارى المعروف الذى كان محوره البحر المتوسط ، لتبدأ البنور الأولى لعصر الإقطاع الذى ساد الغرب طوال العصر الوسيط الأول . والإقطاع يقوم أساساً على الأرض وفلاحتها وما تغله من خيرات . وكانت حضارته حضارة زراعية ريفية لا تعرف التجارة أو الصناعة إلا فى أضيق الحدود (٢) . وساعد على ذلك أن أوروبا كانت فى القرون الأولى من تلك العصور مسرحاً لأحداث سياسية خطيرة لم تساعد على نمو التجارة ونهوضها من كبوتها ، نذكر منها غزوات البرابرة التى أوجدت حالة واضحة من الفوضى والاضطراب فى كافة أرجاء الغرب . ثم حركة الفتح العربى وما ترتب عليها من سيطرة الإسلام على البحر الأبيض المتوسط الذى أصبح بحيرة إسلامية بعد أن كان بحراً رومانياً (٣) ، ثم تصدع إمبراطورية شارلمان وتفككها بعد موته ، بالإضافة

(١)

La Monte, J. L., *The World of the Middle Ages* (New York, 1949), 36-50, 70-3, 152-3; Sullivan, R. E., *Heirs of the Roman Empire* (New York, 1960), 10, 12-3, 17, 31, 37-42, 48-50, 63-6; 73; 101; 104; Katz, S.; *The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe* (New York, 1960), 88-9, 91-2, 99, 100, 104-5, 108-10, 112, 114-5, 118; 135.

(٢) هارتمان (ل. م. ١٠) وباراكلاف (ج. م. ١٠) : الدولة والإمبراطورية فى العصور

الوسطى - ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف (الاسكندرية ١٩٦٦) - ص ١٥ وما بعدها و ١٠٢ وما بعدها . انظر أيضا :

Pirenne, H., *Medieval Cities*, trans. from the French by F.D. Halsey (New York, 1948), 43 ff.; Pirenne, H., Cohen, G. & Focillon, H., *La Civilisation Occidentale au Moyen Age du XIe au milieu du XVe siècle* (Paris, 1941), 7 ff.

(٢)

Pirenne, H., *Economic and Social History of Medieval Europe* (London, 1961, 2-3, 40-1; *idem*, *Med. Cities*, 15-6.

إلى عوامل أخرى عديدة . ونتج عن كل هذا توقف الحياة الاقتصادية في العالم الغربي وإصابتها بشلل حاد لقرون طويلة . وأصبحت حركة التجارة محمولة غير نشطة لا تتعدى تبادل السلع الزائدة عن الحاجة (١) .

كان هذا الوضع السائد في الغرب حتى أوائل القرن الحادى عشر عندما بدأت المدن الجديدة في الظهور ، بينما أخذ الإقطاع في الانهيار والزوال . ويعتبر ظهور المدن من الأمور البالغة الأهمية ؛ إذ أسهم في زلزلة بقايا النظام الإقطاعى ومهد لقيام مجتمع جديد وحضارة جديدة أساسها التجارة والصناعة . وكان هذا النشاط بمثابة انقلاب اقتصادى كبير من أبرز نتائجه التوسع في نظام الأجر النقدى وابتداع العملات بدلا من نظم الخدمة الإقطاعية التى كانت سائدة من قبل (٢) .

وكان للعامل الجغرافى أثره الكبير في تطور بعض المدن الغربية وازدهار التجارة بها ، من ذلك المدن البحرية الإيطالية ، وعلى رأسها : البندقية وجنوة وبيزة التى استمدت أهميتها من موقعها على البحر المتوسط الذى كان محور نشاطها ، والذى جعل منها حلقة اتصال بين الشرق والغرب (٣) . وساعد

انظر أيضا لويس (أرشيبالد ر) : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠ - ١١٠٠ م) - ترجمة أحمد محمد عيسى - (القاهرة ١٩٦٠) ص ٧ وما بعدها و ٨٧ وما بعدها و ٢١١ وما بعدها .

(١) كولتون (ج.ج.) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة - ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف - ط٠ ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) - ص ٢٨٨ - ٢٨٩ ، لوبيز (ر) : الثقافات الشرقية والنهضة الاقتصادية فى الغرب - ترجمة توفيق اسكندر فى كتاب يشتمل على خمسة بحوث مترجمة باسم « بحوث فى التاريخ الاقتصادى » (القاهرة ١٩٦١) - ص ١٤٤ و ١٧١ . انظر أيضا :

Stephenson, C., Medieval Feudalism (New York, 1942), 97-8.
وللمزيد من المعلومات عن التجارة بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى المبكرة ، وبخاصة فى القرون : الثامن والتاسع والعاشر ، انظر :

Lopez, R.S. & Raymond, I.W. (trans.),
Medieval Trade in the Mediterranean World (New York, 1955), 19-41.

(٢)

Pirenne, Med. Cities, 58 f.; idem, Economic and Social Hist., 42 f., 116 ff., 169.

انظر أيضا ميفورد (لويس) : المدينة على مر العصور « أصلها وتطورها ومستقبلها » اشراف ومراجعة الدكتور إبراهيم نصحي - ج ٢ (القاهرة ١٩٦٤) ص ٤٧٢ ومايلها .

(٣) توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى - مقالة لوبيز « اثر الشرق فى نهضة الغرب الاقتصادية » ص ١٧٥ - ١٧٦ .

على قيامها بهذا الدور الاحتياجات المتبادلة بين شتى العالم وقتذاك . فقد كان لمنتجات الشرق بصفة عامة ومصر بصفة خاصة أهمية كبيرة بالنسبة للغرب الأوروبي . ومن أهم السلع التي كان الغرب في حاجة إليها التوابل والبهارات لحفظ المأكولات سليمة والصناعة الأدوية والعقاقير ، فضلا عن السكر والطور والبخور والعاج والأحجار الكريمة والخامات الأولية اللازمة لصناعة النسيج كالقطن . كذلك كان الشرق في حاجة إلى بعض الخامات الغريبة التي لم تكن متوفرة عنده مثل : الأخشاب والمعادن كالنحاس والحديد ، وكانت تلك المدن البحرية تقوم بعملية تصدير واستيراد هذه السلع تلبية لتلك الاحتياجات المتبادلة بين شتى العالم ، وتجنبي من وراء ذلك أرباحاً هائلة (١) .

وللبندقية بالذات تاريخ بحري مجيد انفردت به عن غيرها من دول الغرب الأوروبي مثلما انفردت به عن زميلتها جنوة وبيزة (٢) . فهي مدينة ممتدة على المستنقعات والبحيرات . ويكشف موقعها الجغرافي عن عظمتها البحرية والتجارية (٣) . إذ تقع على رأس البحر الأدرياتي (٤) ، الذي كان يعتبر على حد قول الكاتبة إيلين بور E. Power أعظم طريق بحري لتجارة العصر الوسيط . ثم هي في موقع متوسط بين الشرق والغرب ، فضلاً عن كونها ميناء من موانئ البحر المتوسط . ويكاد هذا الميناء أن يكون في قلب أوروبا لوقوعه في أقصى الطرف الشمالي . كل هذا أكسبها ميزات حسنتها عليها كثير من بلدان أوروبا . ففيها كان يرسو التجار الوافدون من الشغور

(١) أنظر ديل (شارل) : البندقية جمهورية أرستقراطية - ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والأستاذ توفيق إسكندر (القاهرة ١٩٤٨) ص ٢٠ و ٢٥ و ٣٦ و ٥٩ .
(٢) ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية - ص ٧ .

(٣) Cf., Pirenne, *Med., Cities*, 59.

ويمدنا القلقشندي بمعلومات طيبة عن المدينة وسكانها وقاعة ملكها وإطوارها وسبب تسميتها بهذا الاسم وحكامها وعملتها وأهم منتجاتها وأعمالها . أنظر صبح الأعشى - ج ٥ (القاهرة ١٩١٥) ص ٤٠٤ - راجع أيضاً

Pirenne, Cohen & Focillon, *op. cit.*, 21.

(٤) يقال له أيضاً بحر أدريا أو خليج البندقية . أنظر محمد أمين الخانجي : منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان - ج ١ (القاهرة ١٩٠٧) ص ١٧٤ .

المصرية : كالإسكندرية ودمياط وغيرها من موانئ شرق البحر المتوسط ، ومن بلاد الشرق الأقصى ، ومعهم الأنسجة الحريرية والتوابل والكافور والعاج واللؤلؤ والعطور والطنافس وغيرها . ومن البندقية كانت هذه البصائع تنقل إلى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا والأراضي الواطئة وغيرها من بلدان الغرب (١) .

ويعمدنا القلقشندي بمعلومات طيبة عن البندقية وأهلها وصاحبها وألقابه ، وهو يطلق عليها « مملكة البنادقة » معتبراً إياها من ممالك الفرنج الكبار الواقعة ما بين الخليج القسطنطيني وجزيرة الأندلس (٢) . فهي تقع على الخليج المعروف باسم « جون البنادقة » في الركن الشرقي من سهل لمبارديا (٣) . ويعرف سكانها باسم « البنادقة » نسبة إلى المدينة نفسها ، وهم طائفة مشهورة من افرنج . (٤) كما يعرف حاكمها ومتولى أمرها باسم « ملك البندقيه » (٥) ، والملك عندهم هو الدوق . ويزيد القلقشندي الأمر وضوحاً فيردد أكثر من مرة « أن الملك اسمه عندهم دوك » (٦) ؛

(١)

Power, E., Medieval People (London, 1954), 34-5.

(٢) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٠٤ . ومن الكتب القيمة عن البندقية كتاب أوجست

باي

Bailly, A., La Sérénissime République de Venise, Paris, 1946.

فقد أشار إلى موقف البندقية من الحركة الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي (ص ٦٨ وما بعدها) ، والصراع من أجل بضائع الشرق الأدنى الإسلامي ، وكذلك التنافس بينها وبين جنوة (ص ١١٦ وما بعدها) .

(٣) صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٢٣٤ . ويطلق الأديريسي على « جون البنادقة » اسم « البنادقي » و « خلع البنادقيين » . انظر : نزهة المشتاق في ذكر الأوصاف والإقطار والبلدان والجزر والمدائن والأقاليم (طبع روما سنة ١٨٧٨) - تحقيق إماري - ص ١١ . راجع أيضاً ديل البندقية جمهورية أرستقراطية - ص ٩٠٧ .

(٤) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٠٤ و ج ١٣ (القاهرة ١٩١٨) ص ٨٨ . وتتفق المصادر الإسلامية على تسميتهم بهذا الاسم .

(٥) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٠٤ و ٤٨٥ .

(٦) صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٢٧ . ويقول القلقشندي : ان « ملكهم من أنفسهم يقال له الدوك » . انظر صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٠٤ . وفي موضع آخر يقول « وكل من ملك منهم يسمونه دوك بالكاف المشوبة بالجيم فيقال « دوك البندقيه » ، وهذا اللقب جار على ملوكهم إلى آخر وقت » . انظر صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٨٥ . ولكن القلقشندي يمود فيناقض نفسه عندما يذكر أن الدوك غير الملك . وهذا غير صحيح ، فال معروف أن الدوك عندهم بمثابة الملك . انظر صبح الأعشى - ج ٨ - ص ٤٨ .

ولذلك يقال له «دوك البندقية» (١) ، أو «دوقس البنادقة» (٢) ، أو «دوج البندقية» (٣) ، الذى كان يعتبر رمز عظمة البندقية (٤) . وهذه التسمية الأخيرة هى أكثرها شيوعاً فى المراجع الحديثة من عربية وأجنبية . أما تعريفه فى ديوان الإنشاء بمصر فهو «صاحب البندقية» (٥) . ولقد حرصت البندقية على إقامة علاقات طيبة مع مصر ودول الشرق الأدنى الإسلامى قبل قيام الحركة الصليبية . وحصلت هى وغيرها من الجاليات البحرية الإيطالية على امتيازات تجارية واسعة من الخلفاء الفاطميين بمصر (٦) ، وأثرت من وراء ذلك ثراء كبيراً . وكان إسهامها فى الحملات الصليبية التى اندلعت فى أواخر القرن الحادى عشر نتيجة طبيعة لسياستها الاقتصادية . ولكن هذه الحملات ، وإن اتسمت بميём العنف ، إلا أنها مع ذلك دفعت التجارة النامية فى أوروبا الغربية دفعة كبرى إلى الأمام (٧) . إذ أدى الاحتكاك الحربى بين الغرب الأوروبى والشرق الأدنى الإسلامى إلى احتكاك تجارى يتمثل فى تبادل السلع والبضائع بينهما . وهذا يعنى أن العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب لم تنقطع حتى فى وقت الحروب الصليبية (٨) .

(١) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٨٥ .

(٢) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٠٦ و ٤٠٣ .

(٣) صبح الأعشى - ج ٨ - ص ٤٧ .

(٤) انظر ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية - ص ٨٥ وما بعدها .

(٥) أورد القلقشدى هذا التعريف عند حديثه عن المكاتبه الى « صاحب البندقية »

انظر صبح الأعشى - ج ٨ - ص ٤٧ .

(٦) انظر Pirenne, Med. Cities, 61. هذا ويشغل حكم الفاطميين لمصر الفترة من سنة ٣٥٨ الى سنة ٥٦٧ هـ (٩٦٩ - ١١٧١ م) ، وقد انتمشت العلاقات التجارية بين البندقية ومصر الفاطمية خلال القرن الحادى عشر ، وهو القرن السابق لقيام الحركة الصليبية .

(٧) كولتون : عالم المصور الوسطى فى النظم والحضارة (الترجمة العربية) ص ٢٠٢ . ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية - ص ٣٠ ، انظر أيضا كتاب الدكتور عزيز صوريال عطية عن الحرب الصليبية والتجارة والثقافة Atiya, Crusade, Commerce and Culture, 162 ff. هذا ، ويرى لوبيز أن الحروب الصليبية كانت خاتمة أكثر منها بداية ، وأن النهضة الاقتصادية فى الغرب كانت سبباً لها أكثر مما هى نتيجة لها . انظر توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى - ص ١٧٤ . (٨) انظر توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى - ص ١٧٥ .

وكان لأهل البندقية دور ملموس في هذا المضمار : فأسهموا بسفنهم وأساطيلهم في نقل الجند والعتاد والمهمات من موانئ أوروبا إلى سواحل مصر والشام . كما اشتركوا مع القوات الصليبية في الاستيلاء على الموانئ الشامية تحقيقاً لمصالحهم وأطماعهم التجارية في المنطقة . لقد كان هدف تجار البندقية استغلالاً بحراً ، نظراً للكسب الكبير الذي يعود عليهم من السيطرة على الطرق التجارية للسلع الشرقية التي أصبحت مصر مصدراً ثراء عريضاً للمستغلين بها : فإن امتلاك مصر والشام حيث تنتهي الطرق البحرية الرئيسية لهذه السلع كان حجر الزاوية في السيطرة على تجارتها (١) .

لذلك قامت أساطيلهم بدور فعال في الاستيلاء على المراكز الرئيسية في الشام . فشاركوا في استيلاء اللاتين على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م ، كما كانوا عنصرأ بارزاً في الحملات التي كانت مصر والشمال الأفريقي مسرحاً لها فيما بعد (٢) . ولم يقتصر التجار البنادقة على المساهمة في قيام الإمارات اللاتينية بالأراضي المقدسة ، بل امتد إلى العمل على الاحتفاظ بها أطول مدة ممكنة تمكيناً لمصالحهم وتثبيتاً لها (٣) . وقد تمثل ذلك في المعاهدات التي عقدت بينهم وبين حكام مملكة بيت المقدس اللاتين ، التي تضمنت امتيازات عديدة إقليمية ومالية وقضائية لصالح أولئك التجار (٤) .

والخلاصة أن البنادقة وغيرهم من التجار الإيطاليين كانوا يجرون وراء مصالحهم حيثما وجدت . فكانوا يشتركون مع الصليبيين إذا وجدوا في ذلك مصلحة لهم . ولكنهم سرعان ما يتحولون عنهم ويسارعون إلى التفاهم مع

(١) Pirenne, Economic and Social Hist., 31; Grousset, R., The Sum of History, English version by A. & H. Temple Patterson (Oxford, 1951), 181.

(٢) انظر أيضاً توفيق اسكندر : بحوث في التاريخ الاقتصادي - ص ١٧٦ (مقالة لوبيز) .

(٣) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى -

ط ٢ ثانية (الإسكندرية ١٩٦٧) ص ٨٧ - ٨٨ .

(٤) Pirenne, Med. Cities, 64; Coulton, G.G., Medieval Panorama (New York, 1955), 320.

(٥) Pirenne, Economic and Social Hist., 30-3; Mahmud, S.F., The Story of Islam (Karachi, 1959), 135.

(٦) انظر أيضاً ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية - ص ٣٦ .

خصوصهم المصريين وفقاً لما تملّيه عليهم مصالحهم الخاصة . وهكذا كانت الحرب الصليبية مجرد ورقة يلعبون بها (١) :

ويتضح هذا الموقف المتلون من تذكرة من إنشاء القاضي الفاضل بعث بها صلاح الدين الأيوبي مع رسول من قبله يدعى الأمير شمس الدين الخطيب إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله . وتتناول التذكرة بإيجاز السنوات الأخيرة من الحكم الفاطمي لمصر وبداية الدولة الأيوبية : وفيها يعرض صلاح الدين عرضاً سريعاً لأعماله وفتوحاته وجهاده ضد كل من الفرنج بالشام وبقايا الفاطميين بمصر ، ثم موت نور الدين محمود سلطان حلب والشام ، ومحاولات صلاح الدين توحيد الجبهة الإسلامية الموحدة في الشرق الأدنى لمواجهة الخطر الصليبي بالشام الذي كان قد استفحل أمره وبات يهدد المسلمين بشر مستطير (٢) .

وكيفما كان الأمر ، فقد وردت في التذكرة إشارة واضحة إلى سياسة البنادقة حيال كل من صلاح الدين والصليبيين ، فيما يلي نصها :

« ومن هؤلاء البنادقة . . . تارة لا تطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يجهزون سفراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المحلوبة ، وتقصر عنهم يد الأحكام الموهوبة ، وما منهم الآن إلا من يجلب إلى بلدنا آلة قتاله

(١) توفيق اسكندر : بحوث في التاريخ الاقتصادي (مقالة لوبيز) ص ١٧٦ .

(٢) لم يحدد الفلقشندي تاريخ ارسال هذه التذكرة التي تتضمن عرضاً سريعاً لفتوحات صلاح الدين في اليمن والمغرب ، وأطماع الفرنج في مصر ، والفترة الأخيرة من حكم الماضد الفاطمي في عهد وزارة صلاح الدين والتي انتهت بموت الماضد وانتهاء الخلافة الفاطمية بمصر ، ثم موت نور الدين وأحوال الدولة النورية بعد وفاته ، وموقف صلاح الدين من الصالح اسماعيل بن نور الدين ، ومحاولاته السيطرة على الشام ليتفرغ للجهاد ضد الفرنج وفي ختام التذكرة يطلب صلاح الدين من الخليفة العباسي أن ينعم عليه بتقليد جامع لمصر والمغرب واليمن والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية . وعلى الرغم من أن الفلقشندي لم يحدد تاريخ ارسال هذه التذكرة إلى الخليفة العباسي ، إلا أنه من المحتمل حسب تسلسل الأحداث أن تكون بعد سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) بقليل ، وهي السنة التي مات فيها السلطان نور الدين محمود وخلفه في الحكم ابنه الصالح اسماعيل . انظر نص التذكرة في صبح الأعشى - ج ١٣ - ص ٨١ - ٩٠ . وستتناولها بالدراصة والتحليل عند التعرض للعلاقات بين جنوة ومصر في عهد صلاح الدين الأيوبي .

وجهاده ، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده ،
 وكلهم قد قررت معه المواصفة ، وانتظمت معه المسألة ،
 على مانريد ويكرهون ، وتؤثر ولا يؤثر (١) .

كان الصليبيون في هذا الوقت قد أسسوا إماراتهم الأربع في الأراضي المقدسة على حساب الضعف الذي انتاب الشرق الأدنى الإسلامي عند قيام الحركة الصليبية (٢) : فقد كانت الخلافة الفاطمية في طور الاحتضار ، وتوشك على السقوط عند أول ضربة قوية توجه إليها (٣) . والتنافس على أشده بين كل من « أموري » حاكم بيت المقدس اللاتيني ونور الدين محمود صاحب الشام على ملك مصر . وتوالت حملات كل منهما عليها فيما بين عامي ٥٥٨ و ٥٦٤ هـ (١١٦٣ - ١١٦٨ م) ، وقد انتهت بهزيمة القرنج وانتصار جيش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي (٤) . وكان القضاء على الخلافة الفاطمية وقيام دولة الأيوبيين بمصر إيذاناً ببداية بواحد اليقظة الإسلامية في أواسط القرن السادس الهجري (أواسط القرن الثاني عشر الميلادي) بعد أن أحس المسلمون بالخطر الجاثم الذي ، كان يهددهم ، وأخذوا يتكثرون لمواجهة ودفعه عن ديارهم (٥) ، في ظل هذه الظروف كان البنادقة يساعدون الصليبيين بأساطيلهم ، فهم مسيحيون مثلهم ويتقاضون أجوراً على تقاهم هم ومهااتهم عبر البحر

(١) صبيح الأعشى - ج ١٣ - ص ٨٨ .

(٢) ابن القلاني : ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨) ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٣) ابن الأثير : منتخبات من كتاب الكامل في التاريخ ، في « مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية - المؤرخون الشرقيون » ج ١ (طبع باريس ١٨٧٢) ص ٥٥٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ج ٥ (القاهرة ١٩٢٥) ص ٣٢٨ و ٣٢٩ و ٣٤٥ و ٣٤٦ و ٣٦٣ .

(٤) انظر عن ذلك ابن شداد : سيرة صلاح الدين الأيوبي (مصر ١٣١٧ هـ) ص ٢٨ -

٣٥ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ج ١ - ص ٥٢٢ و ٥٤١ و ٥٤٦ و ٥٥١ و ٥٥٣ و ٥٥٨ . راجع أيضاً

Michel le Syrien, Extrait de la chronique de Michel le Syrien, ed. R.H.C.-Doc. Arm., I (Paris, 1869), 353-9; Guillaume de Tyr, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, ed. R.H.C.-H. Occ., I (Paris, 1844), 890-1, 934, 945-6.

(٥) جوزيف تيسم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان المدان الصليبي

(الاسكندرية ١٩٦٧) ص ٣٦ و ٢٧ ومايهدما .

إلى الشرق . ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يتقربون إلى السلطات المستولة بمصر خشية ضياع المكاسب التي يجنونها من وراء التعامل معها . وهي سياسة ذات شقين متناقضين ، ولكنها على أية حال تتفق مع مصالحهم الخاصة التي كانت بالنسبة لهم فوق أى اعتبار .

وتتأرجح العلاقات بين البندقية ومصر في العصر الأيوبي (١) بين التآزم والتصافي ، وهو العصر الذي تبلورت فيه حركة الإفاقة الإسلامية ، والذي شاهد بداية جهاد المسلمين ضد الفرنج في الأرض المقدسة بقصد إجلائهم عنها . ويستمر خلفاء صلاح الدين من بنى أيوب ومن بعدهم المماليك البحرية (٢) في مصر في قتال الصليبيين ، إلى أن يتمكن السلطان الأشرف خليل (٣) سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) من الاستيلاء على عكا ، وهي آخر معاقلهم الحصينة بالساحل الشامى . ولم تبق بعد ذلك سوى بضعة جيوب مبعثرة على امتداد الساحل منها : صور وصيدا وحيفا ، سقطت تباعاً في أيدي المصريين في العام نفسه (٤) .

لم تمت الفكرة الصليبية تماماً بسقوط عكا في أواخر القرن الثالث عشر ، وإن كان ضياعها من الفرنج إيذاناً ببداية النهاية لعصر التوسع الصليبي ضد العالم الإسلامي . فكان المصريون يعلمون أن أهل الغرب اللاتيني سوف يقومون بمحاولات جديدة يائسة تستهدف تحقيق أحلامهم القديمة في المنطقة ، وأن البنادقة وغيرهم من الجاليات التجارية لن يتوانوا عن مساعداتهم مثلما فعلوا في الحملات المبكرة .

(١) احتلت الدولة الأيوبية من تاريخ مصر ٨٠ سنة تقريباً ، فهي تبدأ حوالى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وتنتهى فى سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) .
(٢) يشغل حكم المماليك البحرية لمصر الفترة من سنة ٦٤٨ هـ إلى سنة ٧٨٤ هـ (١٢٥٠ - ١٣٨٢ م) .

(٣) تولى الملك الأشرف خليل بن قلاوون الحكم لمدة ثلاث سنوات ، وقد انتهى حكمه سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) وقتل وسنه ٣٠ سنة .

(٤) أنظر عن ذلك ابن ابيك : كنز الدرر وجامع الغرر - مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٦٤٣ تاريخ - ج ٨ - ورقة ٣٣٠ - ٣٥ ، يا مغرمة : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر - مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٤١٠ تاريخ - ج ٣ قسم ١ - لوحة ٩٨٨ .

قبعده حوالى عام من سقوط عكا ثم عقد هدنة يرجع تاريخها إلى صفر سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) بين الأشرف خليل وبين صاحب أرغونة (١) الفرنجى الذى كان معه أفيال له . وقد تضمنت خاتمتها بنداً صريحاً يتعلق بالبنادقة وغيرهم من طوائف الفرنج الذين دأبوا على إلحاق الضرر بالديار المصرية والبلاد الشامية . وخلاصته أن على صاحب أرغونة - الذى كان على علاقة صداقة ومودة مع الأشرف خليل ، منع أولئك القوم ، عن قصد مصر والشام مستخدماً فى ذلك كافة السبل ، حتى ولو أدى الأمر إلى قتالهم لصرفهم عما هم قادمون عليه .

ونص هذا الشرط الوارد بالهدنة المذكورة هو :

« ... وعلى أن الملك دون حاكم (الريد أرغون) (٢) هو وأخواه وصهراة أصدقاء من يصادقون الملك الأشرف (خليل) وأولاده ، وأعداء من يعادهم من سائر الملوك الفرنجية وغير الملوك الفرنجية . وإن قصد الباب برومية (٣) ، أو ملك من ملوك الفرنج ، متوجاً كان أو غير متوج ، كبيراً كان أو صغيراً ، أو من الخنوية ، أو من البنادقة ... مضرة بلاد الملك الأشرف ، بمحاربة أو أذية ، بمنعهم الملك دون حاكم هو وأخواه وصهراة ويردونهم ، ويعمرون شوايهم (٤) ومراكبهم ، ويقصلون بلادهم ، ويشغلونهم

(١) لطروف عديدة داخلية - منها موقف قشتالة فى الشمال الأسباني من أرغونة - اتجه حكام أرغونة وتقدموا إلى الخارج - فاحتلوا بالتجارة ، وأقاموا صلات مع مقلية وإيطاليا والشرق الأدنى . كما كانوا يعتبرون أنفسهم حماة للمراية المسيحية فى الشرق ، خاصة بعد سقوط آخر معاقل الصليبيين بالساحل الشامى فى أيدي المماليك فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى .

(٢) المقصود بذلك السيد حاكم مملكة أرغونة ، وهو حينذاك خايمى الشمانى Jaime II وقد حكم من سنة ١٢٩١ إلى سنة ١٣٢٧ م .

(٣) المقصود بابا روما رأس الجهاز الكنسى البابوى فى الغرب الأوروبى . وقد تضمنت وثائق « صيغ الأعدى » اشارات عديدة قيمة عن بابوية روما وعلاقاتها بمصر فى عصر التوسع الصليبي .

(٤) الشوانى جمع شونة أو شينى أو شينية . وهى نوع من السفن الحربية الكبيرة تقام فيها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم . وتجهز الشوانى فى أيام الحرب بالسلاح والمؤن =

بنفوسهم عن قصد بلاد الملك الأشرف وموانيه وسواحله
وتغوره المذكورة وغير المذكورة ، ويقاثلونهم في البر
والبحر بشوانهم وعمائرهم وفرسانهم وخيالتهم
ورجالهم (١) .

وإذا كانت البندقية - كما رأينا - قد مدت يد العون إلى الصليبيين
تحقيقاً لمصالحها فحسب ، فقد امتنعت عن معاونتهم في كثير من الأحيان .
عندما كانت تجد أن مثل هذه المعاونة سوف تضر بمصالحها في مصر والشرق
الأدنى الإسلامي ، وحتى لاتوغر صدر السلطات المسئولة بمصر عليها .
ونجد مثالا واضحا لذلك في موقفها من حملة لويس التاسع الصليبية على
مصر في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي . فبينما كان الملك الفرنسي يستعد
لهجومه على مصر في عهد السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين ، أجرى
اتصالات مع الدول البحرية الإيطالية لاستئجار السفن اللازمة لنقل الجنود
والمؤن والعتاد عبر البحر إلى الشرق (٢) . وعندما اتصل بالبندقية لهذا
الغرض رفضت تزويده بما يحتاج إليه من سفن (٣) ، بسبب العلاقات الطيبة
التي كانت قائمة بينها وبين مصر وقتذاك (٤) . إذ كانت تخشى من قيام

= وتحشد بالمقاتلة والجندافين . وكان الشينى يسمى «الغراب» أيضا . انظر المقرئى :
المراخط والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - ج ٢ (القاهرة ١٢٧٠ هـ) ص ١٩٤ - ١٩٥ ،
ابن ماتي : كتاب قوانين الموانين (القاهرة ١٩٤٣) ص ٣٤٠ ، ميخائيل عواد : الماصر .
في بلاد الروم والاسلام (بغداد ١٩٤٨) ص ٦٦ ح ٤ .

(١) صبح الاعشى - ج ١٤ (القاهرة ١٩١٨) ص ٦٦ .

(٢) لم تكن فرنسا وغيرها من دول الغرب مثل ألمانيا وإنجلترا والأراضي الواقعة تملك
في ذلك الحين سفنا تسمح لها بنقل قواتها وعتادها عبر البحر إلى الشرق الإسلامي .
وكانت المدن التي لها أساطيل هي تلك التي لها موانئ على البحر المتوسط ، وبصفة خاصة -
البندقية وجنوة وبيزة - ولقد أدرك هذه الحقيقة أحد المؤرخين المسلمين ، وهو ابن فضل الله
العمري ، إذ أوضح في كتابه المعنون « رسالة تشتمل على كلام إجمالي في أمر مشاهير
ممالك الفرنج عباد الصليب في البر دون البحر - فسر أمارى (طبع روما سنة ١٨٨٣) ص
٣ - أن عساكر الملك الفرنسي لويس التاسع في البر أطول منها في البحر ، وأنه
ليس له أسطول ولا مراكب .

Daru, Le Comte, Histoire de la république de Venice (Bruxelles, ٣)
1840), 181.

(٤) كان للبندقية في الاسكندرية حينذاك فندقان لمسكن التجار البنادقة والعمل على =

حملة صليبية بحرية ضدها تؤدي إلى إغلاق أبواب التجارة في وجهها ،
وهي مهلة ثروة طائلة بالنسبة لها (١) .

لقد كان هدف البنادقة منذ بداية الحركة الصليبية حتى نهايتها هو الربح
والكسب المادى ، ولم يكن يعينهم الباعث الدينى إلا بالقدر الذى يحقق
مصالحهم. فقد غلبت الصفة التجارية البعثة على مسلكهم وتصرفاتهم (٢) :
ويكفى أن نعرف أن شعارهم الذى عرفوا به وقتذاك هو « لنكن أولا
بنادقة » ، ثم لنكن بعد ذلك مسيحين (٣) .

كانت البندقية في الواقع هي أقوى قوة بحرية في ذلك الوقت ، حتى إن
حاکمها الدوج أصبح الحاکم المطلق على أربعة بحار هي : البحر الأدرياتي
والبحر الإيوني وبحر مرمرة والبحر الأسود ، فضلا عن أن سفنها كانت
ترتع في البحر المتوسط ، وملأت متاجرها سواحل شرقى هذا البحر .
كما كانت جزر قبرص ورودس وكريت تحت حكمها . وقضت سفنها على
قراصنة البحر الذين كانوا يسبون الكثير من المتاعب للتجار والمسافرين .
كذلك حاولت القضاء على المنافسين لها في ميدان التجارة البحرية . وبخاصة
جنوة . وبلغت سيطرة البندقية و سطوتها البحرية أنه كان يجب أن تمر
التجارة مع الشرق عن طريقها هي فقط (٤) .

وباحتضار الفكرة الصليبية في أواخر القرن الثامن الهجرى (أواخر القرن

واحتهم أثناء إقامتهم . كذلك كانت لهم كنيسة خاصة بهم ، وغيرها من الامتيازات الى
منحهم إياها سلاطين بنى أيوب . انظر عن ذلك :

Heyd, W., Histoire du commerce du Levant au moyen-
âge, I (Leipzig, 1885), 410-2; cf. also: Lane-Poole, St., A History of Egypt
in the Middle Ages (London, 1936), 218.

Grousset, R., Histoire des Croisades et du Royaume (١)

Franc de Jérusalem, III (Paris, 1936), 428.

Mahmud, Story of Islam, 132. (٢)

Matthew Paris, English History from the year 1235 to 1273, (٣)
trans. from the Latin by J.A. Giles, II (London, 1853), 306; cf. also: Atiya,
Crusade in the Later Middle Ages, 114.

Power, Med. People, 37; cf. also Pirenne, Med. Cities, 60. (٤)

راجع كذلك ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية - ص ٢٣ - ٢٤ و ٢٢ و ٥٠ - ٥٧ .

الرابع عشر الميلادي) ، كان طبيعياً أن تزداد العلاقات بين البندقية ومصر قوة وتوثقاً بعد أن زالت العوائق التي حالت في الماضي دون ذلك . وتلقى وثائق « صبح الأعشى » ضوءاً على هذه المسألة : ففي ١٦ من صفر سنة ٨١٤ هـ (١٤١٢ م) ورد إلى السلطان الناصر فرج (١) من المماليك الجراكسة كتاب من دوج البندقية المسمى ميخائيل مع رسوله المدعوي نقولا البندقي (٢) وفيه يتحدث ، بعد تقبيل الأرض وبث الشوق والود ، عن تردد التجار البنادقة على مصر في أمان وسلام بسبب عدل السلطان : ثم يشير الدوج في ثنايا الخطاب إلى حادثة اعتقال السلطان لفتنصل البنادقة وتجارهم بالأسكندرية لتصرف بلد منهم ، مؤكداً أنه لم يقع منهم ما يستوجب ذلك ، ملتصماً في النهاية التوصية خيراً بالفتنصل والتجار وحسن معاملتهم ضماناً لاستمرار ترددهم على مصر وهم مطمئنين .
وفيما يلي نص الكتاب :

« السلطان المعظم ، مالك الملوك » فرج الله » ناصر الملة الإسلامية ، خلد الله سلطانه —

يقبل الأرض بين يديه نقولا (٣) دوج البنادقة ، ويسأل الله أن يزيد عظمته ، لأنه ناصر الحق ومؤيده ، وموئل الممالك

(١) جاء اسمه في رسالة دوج البندقية فالسلطان الملوكي فرج الله ، والمقصود الملك الناصر فرج بن برقوق ، وكان قد تولى الحكم مرتين : المرة الأولى لمدة سبع سنوات لماية سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) ، وقد انتهى هذا الحكم بخلعه ولم يكن قد بلغ السابعة عشرة من عمره . ثم يأتي أخوه الملك المنصور عبد العزيز بن برقوق ليتولى الحكم بضعة أشهر ويخلع وسنه ١٨ سنة . ويعود الملك الناصر فرج مرة أخرى ليتولى الحكم سبع سنوات آخر لماية سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) وينتهي حكمه بقتله وله من العمر ٢٤ سنة .

(٢) القهوم مما جاء في وثائق « صبح الأعشى » أن كتاب الدوج ورد باللسان الفرنسي ، وقد قام بنقله إلى العربية اثنان من الترجمة بديوان الانشاء بمصر وقتذاك هما شمس الدين منقر وسيف الدين سودون . والكتاب مدون على ورقة مربعة وسطوره متقاربة . وقد احتفظ الفلقشندي ضمن وثائقه بترجمته العربية ، وهي لا ترقى بحال في مستواها اللغوي من حيث البلاغة وجزالة اللفظ إلى مستوى المكاتبات العربية المصادرة من ديوان الانشاء بمصر إلى ملوك الغرب . انظر صبح الأعشى — ج ٨ — ص ١٢٣ .

(٣) ذكر الفلقشندي قبل ذلك بأسطر قليلة أن اسمه « ميخائيل » وأن اسم رسوله « نقولا » ، ولعل هذا سهو منه . انظر صبح الأعشى — ج ٨ ص ١٢٣ ح ١ .

الإسلامية كلها : وينهى ما عنده من الشوق والمحبة لمولانا
السلطان ، وأنه لم تزل أكابر التجار والمحتشمين (١) والمترددين
من الفرنج إلى الممالك الإسلامية شاكرين من عدل مولانا
السلطان وعلو مجده ، وتزايد الدعاء ببقاء دولته ، وقدر غب
التجار بالتردد إلى مملكته الشريفة بواسطة ذلك ، ولأجل الصلح
المتصل بيننا والمحبة .

وأما غير ذلك ، فإنه بلغنا ما اتفق في العام الماضي من حبس
العمر (٢) في ثغر دمياط المحروس ، وأن مولانا السلطان مسك
قنصل البنادقة والمحتشمين من التجار بثغر الاسكندرية المحروس ،
وزنجيرهم (٣) بالحديد ، وأحضرهم إلى القاهرة ، وحصلت
لهم البهولة بين حبوسهم والضرر والفقر الزائد ، وكسر حرمتنا
بين أهل طائفتنا ، فإن الذي فعل مع المذكورين إنما فعل معنا ،
وتعجبنا من ذلك : لأن طائفتنا لم يكن لهم ذنب ، وهذا مع كثرة
عدل مولانا السلطان في مملكته ، ومحبتنا له ، ومناذاتنا في جميع
مملكتنا بكثرة عدله ، وبمحبتة لطائفتنا ، وإقباله عليهم ، وقولنا
لجميع نوابنا : إنهم يكرمون من يجلدونه من مملكة مولانا
السلطان ويراعونه ويحسنون إليه ، والمستول من إحسانه الوصية
بالقنصل والتجار وغيرهم من البنادقة ، ومراعاتهم وإكرامهم
والإقبال عليهم ، والنظر في أمورهم إذا حصل ما يشبه هذا الأمر
ومنع من يشاكلهم لتحصل بذلك الطمأنينة للتجار ، وترددوا
إلى مملكته (٤) .

وبدل هذا على تردد تجار البنادقة على ثغرى الاسكندرية ودمياط ، وهم

(١) المقصود أكابر تجار البنادقة - والمحتشمون جميع محتشم وهو من القاب التجار
الفرنج . ومنعزى لذلك بالتفصيل في ختام البحث .
(٢) كذا وردت في « صبح الأعشى » بدون نقط ، ولم يتسن تفسيرها .
(٣) أى قيدهم بالحديد .
(٤) صبح الأعشى - ج ٨ - ص ١٢٢ - ١٢٤ .

ينعمون برعاية الدولة وحمايتها ، بعد أن لفظت الفكرة الصليبية آخر أنفاسها ، وكان من الطبيعي أن تثور بعض المشكلات والخلافات بين الجانبين البندقي والمصري نتيجة حركة التعامل المتصلة بينهما . وكان يتم — عادة — تسويتها عن طريق الرسل والسفراء وتبادل المكاتبات (١) .

لم يكتف القلقشندي بإبراز طبيعة العلاقات بين مصر والبندقية في العصرين الأيوبي والملوكي ، بل أوضح أيضاً أن مصر كانت تكتب صاحب البندقية كلما دعت الضرورة إلى ذلك (٢) . وأورد في وثائقه رسم المكاتبه إليه حسبما هو متعارف عليه بديوان الإنشاء بمصر . إذ ذكر أنه كُتب إليه جواب رداً على مكتبة منه بتاريخ رجب ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) ، جاء في مطلعها :

« وردت مكتبة حضرة الدوج ، الجليل ، المكرم ، الخطير ،
الباسل ، الموقر ، المفخم فخرا الملة المسيحية ، جمال

(١) يمدنا « صبح الأعشى » بمعلومات عامة قيمة فيما يتعلق بالكتب الواردة من منوك الفرنج وكبار أهل الغرب إلى مصر . يقول القلقشندي : ان الفرنج لم يراعوا بسطة عامة الفصاحة والبلاغة في مكاتبتهم ، وانه كان من عادتهم التعظيم في تلك المكاتبات (ج ٦ - القاهرة ١٩١٥ - ص ٢٩٩ و ٣٠١) . كذلك يتحدث عن طريقة طي الكتاب عندهم (ج ٦ - ص ٣٥٢) ، ومقادير قطع الورق ونوعه ببلادهم (ج ٦ - ص ١٩٣ و ج ٨ - ص ٦٥) ، والرسائل الواردة بالمكاتبات ، وما يتبع عند وصول رسول من قبل أحد ملوكهم أو حكامهم إلى مصر يحمل رسالة أو رداً على مكتبة (ج ٣ - ص ٤٩٠ و ج ٤ - ص ٥٨ - ٥٩) . وأشار أيضاً إلى الاجراءات التي تتبع بشأن الكتب التي ترد إلى مصر بخط مخالف للخط العربي كاللسان الفرنجي . فكان يتولى ترجمتها إلى العربية من يوثق بهم من أخصاء الدولة ممن يعرف ذلك اللسان ، ثم تقرأ الترجمة على السلطان ويعتمد ما يأمر به في جوابه ليكتب به (ج ٦ - ص ٢١٣ و ٢١٦) . ولهذا السبب أشار صاحب « صبح الأعشى » إلى أهمية معرفة الكتاب بديوان الإنشاء بمصر باللغات الأجنبية ، وهي لغة الكتب التي ترد عليه للملك من الخارج ، وذلك حتى يفهمها ويحجب عنها من غير اطلاع ترجمان عليها ان أمكن ذلك حفظاً لمر ملكه وسلامة بلد . ويقول القلقشندي : ان اللغة الفرنجية تعتبر من اللغات المجدية التي لها قلم يخصها وتكتب به ، وان كتب الفرنج كانت ترد بخطهم ولغتهم (ج ٣ - ص ١٦٥ - ١٦٧) . ومن الواضح أن كتاب ميخائيل دوج البندقية المشار إليه اعلاه قد ورد إلى الأيوبيين السلطانية بمصر باللسان الفرنجي ، وقد قام بنقله إلى العربية اثنان من الترجمة بديوان الإنشاء وقتذاك .

(٢) جدير بالذكر أن القلقشندي لم يحتفظ ضمن وثائقه بأية مكتبة صادرة من ديوان الإنشاء بمصر إلى دوج البندقية على الرغم من اشاراته المتكررة إلى تواتر المكاتبات بين الطرفين .

الطائفة الصليبية ، دوج البندقية : : : : : صديق الملوك
والسلاطين .

وكان رسم المكاتبه إليه في جواب آخر بعث به إليه ردّاً على مكاتبه
وردت منه ، هو :

« وردت مطالعة الدوك الجليل ، المكرم المبجل ، الموقر ، البطل ،
الهام ، الضرغام ، الغضنفر ، الخطير ، مجد الملة النصرانية ،
فخر الأمة العيسوية ، عماد بنى المعمودية ، معز بابا رومية ،
صديق الملوك والسلاطين ، دوك البنادقة (١) » .

ولعلنا نستدل من هذه الألقاب التي كان يخاطب بها صاحب البندقية
عن الأبواب الشريفة بمصر ، مدى ما كان يتمتع به من مركز ممتاز ومكانة
بارزة وشهرة واسعة . ويكشف عن كل ذلك الدور الهائل الذي لعبته
البندقية بالنسبة لتجارة شرق البحر المتوسط . ويكنى أن نعرف أن من
الدنانير التي كانت مصر تتعامل بها عادة ما يعرف باسم « الدوكات » ،
« وهذا الاسم لا يطلق في الحقيقة عليها إلا إذا كان ضرب البندقية » (٢)
ويدل هذا في الوقت نفسه على جودة دنانيرها التي سميت بـ « الدوكات »
نسبة إلى « الدوك » أو « الدوج » (٣) .

لقد غدت البندقية إحدى دول العالم العظمى في العصور الوسطى ،

(١) صبح الأعشى - ج ٨ - ص ٤٧ . وللمزيد من التفصيل انظر الجزء نفسه
- ص ٤٨ وج ٦ - ص ١٧٨ و ١٧٩ . وجدير بالتنويه أن القلقشندي اكتفى هنا بالإشارة
إلى ألقاب دوج البندقية دون إثبات نص الرد الذي بعث به إليه سلطان مصر ، وهو في
ذلك الحين الملك الأشرف شعبان حفيد الملك الناصر محمد . وليس من السهل تفسير سبب
عدم إيراد القلقشندي في كتابه المكاتبات الصادرة عن ديوان الانشاء بمصر إلى صاحب
البندقية سواء كانت ردّاً على رسائل بعث بها الدوج البندقي إلى سلطان مصر أم رسائل
صادرة من مصر إلى الدوج في انتظار رد منه عليها ، خاصة وأن صاحب « صبح الأعشى »
قد عاصر فترة ازدهار العلاقات بين الدولتين وعمل فترة غير قصيرة من الزمن بديوان الانشاء
الأمر الذي كان يسمح له بإثبات تلك المكاتبات .

(٢) صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٢٧ . وتعرف هذه الدنانير أيضاً باسم « البندقي »
انظر ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية - ص ٦٥ .

(٣) صبح الأعشى - نفس الجزء والصفاحة .

وفرضت عليها ظروفها وموقعها أن تبذل أقصى عنايتها لتقدم تجارتها ، وجعل هذا من سكانها أمة عظيمة في البحار في وقت كانت لاتزال فيه بعض أمم الغرب غارقة في عصر الإقطاع . وإذا كانت البندقية تعتبر من أعظم دول البحر المتوسط للدور الكبير الذي قامت به ؛ فقد كان لمصر ، وهي الأخرى من بلاد هذا البحر ، في ميدان التجارة العالمية في العصر الوسيط المتأخر أهمية لا يمكن بحال التقليل من شأنها ، على الأقل قبل أن يكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح في أخريات القرن الخامس عشر . وأدرك البنادقة منذ أمد بعيد الربح الذي يجنونونه من وراء التعامل مع مصر ، فعملوا جاهدين على عقد الصلات مع السلطات الحاكمة فيها (١) .

* * *

وإذا كنا قد تحدثنا عن علاقات مصر بالبندقية في ضوء وثائق « صبح الأعشى » ، فلم يكن دور كل من جنوة وبيزة يقل عنها أهمية في ميدان التجارة البحرية والمغامرات الصليبية . وإذا كانت وثائق « صبح الأعشى » غنية بالمادة التي تكشف عن توطد مركز البندقية في مصر ، فإن المادة التي أمدتنا بها تلك الوثائق فيما يتعلق بكل من جنوة وبيزة كانت أقل من البندقية . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن البندقية كانت تعتبر بالفعل أكبر قوة بحرية في عصر التوسع الصليبي ، وبخاصة في حوض البحر المتوسط ، مما أكسبها هذا الوضع المتميز الذي انفردت به عن زميلتها فيما يتعلق بعلاقاتها مع مصر : ولو أن هذا لا يقلل بحال من الدور الذي قامت به كل من جنوة وبيزة .

لقد كان لكل من جنوة وبيزة علاقات قوية مع مصر قبيل قيام الحركة الصليبية ، وحصلتا من « الفواطم » خلال القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) على امتيازات تجارية كبيرة . وساعدهما على ذلك موقعهما

(١) للمزيد من المعلومات عن العلاقات التجارية بين مصر والبندقية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، واتجار البنادقة مع المصريين رغم تهديدات الكنيسة اللاتينية في هذا الشأن ، انظر ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية (الترجمة العربية) ص ٥٨ - ٦١ .

الجغرافى باعتبارهما من موانى البحر المتوسط ، وهمزة الوصل بين الشرق والغرب .

وتعرف جنوة فى وثائق القلقشندى باسم « بلاد جنوة » (١) و « مملكة الجنوين » ، معتبراً إياها من ممالك الفرنج الكبار (٢) . وقاعدتها مدينة جنوة الواقعة على خليج كبير . ويسمى سكانها « الجنوين » و « الجنوية » . وهم طائفة مشهورة من الفرنج (٣) . أما بيزة فيعرفها القلقشندى فى وثائقه بأنها « بلاد اليازنة » (٤) و « بلاد بيزة » (٥) ويعتبرها من ممالك الفرنج الصغار ، ومركزها بيزة التى هى مرسى جيد وتقع غربى رومية . وسكانها ينسبون إليها ، فيعرفون باسم « اليازنة » (٦) أو « الياشنة » (٧) وهم أيضاً فرقه من الفرنج ، وليس لهم ملك ، وإنما مرجعهم إلى بابا روما (٨) .

ذكرنا أنه قامت علاقات تجارية طيبة بين كل من جنوة وبيزة من ناحية وبين مصر الفاطمية من ناحية أخرى قبل الحركة الصليبية . وفى سنة ١٠٦٣ م عقد مندوب من قبل جنوة معاهدة تجارية مع الفاطميين . وكان كثير من تجارها يفلون إلى ثغر الاسكندرية لاستيراد السلع والبضائع التى كان الغرب فى حاجة إليها . كما كان رعاياها بصفه عامة موضع حماية الدولة ورعايتها . كذلك حرصت بيزة حرصاً شديداً على أن تظل علاقاتها مع الخلفاء الفاطميين ودية . فقد أوفدت فى أواسط القرن السادس الهجرى (أواسط القرن الثانى عشر الميلادى) ، بعد مضى نصف قرن على قيام الحركة الصليبية ، سفيراً من قبلها إلى بلاط

-
- (١) صبح الأعشى - ج ٢ - ص ٢٣٥ ويتحدث القلقشندى بإيجاز عن موقع جنوة وطولها ومنتجاتها وأهلها . انظر ج ٥ - ص ٤٠٥ - ٤٠٦ و ٤١١ .
- (٢) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٠٥ .
- (٣) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٠٥ و ج ١٣ - ص ٨٥ و ٨٨ .
- (٤) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤١١ .
- (٥) صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٢٣٤ .
- (٦) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤١١ و ج ٣ - ص ٢٣٤ .
- (٧) صبح الأعشى - ج ١٣ - ص ٨٨ .
- (٨) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤١١ .

الخليفة الفاطمي الظاهر بالله (١) للعمل على تسوية بعض المشكلات الناجمة عن تعرض بعض تجارها لفريق من التجار المصريين بالسلب والنهب : وعاقبت الحكومة الفاطمية التجار البيازنة المقيمين بمصر بالسجن : وهذه الواقعة قريبة الشبه لما حدث لقنصل البندقية وتجارها بمصر في حادثة مماثلة في عهد السلطان المملوكي الناصر فرج في بدايات القرن الخامس عشر . ولقد نجح سفير بيزة في الوصول إلى تسوية مرضية مع الحكومة الفاطمية ، تعهدت فيها بيزة بالاعتصاف من المعتدين ومعاقبتهم والامتناع عن تقديم أى مساعدة للصليبيين في الشام أو لغيرهم من أعداء مصر ، بينما تعهدت الحكومة الفاطمية من جانبها بإطلاق سراح رعايا مديسة بيزة الذين اعتقلتهم ، وحماية الحجاج والتجار والبيازنة الذين يسافرون في سفن غير حربية (٢) .

لقد اتخذت كل من جنوة وبيزة في علاقاتها بمصر قبل الحركة الصليبية ، موقفا يتفق ومصلحهما الخاصة ، شأنهما في ذلك شأن البندقية . وجاء اشتراكهما في الحملات الصليبية أو انصرافهما عنها نتيجة طبيعية لما تحليه عليهما تلك المصالح (٣) .

وبانتهاء الخلافة الفاطمية وبداية دولة الأيوبيين بمصر في عام ٥٦٧هـ (١١٧١ م) - أى بعد بداية الحركة الصليبية بحوالى ثلاثة أرباع القرن - نجد أن الجنوية والبيازنة يتخلون سياسة ذات وجهين متباينين : أحدهما يقتضى منهما مساعدة الصليبيين ضد المصريين وغيرهم من مسلمي الشرق الأدنى باعتبارهم مسيحيين مثلهم ، فضلا عن الامتيازات العديدة التي

(١) حكم الظاهر بالله من سنة ٥٤٤ الى سنة ٥٤٨ هـ (١١٤٩ - ١١٥٣ م) .

(٢) انظر عن ذلك Heyd, op. cit., I, 391 ff. ; Lane-Poole, op. cit., 182.

راجع أيضا محمد جمال الدين سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٦٠) ص ١٧٣ - ١٧٥ .

(٣) عرف انه في عام ١٠٦٧ م - أى أثناء الحملة الصليبية الأولى - قام أسطول جنوى ينقل الصليبيين الغربيين هم ومؤنهم وامداداتهم عبر البحر الى انطاكية . وبعد ذلك بعامين أرسلت بيزة سفنها بناء على أوامر من البابا الروماني للاستيلاء على بيت المقدس . ومنذ ذلك الحين فصاعدا افتتح شرقي البحر الأبيض المتوسط للصليبيين الغربيين وعلى رأسهم الإيطاليين . انظر : Pirenne, Med. Cities, 64.

يحصلون عليها من وراء ثقل المغامرين الغربيين بسفهم وأساطيلهم . أما الوجه الثاني فيستلزم منهما الحرص قدر الاستطاعة على الإبقاء على العلاقات الطيبة مع مصر التي كانت قائمة من قبل حتى لا تضار مصالحهم الاقتصادية فيها . وكانت هذه السياسة المزدوجة مصدر متاعب لمؤسس الأسرة الأيوبية ، في وقت كان يستعد فيه لتوحيد القوى في المنطقة توطئة لتوجيه ضربة حاسمة إلى الصليبيين في الشام (١) .

ويتضح ذلك من التذكرة التي أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي في بغداد بعد أن استتب له الأمر بمصر (٢) : فقد تضمنت إشارة واضحة إلى مساعدة هاتين الحاليتين للصليبيين ضد المسلمين في مصر والشام : والوسائل التي كانوا يلجأون إليها للإضرار بالإسلام : كما تكشف عن السياسة المزدوجة التي اتبعوها حيال مصر ، والتي لم تكن تستهدف سوى مصلحتهم الخاصة التي كانت أسمى من أي شيء .

أشار صلاح الدين في تذكركه إلى المستنصر بالله إلى مضايقات الجنوئين بخاصة ، والفرنج والروم بعامة :

ونحن نقاتل العلويين (٣) : الباطن والظاهر ، ونصابو الضدين : المنافق والكافر ، حتى أتى الله بأمره ، وأيدنا بنصره ، وخابت المطامع من المصريين ومن الفرنج ومن ملك الروم ومن الجنوئين وأجناس الروم ، لأن أنفارهم تنافرت ، ونصاراهم تناصرت ، وأذاجيل طواغيتهم (٤) رفعت ، وصلب صلبوتهم أخرجت (٥) .

(١) انظر صبح الأعشى - ج ١٣ - ص ٨٨ .

(٢) أشرنا إلى هذه التذكرة عند التعرض للعلاقات بين صلاح الدين والبنادقة .

(٣) المقصود الماخذ آخر خلفاء الفاطميين بمصر (٥٥٦ - ٥٦٧ هـ) والفرنج بالشام .

(٤) طواغيت وطواغ جمع طاغوت ومعناه كل معتد متعبد ، ومعناه أيضا الشيطان والصارف عن طريق الخير ، والمقصود هنا الفرنج المعتلا .

(٥) صبح الأعشى - ج ١٣ - ص ٨٥ .

وهذا النص على جانب كبير من الأهمية ، ويمثل بنا التوقف عنده لتحليله والتعرف على دلالته ومغزاه . وهو يشير باختصار إلى الفترة التي أحاطت بالتحلل السلطة التنفيذية الحاكمة في مصر منذ أوائل حكم العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، في الوقت الذي ازدادت فيه أطماع وزير هذا الخليفة المسمى شاور في الاستيلاء على الحكم ، واتفاقه مع نور الدين محمود سلطان حلب والشام لتحقيق حلمه هذا . في تلك الفترة كان كل من نور الدين والفرنج بالشام واقفين لبعضهما بالمرصاد ، وقد اتجهت أطماع الفرنج للاستيلاء على مصر مستغلين ضعف الدولة الفاطمية . وكان كل منهما يعلم تمام العلم أن نجاحه على خصمه مرهون بنجاحه في أمر واحد هو الظفر بمصر : (١) وانتهى الأمر بعد وقائع ودسائس وحروب إلى تولى أسد الدين شيركوه عامل السلطان نور الدين وزارة مصر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) . ولكن شيركوه مات في جمادى الثانية من تلك السنة (مارس ١١٦٩ م) ، فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ولقب بالملك الناصر ، لأن العادة أن الوزير أصبح يسمى ملكا قبل ذلك بسنوات عديدة ، في وقت ازدادت فيه سلطة الوزراء وأصبح الخلفاء الفاطميين ألعوبة في أيديهم ، وإجابة لرغبة نور الدين قطع صلاح الدين الخطبة عن الخليفة الفاطمي العاضد بالله ، ونودى بها للخليفة العباسي . ولم يلبث أن مات العاضد في محرم ٥٦٧ هـ (سبتمبر ١١٧١ م) ، وانتهى بموته حكم الدولة الفاطمية بمصر ، وبدأت دولة جديدة في الحكم هي دولة الأيوبيين نسبة إلى مؤسسها صلاح الدين الأيوبي . (٢)

(١) انظر عن ذلك ابن شداد : سيرة صلاح الدين - ص ٢٩ - ٣٠ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية - المؤرخون الشرقيون) - ج ١ - ص ٥٢٥ و ٥٤٧ ، ابن شامة : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ج ١ (القاهرة ١٢٨٧ هـ) ص ١٣٦ . راجع أيضا : Stevenson, W.B., The Crusaders in the East (Cambridge, 1907), 187; Lane-Poole, St., The Story of Cairo (London, 1924), 164-7.
(٢) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية - المؤرخون الشرقيون) - ج ١ - ص ٥٧٨ وما يليها .

ولكن الجولم يحل تماماً لصالح الدين ، إذ قامت مؤامرات داخلية في مصر من أجل إحياء الدولة الفاطمية والقضاء على الوزير الجديد . وكان من تدبير المتآمرين الاستنجد بالفرنج في الشام لغزو مصر ، فإذا ما خرج صلاح الدين لصدّهم ، هاجمه المتآمرون من مؤخرته ، وبذلك يسهل القضاء عليه . وكان من الطبيعي أن يرحب الفرنج بهذه الدعوة التي وجدوا فيها فرصة طيبة لتحقيق أطماعهم التي أخفقوا فيها من قبل . وقد تمثل هذا في ثورة مؤتمن الخلافة (١) سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) حيث قلد الفرنج لمساعدة الثائرين فهاجموا دمياط في صفر ٥٦٥ هـ (أكتوبر - نوفمبر ١١٦٩ م) (٢) و ثورة عمارة اليمنى (٣) سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) التي أعقبها هجوم الفرنج على الاسكندرية في ذى الحجة ٥٦٩ هـ (يوليو ١١٧٤ م) (٤) ولكن صلاح الدين تمكن من القضاء على المؤامرين وصد غزوات الفرنج على كل من دمياط والإسكندرية ، والتي أسهم فيهما الجنوية بنصيب ملموس .

نستخرج من العرض السابق للتاريخ السيامي لمنطقة الشرق الأدنى إبان تلك الحقبة من الزمن أن الصراع كان عنيفاً بين القوتين المتنازعتين : الفرنج بالشام ، والقوى الإسلامية الفنية الناهضة بمصر

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية) ج ١ - ص ٥٦٦ - ٥٦٧ . ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ج ٤ (القاهرة

١٣٥٠ هـ) ص ٢١٤ . انظر أيضا :

Casanova, P., «Les Derniers Fâtimites», Mémoires de la Mission Archéologique Française du Caire (Paris, 1893), t. VI, 3e fasc., 430 f.

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين - ص ٣٣ - ٣٤ ، السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة - ج ٢ (القاهرة ١٢٢٧ هـ) ص ١٨ - ١٩ ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر - ج ٣ (آستانة ١٢٨٦ هـ) ص ٥١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية) ج ١ - ص ٥٦٩ - ٦٠١ ، المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - ج ١ (القاهرة ١٢٧٠ هـ) ص ٥٣ ، أبو الفداء : المختصر - ج ٣ - ص ٥٧ . راجع أيضا : Casanova, op. cit., 422, 432.

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين - ص ٣٨ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية) ج ١ - ص ٦١١ - ٦١٤ .

وأن ميزان القوى بدأ يتغير لصالح المسلمين . ونستنتج أيضا أن العدوين اللذين أشار إليهما صلاح الدين في كتابه إلى خليفة العباسيين هما : افرنج الشام وبقايا الفاطميين بمصر . ويوضح الكتاب أن الجنويين والبيارتة قد ساعدوا الفرنج في غزوتهم على مصر ، ولكن صلاح الدين ألحق بهم الهزيمة ، ولم يمكنهم من بغيتهم (١)

لقد وجدت جنوة أن مصلحتها وقتذاك في مساعدة الصليبيين بالشام ضد صلاح الدين بعد أن تنوقت طعم المكاسب التي جنتها من وراء اشتغالها بالتجارة مع مصر في عهد القواطم قبل قيام الحركة الصليبية وبعد أن أحست أن تغير نظام الحكم في مصر سوف يضر بمصالحها الاقتصادية .

وامتدادا لتلك السياسة نجد أنها توافق في أواسط القرن السابع الهجري (أواسط القرن الثالث عشر الميلادي) على تأجير عدد من السفن إلى الملك الفرنسي لويس التاسع ليتسنى له نقل الجند والعتاد والمهمات عبر البحر إلى مصر حتى يضمن لحملته الصليبية النجاح . وعقدت معه اتفاقية بهذا الشأن . (٢) ويكشف موقعها عن تدخل المصالح المادية في الحركة الصليبية : ونجد مثالا جليا لذلك في موقف البحارة الجنوية والبيازنة الذي اشتركوا في نقل جيش لويس التاسع إلى مصر ، وكان قد تركهم في مدينة دمياط بعد استيلائه عليها لحراستها عندما توجه هو وقواته جنوبا صوب العاصمة المصرية بهدف غزوها : إذ يذكر جوانفيل ، مؤرخ سيرة لويس التاسع ، أنه غلبت على أولئك البحارة الإيطاليين الصفة التجارية التي عرفوا بها . ورأوا ألا يعرضوا أنفسهم للخطر ولغضبة المصريين عليهم ،

(١) أشار الفلشندي في تذكرته إلى موقف الجنوية والبيازنة أكثر من مرة . انظر

صبح الأعيان - ج ١٢ - ص ٨٥ و ٨٨ -

(٢) Heyd, op. cit., I, 409 & n. 3. وقد استصدر الملك الفرنسي في أكتوبر ١٢٤٦ م

مرسوما يتعلق باستئجار ست عشرة سفينة جنوية ما بين كبيرة وصغيرة من أجل الحملة على

مصر . انظر :

S. Louis nolisé seize navires génois pour sa première croisade, ed. Les Archives de l'Orient Latin, II (Paris, 1884), 232-6.

عندما علموا بوقوع ملك الفرنسيين ورجاله في الأسر . ولملك قرروا فيما بينهم ترك دمياط والنجاة بأنفسهم حتى لا يلحق بهم ما لحق بالملك الأسير : ولم يهمهم في شيء مصير الحملة وقائدها ورجالها . ويذكر جوانفيل أن أولئك القوم لم يعدلوا عن رأيهم الا بعد أن أغرهم الملكة مارجريت زوجة لويس التاسع بالمال وأدخلهم تحت نفقة الملك الخاصة . (١)

لقد كانت حرفة الجاليات التجارية الإيطالية هي التجارة : وهما الأول والأخير هو الربح والكسب الماتى . وكان هذا من بين الأسباب التى أدت إلى قيام الصراع بينهما فى المعازل اللاتينية فى الساحل الشامى . وكثيرا ما تطور هذا الصراع إلى حروب مكشوفة ذهب ضحيتها الكثيرون . ونجد مثالا لذلك فى الحرب التى نشبت فى مارس سنة ١٢٤٩ م بين الجنوية والبيازنة فى شوارع مدينة عكا ، وكانت وقتها من معازل اللاتين ، وقد استخدمت فيها مختلف آلات الحصار والقتال . وفيها رجحت كفة البيازنة على الجنوية الذين قتل أحد قناصلهم . وانتهى الأمر بعقد هدنة بين الفريقين لمدة ثلاث سنوات ، وتعتبر هذه الحرب طورا من أطوار الصراع المستمر بين الجنوية والبيازنة فى عكا وغيرها من مدن الساحل الشامى الخاضعة للحكم الصليبي . وكانت تقوم فى الغالب لأسباب تتعلق بالمسائل التجارية ، كما كانت من العوامل التى أضعفت قوى الفرنج فى الجيوب المبعثرة المتبقية لهم على امتداد الساحل ، والتى كانوا يتحصنون بداخلها ضد هجمات المصريين ، إلى درجة أنه لم يكن بوسعهم الصمود فى وجه تلك الهجمات أو حتى مجرد الدفاع عن أنفسهم ومعاقلم . (٢)

(١) Joinville, J. de, Histoire de Saint Louis, ed. M. Natalis de Wailly (Paris, 1874), 218.

ومن حسن حظ المكتبة العربية أن قام الدكتور حسن حبشى بترجمة مؤلف جوانفيل ترجمة دقيقة بعد أن زودها بالهوامش المفيدة ومهد لها بدراسة علمية قيمة . انظر جوانفيل : القديس لويس « حياته وحملاته على مصر والشام » - ترجمة وتعليق الدكتور حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٨) ص ١٨٢ - ١٨٣ .

Heyd, op. cit., I, 343-4 ; Grousset, Croisades, III, 433, 436-7. (٢)

وفي تلك الأثناء كان ميزان القوى قد اعتدل نهائياً لصالح مصر والمسلمين في الشرق الأدنى ، وأصبح مركز الثقل يميل بقوة إلى جانبهم بعد أن اتفقت كلمتهم وتوحدت جبهتهم . وأصبح الفرنج بالشام في موقف الدفاع عن كيانهم بوجه عام . وأخفوا يتلقون الضربات تبعاً من خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين ، ومن بعدهم المماليك بمصر ، إلى أن تم طردهم نهائياً من الساحل الشامى سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) ، في عهد السلطان الأشرف خليل .

ومع ذلك لم يأمن المصريون جانب تلك الجاليات التجارية الإيطالية ، وكانت تجاربهم السابقة معها تؤكد شكوكهم في صدق نواياها ومقاصدها . فهم يعلمون جيداً أن التجار الإيطاليين قوم جشعون محبون للمال الذى امتلأت به خزائنها عن طريق التجارة مع الموانئ المصرية الواقعة على البحر الأبيض . وكانوا يدركون أنهم سوف يعيدون الكرة إذا واثمت الفرصة ، حتى يتسنى لهم فتح تلك الأبواب التى أغلقت في وجوههم . وكان سقوط عكا قد وقع فوق رؤوس أهل الغرب وقع الصاعقة ، وأخفوا يعدون العدة لعنوان جديد .

كان الأشرف خليل سلطان مصر يترك ذلك تمام الإدراك حتى إنه بعد حوالى عام من استرداده مدينة عكا عقد هدنة مع صديقه صاحب أرغونة الفرنجى . (١) وجاء في أحد شروط الهدنة أن على صاحب أرغونة مصادقة أصدقاء الملك الأشرف خليل ومعاداة أعدائه : وطلب منه استخدام نفوذه في الغرب ليبعد عن مصر والشام الخطر الذى يتهدهما من قبل الفرنج بصفة عامة والجنوية بصفة خاصة . بمعنى أنه إذا حاول الجنوية أو غيرهم من الفرنج من أعداء الإسلام إلحاق الضرر والأذى بمصر والشام ، فعلى صاحب أرغونة منعهم من ذلك؛ ولو استلزم الأمر التوجه إليهم بسفنه ورجاله لقتالهم حتى يشغلهم عن تنفيذ هدفهم . (٢)

(١) تعرضنا لهذه الهدنة بشئ من التفصيل عند الحديث عن العلاقات بين مصر والبنديقية في عهد الأشرف خليل . انظر ما سبق ص ١٠ - ١١ من هذا البحث .

(٢) انظر صبح الأعشى - ج ١٤ - ص ٦٦ .

كانت الشكوك إذن تساور السلطات الحاكمة في مصر في أخريات القرن الثالث عشر من نوايا أولئك القوم . ولكن بعد أن أخذت الفكرة الصليبية في التقلص والزوال أخذت العلاقات بين جنوة ومصر في التحسن والإزدهار . وقد حفظ لنا صاحب « صبح الأعشى » نسخة كتاب ورد إلى مصر في صفر ٨١٤ هـ (١٤١١ م) في عهد الملك الناصر فرج من القبطان الجنوى بميناء الماغوصة . (١) بقبرص وكان لجنوة وقتها مقدم للشواني في تلك الجزيرة . (٢)

ولأهمية هذا الكتاب يحسن تناوله بشيء من التحليل والتعريف ، مع بيان الظروف التي لا يسته . يفتتح الراسل مكاتبته — حسب عادة الفرنج في مكاتبهم — بذكر اسم السلطان المصري وألقابه . ثم يبدأ بتقبيل الأرض تعظيماً للسلطان المكتوب إليه ، فالدعاء له بطول البقاء . وقد راعى الكاتب في تعظيم المكتوب إليه أن عدل في خطابه عن ضمير خطاب المواجهة إلى معنى الغيبة . بمعنى إجراء المخاطبة في المكاتبه على معنى الغيبة . ولا أن يكون الخطاب فيها خطاب المواجهة . وذلك باعتبار أن المرسل إليه أعظم شأنًا وأرفع قدرًا من المرسل : وأتى الكاتب بعد ذلك بالإهداء ، أى بمحتوى الخطاب ومضمونه والمقصود منه . ثم اختتم الكتاب بالدعاء باقتضاء العدل والإنصاف من السلطان مع دوام البقاء .

يتحدث قبطان الماغوصة الجنوى والمستشارون بها في كتابهم الموجه إلى

(١) الماغوصة : ميناء بقبرص وقد وردت بهذا الاسم في المصادر العربية ، وتعرف في المراجع الأجنبية باسم قماجوسته . وقد كان لصاحب جنوة مقدم على الشواني في هذا الميناء ، وكان رسم المكاتبه إليه عن ديوان الإنشاء بمصر هو « وردت مكاتبه المحتشم ، الجليل ، البجل ، الموقر ، الأسد ، الباسل ، فلان ، مجد الملة المسيحية ، كبير الطائفة الصليبية ، غرس الملوك والسلاطين » ويل ذلك الدعاء ، أما تعريفه فهو « مقدم الشواني الجنوية بقبرص » أنظر صبح الأعشى - ج ٨ - ص ٤٧ . ويلاحظ أن القلقشندي لم يحتفظ لنا ضمن وثائقه التي آتيتها في « صبح الأعشى » بنسخة الكتاب الصادر من مصر إلى قبرص رداً على رسالة القبطان المذكور . كما لم نثمر في وثائق « صبح الأعشى » على أية مكاتبه صادرة من مصر إلى « مقدم الشواني الجنوية بقبرص » .

(٢) هي المكاتبه الوحيدة بين جنوة ومصر التي حفظها لنا القلقشندي . وقد قام بنقلها إلى العربية شمس الدين سنقر وسيف الدين سودون الترجمانان بديوان الإنشاء بمصر وقتذاك . وأنظر « صبح الأعشى » - ج ٨ - ص ١٢٤ .

الملك الناصر فرج عن علاقات المودة والسلم القائمة بين مصر وجنوة ،
 واهتمام جنوة بحماية مسلمى مصر والموانئ الإسلامية من قرصنة البحر ،
 وينهون بالتماس رعاية التجار الجنوية ، والعمل على كف أسباب الضرر
 والأذى عنهم .

وفيما يلي نص الكتاب :

« الملك المعظم ، ملك الملوك ، صاحب مصر المحروسة ،
 الملك الناصر ، عظم الله شأنه » .

يقبل الأرض بين أياديه الكبطان والمستشارون ، وينهون
 أنهم أثناء الليل ، داعون بطول بقائه ، مجتهدون فى
 استمرار الصلح والمودة التى لا يشوبها كدر بين القومون (١)
 وبين مولانا السلطان ، وأن فى هذا الوقت ثم حرامية
 غراب (٢) يتحومون (٣) بأطراف دله البلاد ، والمين (٤)
 الإسلامية ، ونحن لم نزل نشحطهم (٥) بالمراكب
 الأغربة (٦) ، ونمنعهم من ذلك جهدنا وقدرتنا ، حتى
 إن أحداً صار لا يجسر على الدخول إلى ميناء الماغوصة
 جملة كافية ، مع أننا كنا خلصنا فى المدة الماضية من
 الحرامية المذكورين خمسة وعشرين نفرأ من المسلمين ،
 وأكرمناهم وأطلقنا سيبلهم (وعزمتنا أن) (٧) نجهزهم
 إلى دمياط أو إلى ثغر الأسكندرية .

(١) القومون أو الكميون . انظر عن ذلك 127-30, 143-5. Pirene, Med. Cities.

(٢) أى غرياء أو أجاناب .

(٣) فى الأصل يتحرمون ولعلها يتحومون أى يدورون حول .

(٤) المين والموانئ جمع المينا والميناء ، وهو كل مرسى للسفن .

(٥) أى نظاردهم .

(٦) الأغربة أو الغربان جمع غراب ، وهى من أقدم أنواع السفن الحربية ، اذ كانت
 معروفة عند قرطاجنة والرومان وغيرهم ، ولم تزل معروفة حتى أيام الدولة المملوكية .
 والغالب كما يتضح من تسميتها انها كانت على شكل الغراب . انظر ابن مائة : قوانين
 الدواوين - ص ٣٤٠ .

(٧) كذا أوردها المحقق فى المتن ، وأوضح فى الحاشية أنها فى الأصل « وعقبها
 نجهزهم » انظر صبح لأعشى - ج ٨ - ص ١٢٥ ح ١ .

وأما غير ذلك ، فقد بلغنا أن برطلما أوسق (١) للمواقف الشريفة صابوتا في مراكبه ، وكان قصده أن يهرب بذلك ، فللحال عمرنا مركبا كبيرا ، وأخذنا برطلما المذكور بالمخاربة ، وأحضرناه إلى الماغوصة ، وعهدنا بطروق المراكب إلى شخص يسمى أرمان سليوريون ، وهو رجل مشكور السيرة ، وقلنا له أنه يتوجه إلى خازن الصايون المذكور ويستشير إن كان يوسق شيئا من الأصناف لمولانا السلطان ، ويجهزه إلى أى مكان اختاره يسلمه ليد من تبرز له المراسيم الشريفة بتسليمه ، فليفعل : وهذا القول كله يكون دليلا عند مولانا السلطان على صدق الولاء والتمسك بالصلح : والمستول من الصدقات الشريفة الإقبال على التجار الجنوة الذين عند مملكته : وكف أسباب الضرر عنهم ، وينشر معدلته عليهم ، والله تعالى يديم بقاءه بمنه وكرمه. (٢)

وكما كان للدوج البندقية رسم مكاتبة خاص به عن الأبواب السلطانية بمصر ، كذلك كان لحكام جنوة رسم مكاتبة يخصهم . وكان هذا الرسم حتى أواسط القرن الثامن الهجرى (أواسط القرن الرابع عشر الميلادى) كالاتى :

« صدرت هذه المكاتبة إلى حضرة البود شطا (٣) والكبطان الجليلين ، المكرمين ، الموقرين ، المبيجلين ، الخطيرين ، فلان وفلان ، والمشايخ الأكابر المحترمين ، أصحاب الرأى والمشورة ، الكينون بجنوة ، أمجاد الأمة المسيحية ، أكابر دين النصرانية ، أصدقاء الملوك والسلاطين ،

(١) وسق الشيء أى جمعه وحمله .

(٢) انظر صبح الأعشى - ج ٨ - ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٣) يعرف فى المراجع الأجنبية باسم « بودستا » podestà أى حاكم المدينة .
وللمزيد من المعلومات عن هذه الوظيفة ، انظر La Monte, op. cit., 444.

ألفهم الله تعالى رشدهم ، وقرن بالخير قصدهم ،
وجعل النصيحة عندهم » :

بعد ذلك تتضمن المكاتب إعلامهم بكيت وكيت ، وكان تعريفهم
« الحكام بجنوة » . واعتباراً من عام ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) أبطلت المكاتب
إلى « البودشطا » والكبطان بعد إبطامها واستقرت مكانهما المكاتب إلى
« الدوج » بما نصه :

« صدرت هذه المكاتب إلى الدوج الخليل ، المكرم ،
المبجل ، الموقر ، الخطير ، فلان ، والمشايخ » :

والباقى حسبما تقدم فى رسم المكاتب أعلاه : (١)

ومن المصادقات الجديدة بالملاحظة أن المكاتب قد استقرت إلى الدوج
بجنوة فى سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ، وهى نفس السنة التى تعرضت فيها
الإسكندرية لحملة صليبية كبيرة ، والتى تحولت فيها الإسكندرية من
ولاية صغيرة إلى نيابة لها وزنها وقدرها . فقد إزداد اهتمام السلطات
الحاكمة بمصر بأمر الإسكندرية باعتبارها ميناءً على البحر يفرى الغربين
بالمهجوم عليه مثلما فعل صاحب قبرص اللاتينى فى حملته التى شاركه فيها
كثير من الجنوة ، تحقيقاً لأطماعهم التى أصيبت بنكسة عقب طرد
الصليبيين من الساحل الشامى فى آخريات القرن الثالث عشر الميلادى . (٢)

* * *

جاء النشاط التجارى للبندقية وجنوة وبيزة فى شرق البحر المتوسط
والذى تمثل أصدق تمثيل فى العلاقات التى قامت بينها وبين مصر فى عصر
التوسع الصليبي - جاء هذا النشاط معبراً فى واقع الأمر عن تلك الثورة
الاقتصادية الكبرى التى كان التجار الإيطاليون طليعتها ، والتى بدأت
متواضعة فى أواخر القرن العاشر ووصلت ذروتها فى نهاية القرن الثالث

(١) صبح الاعشى - ج ٨ - ص ٤٦ . لم يحدثنا القلقشندي عن رسم المكاتب إلى
المسئولين فى بيضة ، ولعل السبب فى ذلك أن مرجعهم كان إلى بابا روما حسبما ذكر
القلقشندي نفسه .

(٢) انظر عن ذلك

Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 336 f., 339, 341 ff.

عشر : وقد كانت هذه الثورة بلورها نتيجة لعوامل عديدة من بينها احتكاك الغرب بالشرق أثناء الحروب الصليبية ، وزوال عصر الإقطاع في الغرب بحضارته الزراعية الريفية واقتصاده الطبيعي ، ونشأة المدينة بحضارتها المدنية واقتصادها النقدي ونشاطها التجاري والصناعي . وكانت الجمهوريات الإيطالية الثلاث بحكم موقعها الجغرافي الممتاز أسبق من غيرها من أمم الغرب في هذا المضمار ، مثلما كانت أسبق منها إلى عصر النهضة .

وكان التجار الإيطاليون (١) بعد زوال الفكرة الصليبية وانصراف الناس في الغرب عنها يقومون بعملية التصدير والاستيراد بين بلدان الشرق

(١) عندما يتحدث القلقشندي عن اللاتين الغربيين يطلق عليهم صفة عامة «الفرنجة» أو «طائفة الفرنجة» ، كما يطلق على عناصرهم واجناسهم المختلفة عبارة «أمم الفرنجة» أو «سالك الفرنجة» ، وعلى حكمهم «ملوك الفرنجة» . فالمسيحيون في أسبانيا هم «الفرنجة» ، أسبانيا ، وصاحب سقلية «فرنجة» ، و «الكثيلان» أو «الكتيلان» هم جنس من الفرنجة ، وكذلك «التسكان» وأهل طليطلة وقشتالة وأرغونة ، فضلا عن البنادقة والجنوية والبيازنة ، الذين هم طوائف و فرق مشهورة من الفرنجة . و «افرنجة» هي «افرنجة» ، انظر صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٣٧ وج ٥ - ص ٢٧١ و ٢٧٢ و ٢٧٣ و ٢٧٤ و ٤٠٩ و ٤١١ و ٤١٢ و ٤٨٥ و ج ٨ - ص ٣٤ و ٣٦ - ٢٨ وج ٩ (القاهرة ١٩١٦) ص ٢٥٠ وج ١٤ - ص ٢٤ . وهذا يعني أن مفهوم كلمة «الفرنجة» في وثائق «صبح الأعشى» ينسحب على جميع أهل الغرب اللاتيني ، بما في ذلك الجاليات التجارية الإيطالية . ولذلك عندما يتحدث القلقشندي عن التجار الغربيين الذين يتعاملون مع مصر ويفلون على نفري الاسكندرية ودمياط ، يشير اليهم في معظم الأحيان بقوله «تجار الفرنجة» . انظر صبح الأعشى - ج ٢ - ص ٤٥٩ . ويلاحظ أيضا أن جميع المهادنات التي أثبتتها القلقشندي والتي عقدت بين كل من الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل من ناحية وبين الفرنج الشام من ناحية أخرى ، خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، قد تضمنت العديد من البنود التي تتعلق بتجار الفرنج دون إشارة محددة تنص على التجار الإيطاليين بالذات . انظر صبح الأعشى - ج ١٤ - ص ٣٧ و ٤١ - ٤٢ و ٤٥ و ٤٧ و ٥٠ و ٥١ و ٥٨ - ٥٩ و ٦١ و ٦٨ - ٦٩ . كذلك أشار إلى سفن الغربيين التي تنقل البضائع بين مصر والموانئ الغربية على أنها «مراكب الفرنجة» . انظر صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٥٩ . فالإشارة هنا أيضا عامة على الفرنج وسفهم دون تحديد أو تخصيص . وغير خاف أن المنصور بتجار الفرنج التجار البنادقة والجنوية والبيازنة الذين كانوا في واقع الامر يحتكرون التجارة مع مصر وحوض الليقانت . ويمرّز ذلك الاشارات الصريحة التي وردت في بعض وثائق «صبح الأعشى» بخصوص التجار الإيطاليين . انظر : صبح الأعشى - ج ٨ - ص ١٢٣ - ١٢٥ . ولعلنا نخلص مما سبق أن اشارات القلقشندي العامة عن تجار الفرنج الذين كانوا يتعاملون مع مصر وقتذاك إنما تنمى في حقيقة الامر تجار الجمهوريات البحرية الإيطالية . وهذا ما يمكن أن يقال بالنسبة لإشارات القلقشندي إلى مراكب الفرنج .

الأدنى بعمامة ومصر بخاصة من ناحية وبين الغرب الأوروبي من ناحية أخرى . فتأتى سفنهم محملة بالسلع والبضائع من الغرب لتفريغها فى ثغرى الإسكندرية ودمياط ، وللقيام بعمليات البيع والشراء فيها ثم تقلع منها محملة بالبضائع التى كان الغرب فى حاجة إليها . (١) ومن أهم الواردات التى كانت تأتى إلى مصر ، والتى أشار القلقشندي إليها : الممالك والجواري والأخشاب والمعادن ؛ كالفضة ، والذهب ، والحديد ، والنحاس . (٢) وقد اشتهر بصفة خاصة الحديد البيزانى الذى ينسب إلى بيزة ، (٣) والجوخ البندقى نسبة إلى البندقية وهو يفوق كل أنواع الجوخ . (٤) وإن لم يرد نص صريح فى وثائق « صبح الأعشى » عن استيراد مصر لكل من حديد بيزة وجوخ البندقية ، إلا أن إشارات القلقشندي المتكررة إليهما تدل على معرفة مصر بهما فى ذلك الحين ، مما يحملنا على الاعتقاد بأنهما كانت تستوردتهما من هاتين الجهتين .

هذا عن واردات مصر التى كانت تصل إليها من الخارج ، أما أهم السلع التى كانت تصدر من موانئها فهى بعض المواد الأولية اللازمة لصناعة المنسوجات والأقمشة ، وبصفة خاصة قماش الإسكندرية ، والفائق الذى ليس له نظير فى الدنيا ، (٥) وكذلك المرجان الذى يحمل من الإسكندرية

(١) صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٥٩ و ٤٦٦ .

(٢) صبح الأعشى - ج ١٣ - ص ٩٦ و ١٤ - ص ٦٨ . ويذكر القلقشندي أن الفضة كانت تصل إلى مصر من بلاد الفرنج وغيرها ، وأن ورودها انقطع من سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٧/١٣٩٨ م) ، فقلت الفضة ويطل ضرب النرام بمصر إلا فى القليل النادر . انظر صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٦٣ . كما أشار صاحب « صبح الأعشى » إلى قلة الوارد من النحاس إلى مصر فى زمنه حتى أن العملة التى كان الناس يتعاملون بها أخذت فى التناقص لصغرهما ونقصت أوزانها . وجاء فى إشارة أخرى أنه لم يعد يصل من معدن النحاس شيء حتى لقد صدرت الأوراق بإبطال دار الضرب بمصر نحو شهرين إلى أن يحضره الفرنج لاستعماله . انظر : صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٤٠ و ٧ (القاهرة ١٩١٥) ص ٢١٣ . ويعكس هذا الوضع الحالة الاقتصادية فى مصر زمن القلقشندي من حيث غلاء الاسعار ، وتدهور العملة المستعملة ، وعدم ثبات صرف الذهب . انظر صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٢٨ و ٤٤٠ و ٤٥٠ و ٤٦٣ - ٤٦٤ .

(٣) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤١٧ و ٣ - ص ٢٣٤ .

(٤) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٠٥ .

(٥) صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٠٤ و ٤ - ص ٨٤ و ١٤٣ .

إلى سائر البلاد (١) ، والسكر الذى كان يصدر أيضا إلى أكثر البلاد (٢) وبعض الأحجار النفيسة : كالزمرد ، والبلسان ، أو البلسم الذى كان ملوك مصر يهادون به ملوك الفرنج وغيرهم لعظم شأنه (٣) ، وغير ذلك من الأحجار والمعادن التى كانت تستخرج من مصر مثل النطرون والشب واللازورد (٤) وأما الملح فقد كان من أهم صادرات مصر إلى بلاد الفرنج (٥) بالإضافة إلى التوابل الواردة إلى مصر من الهند واليمن (٦) ، والتى يقوم التجار الإيطاليون بلورهم بنقلها على سفنهم من موانئ البحر الأبيض إلى الغرب :

وتتمتع أولئك التجار فى حلهم وقرحالمهم - بصفة عامة - برعاية الدولة وحمايتهم . فقد كانت تحسن وفادتهم ، وتؤمنهم على أنفسهم وحياتهم وأموالهم وبضائعهم وتعمل على رفع الظلم عنهم ، ونشر العدل بينهم بما يعود على البلاد من خير وفائدة . ووثائق صبح والأعشى واضحة فى ذلك تمام الوضوح إذ تلقى نسخ التواقيع الخاصة بنظر ثغر الإسكندرية (٧) ونظر الصادر الخاص بتجار الفرنج بها (٨) ، وكذلك نسخ المكاتبات والمهادنات بين مصر والفرنج ، ضوعا كافياً على ذلك .

(١) صبح الأعشى - ج٢ (القاهرة ١٩١٣) ص ١١٦ .

(٢) صبح الأعشى - ج٣ - ص ٣٠٩ .

(٣) صبح الأعشى - ج٣ - ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٤) صبح الأعشى - ج٢ - ص ٢٨٣ - ٢٨٤ و ٣٠٥ و ٣٠٧ و ٤٥٦ .

(٥) ذكر القلقشندى أن « بحيرة بوقير هى بحيرة ماء ملح يخرج من البحر الرومى بين الاسكندرية ورشيد ، ولها خليج صغير مشتق من خليج الاسكندرية .. وبجوانبها الملاحات الكثيرة التى يحمل منها الملح الى بلاد الفرنج وغيرها » . انظر صبح الأعشى - ج٣ - ص ٣٠٣ .

(٦) صبح الأعشى - ج٤ - ص ٣٢ و ١ .

(٧) متولها يسمى ناظر الاسكندرية أو ناظر المباشرة ، وهى من الوظائف الديوانية التى يكتب بها بشفرة الاسكندرية ، وموضوعها التحلث عن الأموال السلطانية بالاسكندرية ما يتحصل من المأخوذ من تجار الفرنج وسائر المتاجر الواسلة برا وبحرا بالقبض والصرف والحمل الى الأبواب السلطانية « انظر صبح الأعشى - ج١١ (القاهرة ١٩١٧) ص ٤١٩ .

(٨) من الوظائف الدينية التى يكتب بها بشفرة الاسكندرية ، « وموضوعها التحلث فى قدر مقرر يؤخذ من تجار الفرنج الوادئين الى ثغر الاسكندرية .. » انظر صبح الأعشى - ج١١ - ص ٤١٦ .

ففي توقيع بنظر ثغر الإسكندرية كتب به للقاضي جمال الدين بن
بصاصة حوالي ٦٧٨ هـ (١٢٨٠ م) (١) ، جاء ما يلي :

« ويجتهد في تحصيل أمواله (٢) وتنمية
متاجره ، ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذي كانوا
ألفوه منه والرفق الذي نقلوا أخباره السارة عنه ، فإنهم
هدايا البحور ، ودوابه الثغور ، ومن ألسنتهم يطلع على
ما تجنه الصدور ، وإذا بذل لهم حب الإحسان نشروا
له أجنحة مراكبهم كالطيور ، وليعتمد معهم ما تضمنته
لاراسيم الشريفة المستمرة الحكم إلى آخر وقت ، ولا
يسلك معهم حالة توجب لهم القلق والتظلم والمقت (٣)

وفي نسخة توقيع الصادر الخاص بتجار الفرنج في ثغر الإسكندرية
كان ينسج على منوالها ويستضاء بها فيما يكتب من هذا النوع ،
جاء ما يلي :

« (وليتلق) كذلك تجار الجهة الغربية الواردين
إلى الثغر المحروس من أصناف المسلمين والفرنج : فليحسن
لهم الوفاة وليعاملهم بالمعاملة المستفادة ، فإن مكاسب
الثغر منهم ومن الله الحسنى وزيادة : : : : (٤)

وفي تذكرة سلطانية كتب بها عن السلطان الملك الصالح على بن
الملك المنصور قلاوون الصالحى ، لكافل السلطنة بالديار المصرية ،
الأمير زين الدين كنبغا ، عند سفر الملك الصالح إلى الشام واستقرار كنبغا
نائباً عنه في سنة ٦٩٩ هـ (١٢٧١ م) - نجد إشارة لها أهميتها عن التجارة

(١) لم يحدد الفلشنهوى تاريخ التوقيع ، ولكنه أعقبه بنسخة توقيع ثانية بإعادة
النظر بغير الإسكندرية لابن بصاصة في سنة ٦٧٨ هـ (١٢٨٠ م) ، مما يبين أن التوقيع
الأول كان حوالي ذلك الوقت أو قبله بقليل . انظر صبح الأعشى - ج ١١ - ص ٤٠ - ٤٢ .

(٢) المقصود ثغر الإسكندرية .

(٣) صبح الأعشى - ج ١١ - ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٤) صبح الأعشى - ج ١١ - ص ٣٢٠ .

والتجار الفرنج تحت عنوان « فصل الثغور المحروسة » جاء فيها بعد بيان أهمية الثغور :

« والتيقظ لمهمات الثغر ، واستجلاب قلوب التجار ، واستمالة خواطرهم ؛ ومعاملتهم بالرفق والعدل حتى تتواصل التجار وتعمر الثغور » (١) .

وبدل هذا على مدى اهتمام مصر باجتذاب تجار الفرنج إلى موانئها نظراً للمكاسب الهائلة التي كانت تعود عليها من وراء ذلك .

وتتميز نسخ المهادنات المعقودة بين مصر والفرنج في عهود الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل ، فيما بين عامي ٦٦٥ و ٦٩٢ هـ (١٢٦٧ - ١٢٩٢ م) ، والتي أثبتهم القلقشندي في كتابه - بأهميتها فيما نحن بصددده . فقد وردت بها إشارات عديدة تتعلق بتأمين التجار الفرنج بالشام وغيرهم من الوافدين من الغرب . ولم ترد في هذه المهادنات إشارات صريحة تخص التجار الإيطاليين ، وإنما كانت الإشارة إلى تجار الفرنج بصفة عامة . وغير خاف أن المقصود تجار المدن البحرية الإيطالية الذين كانوا يقومون بعمليات التصدير والاستيراد بين مصر والشرق الأدنى الإسلامي من ناحية ؛ وبين الغرب اللاتيني من ناحية أخرى (٢) والذين احتكروا تجارة شرفى حوض البحر المتوسط مثلما احتكروا عملية نقل الصليبيين على سفنهم إلى الشرق زمن العدوان الصليبي .

في هذنة عقدت بين الظاهر بيبرس (٣) وجماعة الفرسان الإسبتارية بحصنى : الأكراد والمرقب بالشام ، تاريخها يوم الإثنين ٤ رمضان ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) ، وردت إشارة تنص على ضرورة تأمين التجار والسفار على أنفسهم وأموالهم وكل ما يتعلق بهم ، وذلك في البلاد التي وقعت الهذنة عليها (٤) . وفيما يلي نص البند المشار إليه :

(١) صبح الأعشى - ج ١٢ - ص ٩٦ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ٢٥ ح ٢ من هذا البحث .

(٣) تولى الظاهرة بيبرس الحكم ١٨ سنة من ٦٥٨ إلى ٦٧٦ هـ (١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) .

وينبغ على الظن أن حكمه انتهى بقتله مسموماً .

(٤) مدة الهذنة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات . انظر النص

الكامل للهذنة في كتاب صبح الأعشى - ج ١٤ - ص ٣١ - ٣٩ .

«.... على التجار والسفار والمتردين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين : الجهة الإسلامية ، والجهة الفرنجية والنصرانية في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها - على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم ، بحميم السلطان ولوابه»

وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المتردين على أى طريق اختاروه من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر ، وبلاد معاهديه ، وبلاد المناصقات ، وخاص بيت الأسبتيار والمناصقات ، يكون الساكنون والمترددون في الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال ، تحمي كل جهة الجهة الأخرى (١) .

وفي هدنة ثانية عقدت بين بيبرس وبين ملكة بيروت الفرنجية بتاريخ الخميس ٦ رمضان ٦٦٧ هـ (١٢٦٩ م) ، إشارة تنص على عدم تحصيل رسوم من التجار الفرنج لم تجر العادة بها ، وأن يكون التجار آمنين مدة أربعين يوماً بعد انقضاء المدة المتفق عليها في الهدنة (٢) .

«.... وعلى ألا يحدد على أحد من التجار المتردين رسم لم تجر به عادة ، بل يجرون على العوائد المستمرة والقواعد المستقرة من الجهتين»

.... وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلا في هذه الهدنة ، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلا في هذه الهدنة

.... وعند انقضاء الهدنة يكون التجار آمنين من الجهتين

(١) صبح الأعشى - ج١٤ - ص ٢٧ .

(٢) لم يضمن النص أى إشارة الى مدة الهدنة . انظر النص الكامل لها في صبح

الأعشى - ج١٤ - ص ٣٩ - ٤٢ .

مدة أربعين يوماً ، ولا يجمع أحد منهم من العودة إلى
مستقره (١) .

وفي الهدنة الثالثة عقدت بين بيبرس وولده الملك السعيد (٢) وبين
جماعة الفرسان الأسبانية على قلعة المرقب بالشام في مستهل رمضان ٦٦٩هـ
(١٢٧١ م) (٣) ، إشارة واضحة إلى الإتفاق على تقسيم ما يتحصل من
التجار الفرنج والمصريين مناصفة بين الجهتين الفرنجية والإسلامية :

« وكل ما هو من الموانئ والمراسي البحرية المعروفة
جميعها بمحصر المرقب : من مينا بلدة إلى مينا القنطرة المجاورة
لخلود مرقبة - تكون هي وما يتحصل منها من الحقوق
المستخرجة من الصادرين والواردين والتجار ، وما يتعقد
عليه ارتفاعها ، وتشهد به الحسابات - جميعه مناصفة .
وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع على اختلافها يؤخذ
الحق منه مناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من
حين أخذ بيت الأسباني المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة
مناصفة على العادة الجارية ، بل تجرى التجار في الحقوق على
عادتهم في البضائع التي يحضرونها والمتجر كائناً من
كان ... (٤) » .

وفي أحد شروط الهدنة آتفة الذكر بند خاص بتأمين التجار المصريين
والفرنج على أرواحهم وأموالهم من ناحية كل من الظاهر بيبرس والفرسان
الأسبانية ، وهو بند تضمنته جميع المهادنات التي سجلها القلقشندي في
« صبح الأعشى » :

(١) صبح الأعشى - ج١٤ - ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) تولى الملك السعيد بن الظاهر بيبرس الحكم لمدة سنتين حتى ٦٧٨ م
(١٢٧٩م) وانتهى حكمه بقلعه وكان عمره ٤٠ سنة وقتها .

(٣) مدة الهدنة عشر سنين وعشرة أشهر . انظر نصها الكامل في صبح الأعشى
- ج١٤ - ص ٤٢ - ٥١ .

(٤) صبح الأعشى - ج١٤ - ص ٤٤ - ٤٥ .

•...: وعلى أن التجار السفارة والمتردين بالبضائع من بلاد المسلمين والنصارى متى ما خرجوا من الموانئ المحدودة أعلاه يتوجهون بخفارة (١) الجهتين من غير حق : لا يتناول من الخفارة شئ منسوب إلى نفوسهم إلى أن يخرجهم ويحضرهم إلى بر حدود المرقب آمنين مطمئنين تحت حفظ الجهتين . ومتى وصل التجار من مملكة السلطان إلى بلاد المرقب وموانئها ، فالترتيب على الخفارة من الجهتين ، مع تدارك الرؤساء الحفظ للطرق صاعداً ووارداً ، بحيث إنهم يحضرون إلى بلاد المرقب : ، وإلى الموانئ بالمرقب المحدودة أعلاه ، طيبين آمنين على أرواحهم وأموالهم بالخفارة من الجهتين ، على ما شرحناه « (٢) » .

وورد في نفس الهدنة نص ثالث جاء به أنه في حالة فسخها يؤمن التجار من الجهتين ، وقد تحدت المدة التي يؤمنون فيها على أنفسهم وأموالهم بأربعين يوماً . وفيما يلي النص :

«.... ومتى وقع -- والعباذ بالله فسخ بسبب من الأسباب ، كان التجار والسفار آمنين من الجهتين ، وتكون النهاية لهم أربعين يوماً » (٣) .

وفي هدنة رابعة عقدت بين الملك المنصور قلاوون الصالحى (٤) وولده الملك الصالح على وبين حكام الفرنج بعكا وما معها من بلاد سواحل الشام في يوم الخميس ٥ ربيع الأول ٦٨٢ هـ (١٢٨٣ م) ، إشارات عديدة لها أهمية خاصة في هذا الشأن (٥) . إذ جاء في أحد بنودها شرط

(١) أى حراسة .

(٢) صبح الاعشى - ج ١٤ - ص ٤٧ .

(٣) صبح الاعشى - ج ١٤ - ص ٥٠ - ٥١ .

(٤) تولى المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى الحكم ١٢ سنة ، من ٦٧٨ الى ٦٨٩ هـ (١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) ، ومات وهو فى السبعين من عمره .

(٥) مدة الهدنة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات . انظر النص الكامل لها فى صبح الاعشى - ج ١٤ - ص ٥١ - ٦٣ .

خاص بما يتبع حيال مراكب الطرفين التي تنكسر أو تفرق في البلاد التي انعقدت عليها الهدنة ، وكيفية معاملة من عليها من التجار :

« ... وعلى أنه إذا انكسر مركب من مراكب تجار السلطان وولده التي انعقدت عليها الهدنة ، ورعيتهما من المسلمين وغيرهم ، على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، في مينا عكا وسواحلها ، والبلاد الساحلية التي انعقدت عليها الهدنة ، كان كل من فيها آمناً على الأنفس والأموال والأتباع والمتاجر : فإن وجد أصحاب هذه المراكب التي تنكسر تسلم مراكبهم وأموالهم إليهم وإن عدوا بموت أو غرق أو غيبة ، فيحتفظ بوجودهم ويسلم لنواب السلطان وولده . وكذلك المراكب المتوجهة من هذه البلاد الساحلية المتعقد عليها الهدنة للفرنج ، يجرى لها مثل ذلك في بلاد السلطان وولده . ويحتفظ بوجودها إن لم يكن صاحبها حاضراً إلى أن يسلم لكفيل المملكة بعكا أو المقدم » (١) .

ونص بند آخر في نفس الهدنة على ما يتبع عند وفاة أحد التجار من الجهتين ، من حيث المحافظة على أمواله إلى أن يتسلمها المختصون :

« ومنى توفي أحد من التجار الصادرين والواردين : على اختلاف أجناسهم وأديانهم من بلاد السلطان وولده في عكا وصيدا وعثليت ، والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة على اختلاف أجناسهم وأديانهم (فيحتفظ على ماله حتى يسلم لنواب السلطان وولده) ، وإذا توفي أحد في البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة ، يحتفظ على ماله إلى حين يسلم إلى كفيل المملكة بعكا والمقدمين » (٢) :

(١) صبح الأعشى - ج ١٤ - ص ٥٨ - ٥٩ .

(٢) صبح الأعشى - ج ١٤ - ص ٥٩ .

هذا ، بالإضافة إلى النص الذي يرد عادة في مثل تلك المهادنات الخاص
بتأمين التجار المسافرين وعدم تحصيل شئ منهم لم تجربه العادة :

« ... وعلى ألا يجدد على التجار المسافرين : الصاحرين
والواردين من الجهتين حق لم تجر به عادة ، ويجروا على
عوائدهم المستمرة إلى آخر وقت ، وتؤخذ منهم الحقوق
على العادة المستمرة ، ولا يجدد عليهم رسم ولا حق لم تجر به
عادة . وكل مكان عرف باستخراج الحق فيه يستخرج
بذلك المكان من غير زيادة من الجهتين ، وفي حالتي سفرهم
ولإقامتهم ، ويكون التجار ، والسفار ، والمترددون آمنين
مطمئنين مخففين من الجهتين في حالتي سفرهم وإقامتهم ،
وصلورهم وورودهم بما صحبتهم من الأصناف والبضائع
التي هي غير ممنوعة » (١) .

وإذا نظرنا إلى الأمور نظرة أكثر عمقا ، وربطنا بين تلك
المهادنات التي أسلفنا الإشارة إليها وبين الأحوال السياسية السائدة
في الشرق الأدنى وقتذاك ، نجد أن إمارات اللاتين بالشام كانت وقتها
أى في النصف الثاني من القرن الثالث عشر — قد فقدت الأمل بالفعل
في أية مساعدة يقدمها لها أهل الغرب الكاثوليكي تمكينا من صد
هجمات المماليك البحرية . لقد أخذ المماليك بمصر في توجيه الضربات
القاضية إلى حكم اللاتين بالساحل الشامى . فزرى الظاهر ببيرس
يغير على ممتلكاتهم فيما بين سنتي ٦٦٣ و ٦٦٦ هـ (١٢٦٥ — ١٢٦٨ م)
والتي يتوجها انتصاره عليهم في أنطاكية في رمضان ٦٦٦ هـ (مايو
١٢٦٨ م) . وكان احتلال هذا الحصن المنيع نذيرا بانهيار حكم الصليبيين
وتلاشي دولتهم في الشرق (٢) ثم واصل المنصور سيف الدين قلاوون

(١) صبح الأعشى — ج ١٤ — ص ٦١ .

(٢) راجع النويرى : نهاية الأرب في فنون الأدب — مخطوط مصور بدار الكتب
المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة — ج ٢٨ — لوحة ٩٤ — ٩٦ : الكتيبي : قوات الوفيات
— ج ١ (القاهرة ١٢٩٩ هـ) ص ٨٧ و ٨٩ ، المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك =

سياسة بيبرس من حيث شنه الهجمات المتكررة على باقى ممتلكات اللاتين بالشام ، وأهمها استيلائه على طرابلس فى ربيع الآخر سنة ٦٨٨ هـ (ابريل ١٢٨٩ م) (١) ويتوج السلطان الأشرف خليل هذا الجهاد المتصل باستيلائه فى جمادى الأولى ٦٩٠ هـ (مايو ١٢٩١ م) على عكا آخر معاقل الصليبيين الهامة بالأرض المقدسة . ولم يبق لهم بعدئذ على الساحل الشامى سوى أمكنة فردية ضعيفة هى : صيدا وصور وحيفا طردهم المسلمون منها فى نفس السنة (٢) وفى ظل هذه الظروف التى تم فيها القضاء على البقية الباقية من سلطنة اللاتين الغربيين فى الأراضى المقدسة ، والتى اعتدل فيها ميزان القوى بشكل واضح وحاسم لصالح المسلمين ، تم إبرام المهادنات المشار إليها أعلاه بين المسلمين والفرنج بالشام ، تلك المهادنات التى تضمنت بنودا صريحة تكشف عن هذا التغيير الكبير الذى طرأ على ميزان القوى بين الفريقين فى رقعة الشرق الأدنى : وتبين أن سلاطين المماليك كانوا يملكون إرادتهم على إفرنج الشام وهم فى مركز القوة .

وإذا كانت تلك المهادنات تكشف عن مدى اهتمام الجهات المستولة بمصر بأمر التجارة لما كانت تدره عليها من أموال ساعدتها على تقوية نفسها وتعزيز جيشها وأسطولها فى مواجهة الصليبيين الغزاة فى فلسطين فى وقت أخذ فيه المماليك بمصر زمام المبادرة بينما التزم أعداؤهم بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن كيانه المتمدن بوجه عام - فإن المكاتبات التى تبودلت بين سلاطين المماليك والفرنج بالشام إبان تلك الحقبة من الزمن لا تقل فى أهميتها ودلائنها عما تقدم .

من ذلك ؛ الكتاب الذى بحث به ميخائيل دوج البندقية سنة ١٤١١م

= نشر وتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة - ج ١ قسم ٢ (القاهرة ١٩٣٦) ص ٥٦٧ - ٥٦٨ .

(١) المقرئى : السلوك - ج ١ قسم ٣ (القاهرة ١٩٣٩) ص ٧٤٧ - ٧٤٨ .
(٢) بيبرس النواذير المصورى : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة - مخطوط مصور
بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٢٨ تاريخ - ج ١٠ - لوحة ٢٨٢ - ٢٨٩ . انظر
أيضا ص ٢٠ ح ٤ من هذا البحث .

(٨١٤ هـ) مع رسوله نيقولا البندقي إلى الملك الناصر فرج : وقد أشار فيه إلى تردد التجار البنادقة على الديار المصرية وهم آمنين مطمئنين يتمتعون بعدل السلطان ورعايته . وفي ختام الكتاب يوصي الدوج السلطان المملوكي خيرا بالقتصل البندقي في الإسكندرية وبالرعايا والتجار البنادقة حتى يطمئنوا على أنفسهم ويترددوا على مملكته (١) .

وثمة كتاب آخر ورد من القبطان الجنوى بميناء الماغوصة بقبرص إلى الناصر فرج في نفس السنة ، يلتمس فيه حسن معاملة التجار الجنوية في مصر ونشر العدل بينهم والتحقيق في شكاياتهم مع كف أسباب الضرر عنهم . وقد أوضح القبطان في رسالته أن المراكب الجنوية لا تتوانى من ناحيتها عن حماية مسلمي مصر من التجار والمسافرين من مضايقات القراصنة الأجانب (٢) .

وإن دل هذا على شيء فعلي انتعاش حركة التجارة في مصر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر بعد موت الفكرة الصليبية ، وعلى تردد التجار الإيطاليين عليها وهم آمنين . وكان المسئولون بمصر يذلون جهدهم لتهيئة سبل الراحة والإقامة لهم ، والمبادرة بحل مشاكلهم ، والنظر في شكاياتهم . وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن مصر كانت تبادر بوقفهم عند حدهم والتشدد في معاملتهم إذا تصرفوا تصرفا يضر بالبلاد ومهالها العليا . ونجد مثلا لذلك في موقفها من تصرفات بعض التجار البنادقة والجنوية زمن الناصر فرج :

وثمة دلائل على أن السلطات الحاكمة بمصر قد وجهت اهتمامها لاجتذاب أكبر عدد من التجار الإيطاليين إليها . واستلزم ذلك توجيه المزيد من الاهتمام إلى الثغور المصرية ، وبخاصة ثغرى الإسكندرية

(١) صبح الأعشى - ج ٨ - ص ١٢٣ - ١٢٤ . هذا ، ولم نعث في وثائق « صبح الأعشى » على رد السلطان المملوكي على رسالة دوج البنادقة ، كذلك لم نستدل من تلك الوثائق ما يبين أنه بحث برده عليها .

(٢) صبح الأعشى - ج ٨ - ص ١٢٤ - ١٢٥ . صيقت الإشارة الى هذين الكاين في شيء من التفصيل والتحليل عند التعرض للعلاقات بين كل من البندقية وجنوة من ناحية وبين مصر من ناحية أخرى .

ودمياط ، وكان هذان الثفران محط أولئك التجار ، ومركزا لنشاطهم الاقتصادي . ووثائق « صبح الأعشى » غنية بالمادة في هذه الناحية .

لقد كانت الإسكندرية موضع اهتمام خاص باعتبارها أجل الثغور المصرية ، فهي تمتاز بموقعها التجاري الممتاز على البحر المتوسط ، ومينائها الصالح لرسو السفن . كما كانت توجد بها « الأسواق الممتدة وفيها ينسج القماش الفاخر الذى ليس له نظير في الدنيا ، وإليها تهوى ركائب التجار في البر والبحر » (١) . إذ تأتي إليها سفن الفرنج محملة بال بضائع ليبيعها للتجار المسلمين (٢) وكانت الإسكندرية قبل حملة بطرس الأول لوسنيان حاكم قبرص اللاتيني عليها سنة ٧٦٧ هـ (١٢٦٥ م) مجرد ولاية عادية . ولكنها استقرت بعد ذلك نيابة (٣) يكتب لنائبها تقليد من الأبواب الشريفة بمصر (٤) وكان استحداث هذه النيابة في عهد الملك الأشرف شعبان بن حسين (٥) ، مما يكشف عن الاهتمام الذى أخذ المسئولون يوجهونه إليها وقتذاك .

وإذا كانت الاسكندرية لموقعها الممتاز قد اجتذبت التجار الإيطاليين إليها ، فلم تكن دمياط تقل عنها أهمية . إذ امتازت بتفوقها الصناعي (٦)

(١) صبح الأعشى - ج٢ - ص ٤٠٤ .

(٢) صبح الأعشى - ج٢ - ص ٤٥٩ و ٤٦٦ .

(٣) صبح الأعشى - ج١١ - ص ٤٠٥ .

(٤) صبح الأعشى - نفس الجزء والصفحة - انظر نسخة التقليد الخاص بنباية ثغر الاسكندرية الذى أثبتته القلشندي في صبح الأعشى - ج١١ - ص ٤٠٥ - ٤٠٧ . ويتضح منه مدى اهتمام المسئولين بمصر بأمر الثغور ، مما اقتضى العمل على رعاية التجار ونشر العدل بينهم . وجدير بالذكر أن الوظائف التى كان يكتب بها بئشر الاسكندرية كانت على نوعين . الوظائف الدينية وهى ثلاث : القضاء والحسبة ونظر الصادر ، والوظائف الديوانية وهى الأخرى ثلاث : ناظر المباشرة ويعرف أيضا بناظر الاسكندرية ، ونظر كتابة الدرج ، ونظر دار الطرؤ . انظر صبح الأعشى - ج١١ - ص ٤٠٨ - ٤٢٦ .

(٥) صبح الأعشى - ج٧ - ص ١٥٦ .

(٦) اشتهرت دمياط في العصر الوسيط ، وبخاصة في عهد الأيوبيين ، بأنها مدينة صناعية هامة تخصصت في صناعة النسيج واشتغلت بتصديره الى الأسواق الخارجية . وتحدث عن ذلك الجغرافيون العرب وكاتب المسالك والممالك . انظر اليمقوي : كتاب

البلدان - منشور في Kamal, Y., Monumenta Cartographica Africae et Aegypti, t. III, fasc. I (1930),

وموقعها الفريد من التاحتين الجغرافية والتجارية : والواقع أن مركزها الساحلي بين مصب فرع الدلتا الشرقى وساحل البحر الأبيض جعل منها سوقا تجارية دولية تنقل إليها بضائع الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر والنيل — تلك البضائع التى تحملها سفن الفرنج فى البحر المتوسط إلى سواحل مصر والشام ، ومنها تنقل إلى الغرب الأوروبى . وكانت هذه التجارة تدر على سلطان مصر أرباحا طائلة . (١) لذا كانت محاولات الغربيين احتلال الإسكندرية ودمياط فى عصر التوسع الصليبي من أشد وسائل مضايقة المصريين وعرقلة تجارتهم مع العالم الخارجى . (٢)

وهكذا كان تجار الجمهوريات الإيطالية يقدون على هذين الثغرين اللذين « ثاقى إليهما مراكب الفرنج بالبضائع فتبيع منهما ما تحتاج إليه من البضائع » (٣) .

كان هذا الاهتمام الزائد الذى وجهته مصر إلى التجارة والتجار الفرنج من جهة ، وإلى الموانئ والثغور المصرية المطلة على البحر الأبيض من جهة أخرى ، له ما يبرره ويدعو إليه . فقد كانت التجارة مصدر ثروة طائلة بالنسبة للبلاد أكسبتها القوة والمنعة فى الداخل والخارج . إذ ظلت دولة المماليك بمصر هى الدولة القوية التى لامنافس لها فى رقعة الشرق الأدنى

= الاصطخرى : مسالك الممالك - منشور فى Kamal, op. cit., t. III, fasc. II (1932), 586.

ابن حوقل : المسالك والممالك والمغازى والممالك - منشور فى Kamal, op. cit., t. III, fasc. II, 652.

التزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد - (طبع جوتنجن ١٨٤٨م) ص ١٢٩ ، على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة - ج ١٠ (القاهرة ١٣٠٥ هـ) ص ٤٦ .

(١)

Jacques de Vitry, Historia Hierosolimitana, ed. Y. Kamal, Monumenta Cartographica, t. III, fasc. IV, 944 ; Guillaume de Tyr, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, ed. Kamal, op. cit., t. III, fasc. IV, 908 ; cf. also : Heyd, Hist. du com., I, 384.

(٢) نجد مثلا واضحا لذلك فى حملتى جان دى برين ولويس التاسع على دمياط فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وكذلك حملة بطرس لوستيان على الإسكندرية فى أواسط القرن الرابع عشر . ومن الواضح أن محاولات الغربيين الاستيلاء عليهما معناه أن يصبح فى يد الغزاة موردا ماليا له أثره فى توجيه السياسة العامة للدولة .

(٣) صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٥٩ .

حتى أواخر القرن الخامس عشر . ويكنى أنها تمكنت من إلحاق الهزيمة بالنتار في بداية عهدها ، كما أفلحت في طرد الصليبيين من الساحل الشامي في أواخر القرن الثالث عشر ، والوقوف في وجه الحملات الصليبية المتأخرة في القرن الرابع عشر ، ثم تأديب الغريين بحملات إسلامية مضادة خلال القرن الخامس عشر (١) .

وكانت الأموال التي امتلأت بها خزائن مصر تأتي عن طريق المكوس والضرائب التي يتم تحصيلها على بضائع التجار الوافدين على ثغرى الاسكندرية ودمياط . (٢) ولهذا السبب كان الاهتمام الزائد بتحصيل الأموال منهم ، و عدم التفريط في مستخرج حقوق المراكب الواصلة ، ولا يقلل متحصلها ، ولا ينقص حملها . (٣) وكان المقرر في الشرع هو أخذ العشر من بضائع التجار إذا شرط ذلك عليهم . وفي منذهب الشافعي أن للإمام أن يزيد في المأخوذ عن العشر وأن ينقص عنه إلى نصف العشر إذا دعت الحاجة إلى الازدياد من جلب البضاعة ومن الممكن أن يرفع ذلك عنهم إذا استوجبت المصلحة ذلك أيضا . وجدير بالذكر أنه كيفما كان تحصيل المكوس فلا يزيد على مرة واحدة من كل تاجر في كل سنة حتى لورجع إلى بلاه ثم عاد بالتجارة في نفس السنة ، فلا يؤخذ منه شيء اكتفاء بما أخذ منه في المرة الأولى .

كانت هذه هي القاعدة المتبعة حيال التجار الوافدين بالبضائع على مصر بصفة عامة . ويخص القلقشندي تجار الفرنج بكلمة في هذه الناحية : إذ يذكر أنه تقرر أن يؤخذ منهم الخمس أى ضعف العشر عن كل ما يصل لهم ، وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضاً : (٤) وفي بعض المهادنات التي

(١) جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات البقطة العربية إبان المدوان الصليبي
- ص ٣٠ - ٣١ و ٣٥ و ٣٧ وما بعدها والحواسي .

(٢) صبح الأعشى - ج٣ - ص ٤٦٦ .

(٣) صبح الأعشى - ج١٣ - ص ٩٦ . انظر تذكرة الملك الصالح علي بن المنصور
قلاوون لكافل السلطنة بصر الأمير كينغا سنة ٦٩٩ هـ (١٢٧١ م) في صبح الأعشى - ج١٣
ص ٩١ - ٩٨ .

(٤) صبح الأعشى - ج٣ - ص ٤٥٩ . وهذه المكوس المتحصلة على البضائع الواردة =

أبرمت بين سلاطين مصر من المماليك البحرية وبين إفرنج الشام خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر، مثل هدنة رمضان ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) بين الظاهر بيبرس والفرسان الاسبتارية، كان يتم الاتفاق على مناصفه ما يتحصل من التجار من الضرائب والمكوس في الثغور والموانئ التي تشملها الهدنة، وفقا للعادة المتبعة (١).

وكان يتم تقدير المقلدات بواسطة الموازين والمقاييس المتعارف عليها : ومن أهم آلات المعاملة بمصر وقتذاك الميزان والذراع . (٢) أما عن العملات التي كان يتم التعامل بها ، فهناك الدينار المصرية التي يتم التعامل بها وزنا كالذهب المصري . وهناك ما يأتي إلى مصر من العملات المسكوكة في غيرها من الممالك الفرنجية ، ويتم التعامل بها معادة . وهي عبارة عن دنانير معلومة الأوزان يؤتى بها من بلاد الفرنج ، وعلى أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه وعلى الوجه الآخر صورتا القديسين بطرس وبولس . وتعرف هذه العملات باسم «الدينار الإفرتيه» نسبة إلى «إفرنسة» أو «إفرنجية» . (٣) وهناك نوع آخر من الدينار يعرف باسم «الدوكات» ، وهو لا يطلق إلا على الدينار التي تضرب في الهندية نسبة إلى صاحبها «الدوك» أو «الدوج» . (٤) ويبدو من إشارات القلقشندي المتكررة إلى «دوكات» البندقية أنها كانت منتشرة بمصر في عصره وأنه كان يتم التعامل بها ، مما يكشف عن ثباتها واستقرارها ،

١- إلى مصر مع التجار منها ما يختص بالديوان السلطاني مثل البضائع التي قد تصل للتجار المسلمين إلى ساحل الاسكندرية ودمياط فيؤخذ منها المرتب السلطاني على ما توجيه الضرائب ، ومنها ما لا اختصاص له بالديوان السلطاني والمقصود به المكوس المتفرقة بالبلاد . انظر صبح الأعشى - ج٣ - ص ٤٦٤ - ٤٦٧ .

(١) انظر صبح الأعشى - ج١٤ - ص ٤٥ .

(٢) صبح الأعشى - ج٢ - ص ١٤٦ و ١٤٧ - ١٤٨ .

(٣) الإفرتية جمع افرتي وأصلها افرتي نسبة إلى افرتة وهي مدينة من مدن الفرنج ، وربما قيل فيها افرتية التي تنسب إليها طائفة الفرنج ، وهي مقر ملكهم الذي يعرف بالفرنسيس ، أي ملك الفرنسيين . انظر صبح الأعشى - ج٣ - ص ٤٣٧ .

(٤) صبح الأعشى - نفس الجزء والصفحة .

فضلا عن الحظوة التي كانت تتمتع بها البندقية من قبل مصر : ولاشك أن تلك الحظوة تفوق تلك التي كانت تتمتع بها كل من جنوة وبيزا .

لقد أولى القلقشندى موضوع التجار الفرنج وعلى رأسهم التجار الإيطاليين ، الذين يقلون على مصر إهتماما كبيرا في وثائقه . فزاه يحدثنا بإسهاب وتفصيل عن ألقابهم التي اصطلح عليها لمكاتباتهم عن الأبواب الشريفة بمصر وتكشف هذه الألقاب عن المكانة التي كان يتمتع بها أولئك التجار من ناحية ، والصفات الواجب توافرها فيهم من ناحية أخرى . فهم الرسل والسفار بين الملوك والقادة والحكام ، وهم المصلحون بين القوم ، وهم المؤتمنون على الأسرار . أما الصفات الواجب توافرها فيهم فهي ، في المرتبة الأولى : الصدق ، والأمانة ، والإخلاص والإستقامة ، والثقة ، وحسن السمعة ، وكتمان السر ، وما إلى ذلك من الخصال الحميدة .

فمن ألقابهم التي أشار إليها صاحب « صبح الأعشى » « السفري » نسبة إلى السفير ، وذلك لسفارة التاجر منهم بين الملوك وتردده في الممالك بلحلب الجوارى والممالك ونحو ذلك . (١) ويلقب الواحد منهم « المصدر » لتصدره في المجالس ، وهو أيضا « الصلبرى » نسبة إلى المصدر للمبالغة (٢) . وهو « المقرب » لأنه مقرب عند الملوك ومن في معناهم « المقربى » نسبة إليه للمبالغة . وهو كذلك « المنتخب » و« المختار » وهو « المؤتمن » لأنه يؤتمن على الممالك والجوارى في السفر وعلى أخبار الممالك وأحوالها فلا يفشى أسرارها ، (٣) وهو « الأمين » لآتيانه على ما يحمله من بضائع و« الأميى » نسبة إليه للمبالغة . ويلقب أيضا بـ « أوحد الأكابر » و« أوحد الكبراء » و« تاج الأمانة » و« ثقة الدول » وقد خص التجار بهذا اللقب الأخير لترددهم في الدول والممالك ، ويلقب به أيضا المترددون في الرسائل بين الملوك . ومن ألقاب التجار أيضا ألقاب مثل :

(١) صبح الأعشى - ج٦ - ص ١٥ ×

(٢) صبح الأعشى - ج٦ - ص ١٨ .

(٣) صبح الأعشى - ج٦ - ص ٢٠ و ٢١ .

«جمال الأكابر»، «وزين الأكابر»، «شرف الأصفياء المقربين»
واللقب الأخير من ألقاب كبار التجار، وكذلك «شرف الرؤساء في
العالمين»، وفخر الأعيان»، «وفخر الرؤساء»، «وفخر الصلور»،
«ومجد الرؤساء»، «ومجد الصلور»؛ و «مقرب الحضرتين» إذا كان
مرتددا بين مملكتين، و «مقرب الدول وهذا اللقب الأخير أعم من سابقه
وهو أيضا ناصح الملوك والسلطين» (١). ومن بين ألقابه «المحتشم»
ويذكر صاحب «صبح الأعشى» أنه من الألقاب التي اصطلاح عليها
لتجار الفرنج بالذات، والمقصود بذلك الرئيس الذي له خدم
وحشم (٢).

وإذا كانت وثائق «صبح الأعشى» قد أمدتنا بمادة وفيرة في
هذه الناحية تعبر عن وجهة نظر كاتب مصرى عاش في أواخر العصر
الوسيط، فهناك من الجانِب الآخر وثيقة باللاتينية ترجع إلى نفس
الوقت تقريبا كتبها أحد التجار الإيطاليين عنوانها «التاجر» تعزز ما
جاء في كتاب القلقشندي. وتعاصر الوثيقة المذكورة سقوط القسطنطينية
في أيدي الأتراك العثمانيين وانتهاء حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا،
أى أنها تعاصر نهاية العصر الوسيط بفلسفته ومثله وتقاليده المعروفة، وبداية
عصر النهضة بمفاهيمه ومبادئه الجديدة المغايرة. إذ تغير وضع التجار
كثيرا عما كان عليه من قبل، وتحسن مركزهم تحسناً ملموساً خلال الأربعمئة
سنة الممتدة من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر، أكثر مما طرأ
على أحوالهم من تغيير في القرون التالية. وغنى عن البيان أن من أهم مظاهر
العصر الوسيط المتأخر هو قيام طبقة التجار التي كان التجار الإيطاليون

(١) انظر صبح الأعشى - ج٦ - ص ١٠ و ١٣ و ٢٨ و ٢٩ و ٤١ و ٤٢ و ٥٢ و ٥٥ و ٥٦ و ٦٢ و ٦٨ و ٦٩ و ٧١ و ٧٣ .

(٢) صبح الأعشى - ج٦ - ص ٨٣ . وقد ذكر القلقشندي أن الألقاب السابقة
تطلق على التجار بصفة عامة ومن بينهم تجار الفرنج بطبيعة الحال، اللهم الا إذا حدد
التجار الفرنج . وعلى هذا فالألقاب المذكورة تنسحب على تجار الجمهوريات البحرية
الإيطالية، كالبنديقة وجنوة وبيزة، الذين كانوا يتعاملون مع مصر مثلما تنطبق على
غيرهم من التجار .

طليعتها ، واحتلال هذه الطبقة الجديدة مكانة مرموقة في المجتمع مما جعلها تسيطر على اللوردات الإقطاعيين في الغرب ، وتشكل المجتمع هناك تشكيلا يختلف تماماً عما كان سائداً من قبل .

وتعرض هذه الوثيقة الهامة للتاجر ومهنته ، وهي تدعم ماجاء في وثائق « صبح الأعشى » وتسند في نفس الوقت الفجوات التي لم ترد بها . يذكر الكاتب الإيطالي أن التاجر يجب أن يكون مستعداً للتضحية بكل شيء في سبيل الصالح العام ، مبيناً أن ما أصابته الجمهوريات الإيطالية من تقدم ورخاء إنما يرجع الفضل فيه إلى التجارة : ذلك أن التجارة تؤدي إلى تلبية الاحتياجات المتبادلة بين المدن والبلدان . ويقوم التجار بدور هام في هذا الشأن : فهم الذين يجلبون معهم في رحلاتهم وأسفارهم كميات وافرة من العملات والjoyهرات ومختلف أنواع المعادن كالذهب والفضة وهم الذين يهيئون سبل العيش والرزق للفقراء والمعوزين . كذلك يؤدي تصديرهم للبضائع واستيرادهم لها إلى ازدياد حصيلة القوائد والرسوم الجمركية التي تقوم الجمهوريات المشتغلة بالتجارة بجبايتها ، فتمتلئ خزائنها بالمال ، وتنتعش أحوالها . وإذا كان للتجارة مزاياها فهناك صفات يجب توافرها في التاجر ، من أهمها حسن التدبير ، والاقتصاد دون تقتير أو تبذير ، والثبات . والاعتدال ، والاستقامة والإخلاص . فكل هذا يساعد على إنماء ثروتهم وتحسين أحوالهم : يضاف إلى ما تقدم أن التاجر يجب أن يتعاون بإخلاص مع من يتعامل معهم في حياته الخاصة والعامة . ففي المجال الخاص يجب أن يرتبط بأسرة شريفة في حياة مستمرة مثمرة . وفي المجال العام يجب أن يتعاون تعاوناً صادقاً مع غيره من أرباب المهن والحرف ، ومع سادة المجتمع من رجال الدنيا والدين : ويشترط في التاجر أن يكون مثقفاً صالحاً . فالتاجر المثقف الصالح يفد عليه الجميع من كل مكان لرؤيته والتعرف عليه والتحدث معه والاستماع إليه والإفادة منه ، طالما هم بحاجة إليه . وإلى خبراته التي اكتسبها من أسفاره ومن ممارسته للتجارة . وفي ختام الوثيقة يشير إلى السمعة الطيبة والسيرة الحسنة والثقة الكبيرة التي

يجب أن يتمتع بها التاجر في عمله وفي علاقاته بالآخرين : ويقول إن إيصالا عاديا لأحد التجار الموثوق بهم يعتبر إيصالا قانونيا معترفا به دون أى شهود أو إثباتات ، في حين تنعدم الثقة في أى شخص آخر مهما كانت رتبته ما لم تكن هناك ضمانات وتحولات كافية . وحتى يحافظ التاجر على هذا المركز الرفيع الذى يتمتع به يجب أن يخلص نفسه مما لا يليق بكرامته وشرف مهنته . فيكون جادا في حديثه ، مترنا في خطواته ، محافظا على شرفه ، معتدلا في تصرفاته ، حسنا في سيرته . (١)

ولمتسائل أن يقول : هل كانت هذه المثل العليا في ميدان التجارة والتي أشار إليها كل من القلقشندى والكتب الإيطالية تراعى على طول الخط؟ الواقع أنها كثيرا ما كانت تنتهك ، مما يكشف عن الفجوة الواسعة بين النظرية والتطبيق في مجتمع العصور الوسطى . لقد سبق الكاتبين المسلم والمسيحي ، واعظ من الرهبان الفرنسيسكان عاش في القرن الثالث عشر يدعى برنولد أوف ريغنسبورج Berthold of Regensburg . وتحدث في إحدى عظاته عن أهمية الثقة والسمعة الطيبة في التجارة ، وضرورة تمسك التجار بالقيم والمثل العليا من حيث الأمانة وعدم الغش ومراعاة النعمة والضمير في عملهم . ثم يقول إن هذه المثل لم تكن تراعى تماما . ويتحدث عن الوسائل العديدة التي كان التجار يلجأون إليها لخداع الشعب المسكين والحصول على السلع بأرخص الأثمان . ويعلق أحد المؤرخين الغربيين المحدثين ، وهو جورج جوردون كولتون G. G. Coulton على ذلك قائلا إن ما أكدته ريغنسبورج في القرن الثالث عشر ، كان لا يزال هو الوضع القائم خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، اللذين انتهت بهما العصور الوسطى وبدأت تبشير عصر جديد (٢) .

(١) انظر الترجمة الانجليزية للوثيقة المذكورة في كتابي Downs, N. (ed.), *Basic Documents in Medieval History* (New York, 1959), 184-6 ; Lopez & Raymond (trans.), *Medieval Trade in the Mediterranean World*, 416-8.

(٢) انظر كولتون : عالم العصور الوسطى في النظم والمضارة (الترجمة العربية)

ط . ثانية - ص ١٩٧ - ١٩٩ و ٢١٣ - ٢١٤ .

ولكن في أواخر القرن الخامس عشر يحدث تغيير هام كانت له آثاره الخطيرة في التاريخ والاقتصاد العلمى وقد ترك أثره في العلاقات بين ممالك مصر والجمهوريات التجارية الإيطالية : ففي عام ١٤٩٨ م تمكن فاسكودى جاما Yascoda Gama البرتغالى من تطويق رأس الرجاء الصالح والاتفاف حول طرف افريقية الجنوبي في طريقه إلى الهند : ولقد أدى اكتشاف البرتغاليين لهذا الطريق التجارى الحديد من ناحية إفريقيا إلى انزعاج الممالك الجراكسة (١) في مصر وضياع الثروة الهائلة التى كانوا يجنونها من وراء التجارة مع العالم الخارجى بصفة عامة ومع الجمهوريات البحرية الإيطالية بخاصة . وقاموا ببعض المحاولات للدفاع عن كيانهم دون جدوى ، إذ كان الزمام قد أفلت من أيديهم ولم يعد من الممكن لإرجاع عقارب الساعة إلى الوراء . وقد ترتبت على ذلك نتائج بالغة الأهمية من حيث ضعف الممالك في مصر إلى أن انتهى الأمر بزوال حكمهم بعد انتقال التجارة من حوض البحر المتوسط والدول المحيطة بشواطئه إلى المحيط الغربى وأممه . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ؛ أوجدت الثروة الفرصة أمام التجار الإيطاليين والأغنياء لتشجيع العلوم والآداب والفنون ، مما عجل بزوال آخر آثار العصر الوسيط ومهد لظهور عصر النهضة في التاريخ الأوروبي الذى مهد بدوره للعصر الحديث ومدنيته الزاهرة . (٢)

(١) حكم الممالك الجراكسة من سنة ٧٨٤ الى سنة ٩٢٣ هـ (١٣٨٢ - ١٥١٧ م) .

La Monte, J., The World of the Middle Ages (New York, 1949), (٢)
732; Painter, S., A History of the Middle Ages: 284-1500 (London, 1966),
477-8; Mackie, J. D., The Earlier Tudors: 1485-1558 (Oxford, 1966),
4, 224; Bailly, A., La Sérénissime République de Venise (Paris, 1946),
167-70.

٨

نظرة جغرافية في "صبح الأعشى"

بقلم: الدكتور محمد محمود الصياد

لم يكن شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي رحمه الله جغرافيا ، ولا هو ادعى ذلك . وإنما هو مؤلف متنور يرى في الجغرافية أداة ضرورية لتكوين الكاتب المثالي ، وكان ذلك الكاتب على عهد القلقشندي هو النموذج الطيب للرجل المثقف بلغة العصر الحديث :

فالجغرافية إذن أساس رئيسي من أسس الثقافة العامة ، ولا تكتمل ثقافة المرء إذا لم يأخذ منها بنصيب كاف ، ولهذا فلم يكن غريبا أن يفرد لها القلقشندي المقالة الثانية من المقالات العشر التي تضمنها كتابه « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » ، وهي مقالة طويلة تشمل نصف الجزء الثالث والجزء الرابع بأكمله ومعظم الجزء الخامس من الكتاب في طبعته التي نشرتها دار الكتب المصرية في أربعة عشر جزءا ، وهي بهذا تشغل نحو ١٥ ٪ من صفحات الكتاب الكبير ، يضاف إلى هذا فصول أخرى متفرقة ذات صلة وثيقة بالجغرافية ، وإن لم يدرجها القلقشندي في المقالة الخاصة بها وكذلك الفصل الذي ورد في خاتمة الكتاب والذي يتحدث فيه المؤلف عن وسائل النقل والمواصلات ، هذا فضلا عما يتفرق في الكتاب بصفة عامة من معلومات جغرافية متنوعة ، تختلف باختلاف الموضوعات التي يتناولها القلقشندي بالبحث في فصول الكتاب ومقاصده وجمله ومهايمه ، إلى غير ذلك من الأقسام التي يقسم إليها المؤلف كتابه :

منهج القلقشندي الجغرافي

يقسم القلقشندي مقالته في الجغرافية أو في « المسالك والممالك » كما سماها إلى أربعة أبواب ، الأول في ذكر الأرض على سبيل الإجمال والثاني في ذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء ومقراتهم ، والثالث

في ذكر مملكة الديار المصرية ، أما الباب الرابع فموضوعه الممالك
والبلدان المحيطة بمملكة الديار المصرية .

والواقع أن هذا المنهج الذي اختاره القلقشندي لمقالته منهج سليم
إلى حد بعيد من وجهه النظر الجغرافية ، فهو يبدأ بالصورة العامة
للأرض وما اشتملت عليه من الأقاليم الطبيعية ، ويعني بصفة خاصة
بالبحار التي يتكرر ذكرها بلذكر البلدان ، سواء ما كان منها خارجا
من البحر المحيط ، أو ما ليس له اتصال بهذا البحر ، ثم يفرد فصلا
خاصاً بكيفية استخراج جهات البلدان والأبعاد الواقعة بينها ، فإذا
وضعنا في النعن أن القلقشندي لم يكن يستهدف وضع كتاب لأصحاب
الجغرافية ، بل كان هدفه تصنيف المعلومات الجغرافية العامة التي
يحتاج إليها الكاتب ، لأدركنا أهمية هذا الفصل الخاص بالعموميات
فلا معنى أن نعرف بلداً بأنه يقع على البحر الفلاني ، في حين أن البحر
الفلاني نفسه غير معروف لمن نتحدث إليه .

وقد يعرض البعض على القلقشندي في تخصيصه الباب الثاني من المقالة
لذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء ومقراتهم ، ويرى أنه أقبح على المقالة
إقحاماً ، والواقع أن في هذا ظلماً للقلقشندي ومنهجه ، فالرجل في نظرنا لم يقصد
أن يتحدث عن الخلافة كخلافة ، وإنما قصد أن يتحدث عن الجغرافية
السياسية ، للدولة الإسلامية ، وكيف نشأت هذه الدولة ، ثم اتسعت رقعتها
على عهد الخلفاء الراشدين ومن جاء من بعدهم من خلفاء بني أمية في الشام ،
وخلفاء بني العباس في العراق وخلفاء الفاطميين بمصر ، والخلفاء الأمويين
في الأندلس ، وكيف تغيرت عواصم هذه الدولة من عصر إلى عصر بتغير
البيت المالك . ولو أن جغرافياً أراد أن يرسم خريطة لحدود الدولة
الإسلامية وتطورها على مر العصور لما وجد مصدراً يتصف بالإيجاز الواضح
يعينه في رسم خريطته أفضل من الباب الذي كتبه القلقشندي عن الخلافة .

وكان طبعياً بعد أن رسم القلقشندي بالكلمة خريطة الدولة الإسلامية
أن يفرد باباً للجغرافية الديار المصرية ومضافاتها ، أو ما يخل تحت حكمها

بلغة العصر الحديث . وبعد هذا الباب من أهم أقسام «صبح الأعشى» بل
لأنه لا يزال حتى الآن يقف فريداً في بعض نواحيه ، وهو يبدأ بذكر فضائل
مصر وعما أسسها على عادة الكتاب في عصره والعصور التي سبقت ، وربما
ذهب بعض الجغرافيين المحدثين إلى أن هذه الطريقة في الكتابة لا تتفق مع
المنهج العلمي السليم ، ونحن نوافقهم من وجهة النظر الجغرافية المحضة ، ولكننا
من ناحية أخرى نرى في هذا الأسلوب طريقة لتربية الإحساس بالوطن
والاعتزاز به ، ولا تقوى النزعة الوطنية في شعب من الشعوب إلا إذا هو
أحب الوطن الذي يعيش على ترابه ، وعرف الكثير من محاسنه وما يتميز
به عن سائر الأوطان .

وبعد أن يشبع القلقشندى هذه الرغبة في نقوس قرائه بما يورده من آيات
قرآنية وأحاديث نبوية يلتفت إلى النيل صانع الحياة في مصر ومغذياً على الأيام
فيتحدث عن فيضانه والمقاييس المقامة عليه والخلجان المتفرعة منه والחסور
الحابسة ؛ ليخلص من هذا إلى وصف الأراضي المصرية وإنتاجها والأقسام
الإدارية التي تنقسم إليها ، ويعطى صورة جغرافية البلاد الاقتصادية على عهد
الأيوبيين والمماليك .

فإذا ما وفي الرجل وطنه الصغير حقه من الدرس ، انتقل إلى وطنه
الإسلامي الكبير بادئاً بالديار الشامية التي تتأخم حلود وطنه الأول والتي
تربطها به كثير من الوشائج ، فيتحدث عنها وعما يتصل بها من بلاد الجزيرة
الفراتية وبلاد الثغور والعواصم ، وهي التي تعرف الآن بأرمينيا ، وبلاد
البريندات أي بلاد الروم ، ومنهجه في هذا الحديث هو نفس المنهج الذي
سار عليه في وصف مصر فهو يفصل الحديث عن فضائل بلاد الشام وأنهاها
وبحيراتهما وجبالها المشهورة ، وأعمالها والكور التي تنقسم إليها وزروعها
وفاكهتها ، وهو في هذا كله دقيق الملاحظة ، معنى بالتفصيلات ، حريص
على أن يقارن بين مصر والشام كلما دعت الحاجة إلى ذلك ؛ فنهج «العاصي»
حمل هذا الاسم لأنه لا يسبق الأرض إلا بطريق السواقى بعكس النيل الجواد
الذي يفيض بمائه فيملأ الأحواض ، وفي الشام من المزروعات ما ليس
بمصر .

من ذلك البندق والأجاص والزيتون وهو كثير جداً ، ولا يوجد بها
البلح والرطب أصلاً ، كما لا يزرع فيها الكتان .

وينفس المنهج الذى اختطه القلقشندى لنفسه يتحدث عن البلاد
الحجازية ، وما ينخرط فى سلكها ، إذ كان الحجاز حتى ذلك العهد فى دائرة
النفوذ المصرى ، وللحجاز مكانة خاصة فى نفس كل مسلم ؛ فهو مهبط
الوحى ومولد الرسول ومقر الكعبة التى إليها قبلة المسلمين فى مشارق
الأرض ومغاربها ، والحج إلى مكة ركن من أركان الإسلام ؛ ومن ثم فهى
جديرة بمحدث طويل عن خططها وكعبتها ومشاعر الحج الخارجة عنها ،
ولكن الحجاز نفسه هو أيضاً خليق بدراسة مياهه وعيونه وجباله وزروعه
وفواكهه ومواشيه ووحوشه وغاليقه ومدنه وقراه .

ولكن الأمبراطورية المصرية لاتقوم فى العالم وحدها بل إنه يحيط بها
بلدان وممالك مختلفة تربطها بها علاقات طيبة حيناً وسيئة فى بعض
الأحيان ، وحتى إذا لم تكن هذه العلاقات قائمة ، فإن المثقف لابد له
من الوقوف على أحوال هذه البلاد ليترك مكانة بلاده فى العالم الذى
يعيش فيه . ولهذا نجد القلقشندى يذلل فى الباب الرابع إلى الحديث عن
الممالك والبلدان المحيطة بالدولة المصرية من الجهات الأربع والطرق الموصلة
إليها ، ويبدأ بما يقع منها فى جهة الشرق ، فيتحدث عن الممالك الصائرة
إلى بيت جنكيزخان - أى أراضي الأمبراطورية المغولية - ويقسمها مملكتين
هما : إيران التى تمتد من نهر جيحون المحيط بآخر خراسان إلى الفرات
القاطع بينها وبين الشام ، والتى تنقسم إلى ستة أقاليم . ثم مملكة توران
بأقسامها الثلاثة . ويذكر أنه يدخل فيها ممالك كثيرة وبلاد واسعة وأعمال
شاسعة وأمم مختلفة لاتكاد تحصى ، ويتحدث بإسهاب عن هذا الجزء
من العالم فيعطى صورة جيدة للدولة الأردو الذهبى :

ثم يعود القلقشندى إلى جزيرة العرب فيتحدث عن الممالك القائمة
فيها ، مما هو خارج عن مضافات الديار المصرية ، فيتحدث عن اليمن
وبلاط الخليج العربى بما فى ذلك عمان ، ثم يتناول مملكة الهند ومضافاتها

ويقسمها إلى إقليمين عظيمين هما : إقليم السند وما انخرط في سلكه من مكران وطوران والبدهة وبلاد القفص والبلوص ، ثم إقليم الهند ويقصد به شبه الجزيرة التي تمثل معظمها هضبة الذكن .

وبلى ذلك فصل عن البلاد التي تقع إلى الغرب من الديار المصرية وما سامت ذلك ووالاه من جهة الشمال ، وهى مملكة تونس المشتملة على بلاد إفريقية ، ومملكة تلمسان وتشمل المغرب الأوسط ، ومملكة فاس وتشتمل على بلاد المغرب الأقصى حتى البحر المحيط ، وهو التقسيم الذى لا يزال معمولاً به حتى الآن فى الشمال الإفريقى حيث تنقسم بلاد المغرب إلى وحداتها الثلاث : تونس والجزائر والمملكة المغربية . ولا يفوت القلقشندى أن يتحدث فى هذا الفصل عن ممالك جزيرة الأندلس وما بقى منها بيد المسلمين وما استعادت منها أوروبا المسيحية .

أما البلاد الواقعة إلى الجنوب من الديار المصرية فتضم بلاد السودان بمعناها الواسع أى من ساحل البحر الأحمر إلى ساحل المحيط الأطلنطى وتضم بلاد البجا والنوبة والبرنو والكانم ومالى . والحبشة ، وإلى الشمال من مصر يصف القلقشندى بعض الجزر الموجودة فى البحر المتوسط ، ومنها : قبرص ورودس واقریطش وهى كريت الخالية وصقلية وسردانية وقورسقه (كورسيكا) ثم يصف بلاد الروم (آسيا الصغرى) ثم يتطرق إلى الحديث عن الألمان والبنادقة والجنوئين ورومية ، ونجده فى الحديث عنها يشير إلى أن مصدره هو هورشيوش مؤرخ الروم . ولعلها المرة الوحيدة فى المقالة الجغرافية التى يشير فيها القلقشندى إلى مصدر غير عربى ، ثم يواصل صاحبنا الحديث عن البلاد الأوروبية الأخرى فيتكلم عن مملكة الفرنج القديمة وهى فرنسا ومملكة الجلالقة (غاليسيا) ومملكة اللنبردية (لمبارديا) ثم ينتقل إلى ما يقع من أوروبا فى شمال القسطنطينية والبحر الأسود أو بحر نيطش إلى نهاية المعور فى الشمال ، فيتناول بلاد الجركس والبلغار والصرب والصقالبة والجولمان والروس والباشقرد ، ويلاحظ أن حديثه

عن هذه البلاد يتسم بالإيجاز ، وهذا هو المتظر ، فقد ظلت المعلومات عن هذه البلاد قليلة حتى عهد قريب ، ولكن الذى نعجب له أن بلاد الجركس لا تظفر منه بأكثر من خمسة سطور يذكر فيها أن «الظاهر يرقوق صاحب الديار المصرية جلب منهم من الممالك أيام سلطته ما يربو على العدد حتى صار منهم معظم جند الديار المصرية ، وصارهم جمال مواكبها ، والملك باق فيهم إلى الآن » . أفلم تكن بلاد هؤلاء وهم جند مصر وأصحاب الشأن فيها جديرة بأن يدرسها القلقشندي بشئ من التفصيل بدلا من سطور معدودة يتقلها عن السلطان عناد الدين صاحب حماه ؟ ولو أن القلقشندي حاول هذه المحاولة لما أعجزته المصادر فيما نظن ، فقد كانت حركة جلب الممالك مستمرة . وكان «الجلابون» يتوافلون على مصر دون انقطاع ، وكان في استطاعة القلقشندي أن يجمع الشئ الكثير عن طريق الرواية والسمع عن بلاد الجركس وخصائصها وظروف الحياة فيها .

مصادر القلقشندي :

وأهم ما يلاحظ على القلقشندي أنه كاتب أمين ، ينسب كل مقولاته إلى أصحابها لا يدعى منها شيئا لنفسه ، والجغرافية علم واسع الحدود حتى يمكن للجغرافي أن يخرج من أى كتاب بفائدة جغرافية ابتداء من كتب اللغة والفقه حتى كتب الرياضة والفيزياء ، وقد أفاد القلقشندي فائدة محققة من الكتب العديدة التي نظر فيها ، وهو عادة يذكر الكتب مقرونة بأسماء مؤلفيها ، ولكنه قد يخرج عن هذه القاعدة أحيانا فيكتفي بذكر اسم الكتاب أو اسم المؤلف ، وربما كانت هذه الكتب مشهورة على عهده فاعتقد أن اسم الكتاب يغني عن اسم مؤلفه وبالعكس ، ومن هذه الكتب التي لم يذكر أسماء مؤلفيها : الروض المعطار والقانون ، وتاريخ النيل ، ورسم المعمورة ، وغيرها .

ونلتقي في القسم الجغرافي من صبح الأعشى بكثير من الكتب التي تنتمي إلى المدارس الجغرافية المختلفة : نلتقي بالمسالك والممالك لابن

خرداذبة ، والمسالك والممالك لابن حوقل ، ومروج الذهب للمسعودي ، وصفة جزيرة العرب للهمداني ، والمسالك والممالك للمهلب ، ومعجم ملاستعجم للبكري ، ونزهة المشتاق لالدريسي ، والروض المعطار للحميدي ومعجم البلدان لياقوت ، وتحفة الألباب ونخبة الإعجاب لأبي حامد الغرناطي ، وتقويم البلدان لأبي الفدا صاحب حماة ، ومسالك الأبصار للعمري ، وغير ذلك كثير من كتب الجغرافية العامة واللغوية والتاريخية والإقليمية .

ولى جانب هذه المدرسة الوصفية نجد المدرسة الجغرافية الرياضية ولكن اهتمام القلقشندي بها محدود ، وحسنا فعل ، فهو يكتب لغة خاصة من القراء ، ليس هناك ما يدعو إلى الإثقال عليهم بالزيجات والجدول الرياضية . ويبدو من كتابة القلقشندي أنه كان لا يزال من المؤمنين بنظريات بطليموس في الجغرافية الكونية (الكوزموجرافية) مع أن التقدم الذي شهدته الجغرافية العربية منذ القرن الرابع الهجري كان قد غير كثيراً من هذه النظريات ، وأثبت الواقع الجغرافي عدم صحة جزء كبير منها .

وينقل القلقشندي عن « المجسطي » لبطليموس القولدي ، وكان هذا الكتاب من أوائل ما ترجم العرب في الجغرافية على عهد المأمون ، ولكن اعتماد القلقشندي أكثر ما يكون في تناوله للجغرافية الرياضية على « القانون المسعودي » لأبي الريحان البيروني . وبين الحين والحين نجد القلقشندي يعتمد على بعض المصادر التي كانت تهتم بالمادة الأسطورية أكثر من اهتمامها بالجانب العلمي مثل : « مختصر العجائب » لابن وصيف شاه ، « وعجائب المخلوقات » لابن الأثير . « والروض المعطار في أخبار الأقطار » للحميري .

القلقشندي وعلم الأسماء الجغرافية Onomastics :

والقلقشندي مغرم إلى حد كبير بدراسة الأسماء الجغرافية وتعليلها ، وقد أصبحت هذه الدراسة فرعاً من فروع الجغرافية الحديثة ، ويروى للرجل جميع ما يعرفه من تفسيرات للأسماء ، وقد يتفرد هو بتفسير

خاص فمثلا يذكر عن مصر: «أما تسميتها مصر فقبل أن تقرأوس ابن مصرم أول ملوكها قبل الطوفان حين عمرها ماما باسم أبيه مصرم تبركا وأكثر المؤرخين على أنها سميت بمصر بن بصر حام بن نوح عليه السلام ، وعلى الوجهين تكون علماً منقولاً عن اسم رجل ، ثم يروى الجاحظ في رسالته التي كتبها في مدح مصر والتي يرى فيها أن مصر سميت بهذا الاسم لمصير الناس إليها : ثم يدلى القلقشندي بدلوهُ هو فيقول : « ويجوز أن تكون سميت مصر لكونها حداً فاصلاً بين المشرق والمغرب إذ المصّر في أصل لغة العرب اسم للحد بين الأرضين ، ومنه قول أهل هجر : اشتريت الدار بمصورها أي بمحدودها » . وعندي أن رأى القلقشندي أكثر وجاهة من رأى الآخرين»

أما « الشام » فقد اختلف في سبب تسميته شاماً قيل سمى بسام بن نوح لأنه نزل به واسمه بالسريانية شام بشين معجمة والعرب تنقلها إلى السين المهملة ، وقيل لأن أرضه مختلفة الألوان بالحمرة والسواد والبياض فسمى شاماً لذلك كما يسمى الخال في بدن الإنسان شامة . وقيل سميت شاماً لأنها من شمال الكعبة والشام لغة في الشمال :

وسمى « النعيم » وهو من حلود الحرم المكي بهذا الاسم لأن الجبل الذي عن يمينه اسمه نعيم ، والذي عن يساره اسمه ناعم ، والوادي الذي هو فيه اسمه نعمان ، وسميت « المزدلفة » بذلك التزلف والازدلاف وهو التقرب ، لأن الحجاج إذا أفاضوا من عرفات ازدلفوا إليها بجمع الجمرات .

وحق الجهات الأربع الأصلية لا يفوت القلقشندي أن يعلل أسماءها ، فالشرق سمى بذلك لشرق الشمس منه وكذلك الغرب لغروبها فيه وهما المشرق والمغرب كذلك . أما جهة الشمال وهي التي إذا استقبلت المشرق كانت على شمالك ويقال لها الشام أيضاً لأن الشام كانت في جهة الشمال من بلاد العرب فسميت بالجهة به ، وأهل مصر يسمون

هذه الجهة البحرية لكونها جهة البحر الرومى أو تسمية لها باسم الريح التى تهب منها ، فهم يسمون الريح الذى تهب من الشمال البحرية لأنه يسار بها من البحر كيف كان . أما جهة الجنوب فهى التى إذا استقبلت المشرق كانت على جانبك الأيمن ، ولم يسم بالأيمن كما سعى مقابله بالشمال لأنه لما ذكر الشمال لم يبق إلا الجانب الأيمن فاستغنى عن ذكره ، وأهل مصر يسمون هذه الجهة القبلية لوقوعها فى جهة قبلتهم ، ولذلك يبدعون بها فى التحديد ، وكان الأصل الابتداء بالمشرق لأن منه مبدأ حركة الفلك .

وهكذا يعمى القلقشندى باحثاً دقيقة عن علل الأسماء وأسبابها فى عبارة واحدة ومنطق سليم ، فيسهم فى تكوين فرع من فروع الجغرافية لم تنته به أوروبا إلا فى العصر الحديث ، وقد أهملنا نحن الجغرافيين العرب هذا الجانب من الدراسة ونسينا أن أجدادنا كانوا من أول من عنى به ، فقد نشأت الجغرافية العربية لغوية فى أول أمرها ، ولم يلتفت إلى هذه الناحية فى العصر الحديث سوى رجل ليس من أصحاب الجغرافية وهو المرحوم محمد رمزى صاحب « القاموس الجغرافى للبلاد المصرية » .

الجغرافية الطبيعية :

وللقلقشندى اهتمامات بالجغرافية الطبيعية ، ولكنه يقتصر على الجانب الوصفى منها دون الجانب التحليلى ، ويرجع ذلك إلى طبيعة ثقافته من جهة وإلى الغرض الذى وضع له كتابه من جهة أخرى ، ولهذا فهو يبدأ بذكر البحر المحيط وما يخرج منه من بحار وما يتفرع منها من خلجان ثم لا يتناول قطراً إلا ويذكر جباله المشهورة وبحيراته وأنهاره ، وهو فى تناوله الأنهار يتحدث عن منابعها ومصباتها وأطوالها ، بل وأحياناً يتتبع إنحناءات النهر واتجاهاته . ولكن دوره فى كل هذا يتعدى دور الوصف الذى يتعب نفسه فى البحث عن العلل والأسباب .

الجغرافية الإدارية :

والرجل أكثر اهتماماً بالجغرافية الإدارية وجغرافية المدن؛ فهو فى حديثه

عن مصر والشام والحجاز وغيرها يتناول الأقسام الإدارية في كل منها ، وما في كل قسم من كور ونواح وأعمال مستقرة ، ويتحدث عن أطوالها وعروضها ، وعما اشتهرت به من منتجات ، وعن أنجبت من رجال ، وقد يتطرق به الحديث إلى ذكر تاريخها وآثارها ومكانتها في التاريخ العام للدولة ، ولا يفوته في واحدة منها أن يضبط اسمها ليجنب القارئ أى خطأ في نطق الاسم ، وله في هذا الحديث إشارات لطاف ومقارنات تدل على الدقة واليقظة ، فهو مثلاً في حديثه عن منوف يقول : وربما غلط بعض الناس فظن أنها منف ٠٠ وبينهما بعد كثير ، (١) ويعلق على كلام العمري عن المحلة الكبرى بقوله : « وقع في التعريف التعبير عنها بمحلة المرحوم وهو وهم ، وإنما هي قرية من قرأها » (٢) أما أسيوط « فلإثبات الألف فيها هو الجارى على ألسنة العامة بالديار المصرية والثابت في اللواوين حلفها » (٣) .

وما دام الرجل يتحدث عن التقسيم الإدارى فهو يرى أن الضرورة تدعو إلى أن يقف القارئ على ترتيب الديار وكيفية إداراتها ، وأرباب الوظائف كنواب الساطنة والكشاف والولاة وغيرهم ، والسلطات المخولة لكل منهم . وينجح القلقشندي في رسم صورة حية للجغرافية التاريخية للبلاد التي تحدث عنها في العصر الذي عاش فيه ، ويصبح صبح الأعشى من المصادر التي لا يمكن أن يستغنى عنها دارس الجغرافية التاريخية لمصر أو الشام في عصر المماليك .

الجغرافية الاقتصادية :

والقلقشندي أكثر ما يكون حفاوة بالجغرافية الاقتصادية . فهو عندما يتحدث عن الديار المصرية مثلاً يعني بالحديث عن نهر النيل وزيادته ونقصه ، وما تنتهى إليه الزيادة ويبلغه النقص ، وكيفية قياس مناسيبه ،

(١) ج ٢ / ٤٠٥ .

(٢) ج ٢ / ٤٠٦ .

(٣) ج ٢ / ٢٦٦ .

والخليجان المتفرعة منه ، والجسور الحابسة لمياهه عن الأرض إلى حين استحقاق الزراعة ، وأصناف الأضى وما يختص بكل صنف منها ، ومزارعها وأصناف مزروعاتها وأحوال زرعها وأسعار الغلات ، والعملية المستعملة ، وما يتعامل به وزنا من الدنانير المسكوكة أو ما يتعامل به معادة ، والموازين والمكاييل والمقاييس المستعملة فى عمليات البيع والشراء . والميزانية العامة للدولة ومصادرها المختلفة من المال الخراجى ، وما يتحصل من استخراج المصادن والزكاة والمكوس المفروضة على التجار الواصلين فى البحر إلى الديار المصرية أو القادمين عن طريق الشام ، إلى غير ذلك من النواحي التى يستطيع أن يخرج منها الجغرافى بصورة كاملة عن جغرافية مصر الاقتصادية على عهد المماليك ، وهو موضوع أرجو أن تناح لى فرصة دراسته فى يوم من الأيام .

وينعى القلقشندى على البلاد إهمالها للجسور البلدية ، وهى الجسور التى يتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأموال البخارية فى قطاعهم فيقول : « وقد أهمل الاهتمام بأمر الجسور فى زماننا وترك عمارة أكثر الجسور البلدية ، واقتصر فى عمارة الجسور السلطانية على الشيء اليسير الذى لا يحصل به كبير نفع ، ولولا ما من به الله تعالى على العباد من كثير الزيادة فى النيل من حيث أنه صار يجاوز تسعة عشر ذراعا فما فوقها إلى ما جاوز العشرين . لفات رى أكثر البلاد وتعطلت زراعتها » . (١)

ويذكر القلقشندى تصنيفاً للتربة المصرية منقولاً عن ابن مائى يتضمن ثلاثة عشر صنفاً تختلف باختلاف الزراعة وعدمها ، وبسبب ذلك تفاوت الرغبة فيها وتختلف قيمتها باختلاف ما يزرع فيها . ولا يقوم التصنيف الذى يورده القلقشندى على الخصائص الطبيعية للتربة وإنما أساسه فى المقام الأول مبلغ تمتعها بمياه النيل والغلة التى سبق زرعها فيها . ويتحدث عن أنواع من الأرض تطرق إليها الفساد بسبب الظروف الطبيعية المحيطة بها كأرض

«الخرس» التي فسدت بما استحکم فيها من مواقع الزرع وهى التي تسمى علميا بالأرض القلوية ولايزال وصف الخرس مستعملا للدلالة عليها في الريف المصرى . «المستبحر» وهى الأرض السيئة الصرف ، والتي يقول عنها القلقشندي : إنها أرض واطئة إذا حصل المساء فيها لا يجد مصرفا له عنها ، فيمضى زمن المزارعة قبل زواله بالنضوب » (١) ثم هناك « السباخ » وهو أرض غلب عليها الملح حتى لم يعد ينفع بزراعتها ، وهى في نظر القلقشندي أردأ أنواع الأرض ، وهى ليست كذلك الآن فقد أصبحت الأراضي الملحة مع التقدم العلمى من أسهل أنواع الأراضي استصلاحاً .

ولعل مما يدعو إلى العجب أن يتحدث القلقشندي عن بحيرة الفيوم ، وهى بركة قارون فيذكر أنها بحيرة حلوة (٢) مع أنها أكثر بحيرات مصر ملوحة . ولا نعرف كيف سبق القلم بالقلقشندي إلى هذا الحكم ولكنها هفوة تغتفر هى وغيرها بجانب حسانة الكثر : والحسنات يذهب السيثات .

ألا رحم الله القلقشندي فقد ترك للعربية موسوعة علمية ضخمة لاتزال بعد أن مضى عليها أكثر من خمسة قرون منهلا عذبا يرده الباحث عن المعرفة فيجد فيه ما يبل الغلة ويشفى الظمأ :

(١) ج ٤٤٨/٢ .

(٢) ج ٢٠٢/٢ .

الجانب الأدبي في "صبح الأعشى"

بقلم: الدكتور مصطفى الشكعة

إن المتتبع للدراسة الموسوعة الأدبية التاريخية السياسية الجغرافية الاجتماعية التي أسماها مؤلفها « كتاب صبح الأعشى في كتابة الإنشاء » لا يكاد يخطئ الفكرة التي أمت على القلقشندى تأليف هذا الكتاب وتصنيفه : فالإنشاء فرع من فروع الكتابة ، والكتابة فن أدبي واسع الأطراف منشعب المتناج متعدد الأهداف ، نشأ وترعرع وأثمر وأبنع في رحاب الحضارة العربية الإسلامية ، وصارت له أحكام ومعايير وأعماق ، كما أنه أفاء على الكيان العربي بسطة من خيرات الوفيرة وحصادا من ثماره الحنية .

والقلقشندى المؤلف المصرى العربى بدأ أديباً كاتباً قبل أن يصير مؤلفاً أو مصنفاً ، بل إن فكرة تأليف « صبح الأعشى » ليست إلا وليدة عمل أدبي للقلقشندى هو مقامة أدبية عمد فيها إلى الحديث عن فن الكتابة وتعلم الإنشاء . والمقامات — كما يعرف الكثيرون — فن أدبي خالص ابتكره أديب العربية الكبير أحمد بن الحسين المعروف بديع الزمان الهمداني الذي ولد ومات في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (١) ، لقد قدم الهمداني في فنه ذلك الذى ابتكره لأول مرة في تاريخ الأدب العربى القصة القصيرة المتكاملة فنياً ، الممتعة أسلوباً ، وأطلق عليها اسم « مقامة » وكان من الطبعي وقد افتتن أدباء العربية بهذا الفن الطريف أن يتابعوا السكابة فيه ، فأنشئت مجموعات من المقامات لصفوة من أدباء العربية أشهرهم : الحريرى وابن ناقيا والزنجشري وابن الجوزى وابن صقيل الجزرى وابن الوردى والسيوطى وغيرهم .

ولذا كانت المقامة قد أخذت مكانها عند مبتكرها بديع الزمان كأدب

(١) ولد بديع الزمان ٣٥٨ هـ ومات ٣٩٨ هـ .

اجتماعى إمتاعى ، فإن أغراضها قد تغيرت وأهدافها قد تنوعت عند غيره من منشى هذا الفن ممن جاعوا بعده ، فهى عند الحريرى وابن الجوزى لتعليم اللغة ، وهى عند ابن نايقا لمعالجة الحكمة على ألسنة البهائم ، وعند الزحشرى للوعظ والإرشاد ، وعند ابن صقيل الجزرى لمعالجة المسائل الفقهية والحديث والنحو ، وهكذا تعددت أغراض المقامات عند كل منشىء من منشىها بما يساير الهدف الذى استهدفه وبما يتمشى مع الغرض الذى قصد إليه . ولما كان القلقشندى واحداً من هؤلاء الذين أنسوا فى أنفسهم القدرة على كتابة المقامة ، فقد اختار لمقامته موضوعاً يلائم الفن الذى تعشقه وملأ عليه حياته كلها وهو فن الكتابة ، فأنشأ مقامة جعل هدفها ضرورة أن يكون لكل إنسان حرفة يعيش منها ، وأن خير حرفة لطالب العلم الكتابة ، وقد عمد القلقشندى فى مقامته التى أسماها « الكواكب الدرية فى المناقب الدرية » إلى تضمينها بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد والمعلومات والإرشادات التى ينبغى أن يتبعها المنشىء لكي يصير حاذقاً فى فن كتابة الإنشاء ، وقد أعجبت هذه المقامة رئيس ديوان الإنشاء الذى كان القلقشندى أحد العاملين فيه فأشار عليه أن يتوسع فى الفكرة التى ضمنها مقامته يجعلها كتاباً مستفيضاً فى فن الكتابة فصعد بالأمر فكانت هذه الموسوعة القيمة التى اختار لها مؤلفها اسم « صبح الأعشى فى كتابة الإنشاء » .

ويحكى القلقشندى بأسلوبه قصة إنشاء كتابه فيقول (١) : « وكنت فى حدود سنة إحدى وتسعين وسبعائه عند استقرارى فى كتابة الإنشاء بالأبواب الشريفة السلطانية ، عظم الله تعالى شأنها ورفع قدرها وأعز سلطنتها ، أنشأت مقامة بنيتها على أنه لابد للإنسان من حرفة يتعلق بها ، ومعيشة يتمسك بسببها ، وأن الكتابة هى الصناعة التى لا يلىق بطالب العلم من المكاسب سواها ، ولا يجوز له العدول عنها إلى ما سواها ، وجنحت فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها ، وتقديمها على كتابة الأموال وترشيحها ، ونهت فيها على ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ،

(١) صبح الأعشى ٨/١ .

وما ينبغي أن يسلكه من الخواص ، وضمتها من أصول الصنعة ما أربت به على المطولات وزادت ، وأودعتها من قوانين الكتابة ما استولت به على جميع مقاصدها أو كادت ، وأشارت فيها إلى وجه تعلقي بحال هذه الصنعة وإن لم أكن بمطلوبها ملياً ، واتسائي إلى أهلها وإن كنت في النسبة إليها دعيماً : وليس دعى القوم في القوم كالذي حوى نسباً في الأكرمين عريقاً

إلا أنها وقعت موقع الوحي والإشارة ، فعز بذلك مطلبها ، وفات على المحتجني ببعد التناول أطيبها ، فأشار من رأيه مقرون بالصواب ، ومشورته عرية عن الارتباب ، أن أتبعها بمصنف مبسوط يشتمل على أصولها وقواعدها ، ويتكفل بحل رموزها وذكر شواهدا ليكون كالشرح عليها ، والبيان لما أجملته ، والتتمة لما لم يسقه الفكر إليها فامتثلت أمره بالسمع والطاعة ولم أثلكاً وإن لم أكن من أهل هذه الصناعة ، غير أن القريحة بذلك لم تسمح ، وصار المقتضى يضعف والمنازع يرجع ، لأعذار قد تشابه محكمها ، وضرورات إن لم يعلمها الخلق فالله يعلمها ، إلى أن لاحت لي بوارق الفتح ، وظهرت والله الحمد آثار المنح ، فعند ذلك بلغت النفس أملها ، وأضفت مواهب الامتنان حللها ، وتلا لسان العناية على الغبي الحاسد « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » :

فشرعت في ذلك بعد أن استخرت الله تعالى « وما خاب من استخار » وراجعت أهل المشورة « وما ندم من استشار » مستوعباً من المصطلح ما اشتمل عليه « التعريف » و « التثقيف » موضحاً لما أبهامه بتبيين الأمثلة مع قرب المأخذ وحسن التأليف ، متبرعاً بأمور زائدة على المصطلح الشريف ، لايسع الكاتب جهلها ، منتقلاً من توجيه المقاصد ، وتبيين الشواهد بما يعرف به فرع كل قضية وأصلها ، آتياً من معالم الكتابة بكل معنى غريب ، ناقلاً الناظر في هذا المصنف عن رتبة أن يسأل فلا يجاب إلى رتبة أن يسأل فيجيب ، منبهاً على ما يحتاج إليه الكاتب من فنون ، التي يخرج بمعرفتها عن عهدة الكتابة ودركها ، ذاكرة من أحوال المالك المكاتب عن هذه المملكة ما يعرف به قدر كل مملكة

وملكها ، مبنياً جهة قاعدتها التي هي محل الملك شرقاً أو غرباً ، أو جنوباً أو شمالاً ، معرفاً الطريق الموصل إليها برأ وبجرأ . وانقطاعاً واتصالاً ، ذاكراً مع كل قاعدة مشاهير بلدانها إكمالاً للتعريف ، ضابطاً لأسمائها بالحروف كي لا يدخلها التبديل والتحريف ، وسميته « صبح الأعشى » في كتابه « الإنشاء » راجياً من الله أن يكون بالمقصود وافيّاً ولغليل شافياً . ونحن نستطيع من هذه المقدمة التي كتبها المؤلف أن نضع أصابعنا على أمرين على جانب كبير من الأهمية والخطورة .

الأمر الأول : أن فكرة الكتاب نشأت وتفرعت من أصل أدبي هو « المقامة » وأن مادة الكتاب الفنية بأسباب التنوع ، بنظرة سريعة إليها نجد أن أكثر من نصفها نصوصاً أدبية صرفة ، أقلها شعراً وأكثرها نثراً ، وإن أسهمت في استجلاء كثير من غوامض أحداث التاريخ ، أو جلّت معاني سياسية وأخرى اجتماعية كانت مستهمة علينا .

والأمر الثاني : أن فكرة الكتاب ومنهاجه برغم كثرة المصادر التي أخذ عنها ، وتعدد الموارد التي نقل منها ؛ ليست إلا المبادئ السامية التي وضعها عبد الحميد الكاتب ووجهها إلى جمهرة الكتاب من بعده نصحاء منه وإرشاداً ، والتي حرص على حفظها والعمل بها جمهرة كتاب العربية منذ أن وضعها عبد الحميد إلى عصر القلقشندي وما بعده ، والتي ضمنها القلقشندي منهج كتابه كاملة غير منقوصة (١) .

فبعد الحميد يقول في بعض فقرات رسالته موجهاً النصيح إلى الكتاب : « فنافسوا - معشر الكتاب - في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم ، وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار واعرّفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهمكم » (٢) .

(١) انظر رسالة عبد الحميد في صبح الأعشى وفي الجهشيارى ٧٤ - ٧٩ .
(٢) راجع تحليل رسالة عبد الحميد في كتابنا : الأدب في موكب الحضارة الإسلامية

والقلقشندى يأخذ نصائح عبد الحميد ويترجم خطاه ويترجمها ترجمة
أمانة إلى دراسات مطولة، ويقدمها في شكل أبحاث مستفيضة منفذاً مباحثه
عبد الحميد ووصاياه، مبدأ بعد مبدأ، ووصية بعد وصية، فهو يعتقد
باباً مستفيضاً لحفظ كتاب الله العزيز، وكيفية وضع الآيات الكريمة
في أنسب المواضع حين الاستشهاد وتضمينها الرسالة أو القطعة الأدبية (١)،
ويعقد باباً آخر في الإكثار من حفظ خطب البلغاء والتفنن في أساليب
الخطباء، ويأتى بمجموعة كبيرة من خطب العرب في الجاهلية والإسلام
مثل خطب: كعب بن لؤى وقس بن ساعدة، وخطب الرسول صلى الله
عليه وسلم وخطب لأبي بكر وعمر وعثمان وعلى والحسن ومعلوية
ابن أبي سفيان وزباد بن أبيه وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف
الثقفى، وقطرى بن الفجاءة وغيرهم من خطباء العرب، ولا يكتفى
القلقشندى بذلك بل يأتى بمجموعة كبيرة من خطب ومحاورات بعض
العربيات الفصيحات من النساء مثل: السيدة عائشة أم المؤمنين، وأم الخير
بنت الحريش. والزرقاء بنت عدى الهمدانية (٢) :

كل ذلك تمشياً مع نصائح عبد الحميد الكاتب : ويعقد صبح
الأعشى فصولاً طويلة وأبحاثاً مستفيضة في مواد اللغة التى هى واحدة من
أهم أدوات الكاتب (٣) .

ولما كان عبد الحميد قد أوصى الكتاب بإجادة الخط، فإن القلقشندى يعتقد
دراسة مطولة مفصلة فى هذا الموضوع متحدثاً عن فضيلة الخط وحقيقته
ووضع الحروف وعددها، وجهة ابتدائها وكيفية ترتيبها وصورها وتداخل
أشكالها، مستعيناً فى ذلك بنماذج لكل مادة من مواد الخط، كما يتحدث
القلقشندى عن تحسين الخطوط والحث على ذلك : ويتحدث عن طريقة
إمسك القلم عند الكتابة ووضعها على الورق وكيفية حركة اليد به، ثم يعدد

(١) صبح الأعشى ١/١٨٩ وما بعدها .
(٢) صبح الأعشى ١/٢١٠ وما بعدها .
(٣) المصدر السابق ١/٤٨ ، ١٤٨ وما بعدها .

أنواع الأفلام واستعمالها : من ثلثورقاع وتوقيع وغبار ، كل ذلك في بسطة من الشرح تحتل مايقارب مائتي صحيفة من كتابه (١) ، ويحضر الفلقشندي على حفظ الأشعار ، ويأتي بمجموعة رائقة منها وأخرى غريبة (٢) تماماً حسبما نصح عبد الحميد في رسالته . ويمضي صاحب صبح الأعشى سالكا طريق عبد الحميد فيعقد فصلا عن أيام العرب وحروبهم (٣) وقبائلهم وبطونهم (٤) في بسطة من القول وتفصيل من الحديث ، وهولا ينسى أن عبد الحميد قد أشار إلى ضرورة معرفة أيام العجم وأحاديثها وسيرها ، ومن ثم فإنه أى الفلقشندي يعقد فصلا للحديث عن أنساب الأمم من عرب وعجم في ثوب من التشويق يجعل المرء يقبل على هذا اللون من المعرفة الضرورية لمن أراد أن يسلك سبيل امتحان الكتابة ويتخذها صناعة يرتضيها لنفسه سيلا في الحياة .

وجعل القول في هذا السبيل أن الفلقشندي احتلى منهج عبد الحميد الكاتب في نصائحه إلى الكتاب وإن لم يشر إلى ذلك صراحة ، ولم يقف الأمر به عند الجانب الثقافي بل تعدى ذلك إلى الجانب الأخلاقي والاجتماعي الذي ركز عليه عبد الحميد ، وهو ماسوف تتناوله بشيء من الإبانة فيما يستقبل من حديث :

نود أن نخلص من ذلك - وقد تأكد أصل الفكرة الأدبية للكتاب - إلى منهج تتمثله ونحن نستعرض الجانب الأدبي فيه تمثلا واعياً دقيقاً : لقد انتهيت إلى عناصر أربعة في تمثلنا للمنهج الأدبي للكتاب تلخص فيما يلي :

أولا : شخصية الكتاب وثقافتهم وآدابهم وسلوكهم :

ثانياً : الشخصية الأدبية للمؤلف :

(١) المصدر السابق ٥/٣ - ١٧٠ .

(٢) نفس المصدر ٢/٢٨٦ ، ٢/٢١٤ ، ٢/١٨٦ - ٢٠٢ ، ٢٠٩ - ٢٢٩ .

(٣) الصبح ١/٣٩٠ .

(٤) نفس المصدر ١/٣١٥ - ٣٦٦ .

ثالثاً : السمات الفنية للبلاغة والنقد في الكتاب :

رابعاً : المجموعة الضخمة القيمة للنصوص الواردة في الكتاب ووزنها الأدبي .

أولاً : شخصية الكتاب وثقافتهم وآدابهم وسلوكهم :

يتحدث القلقشندي عن كاتب الإنشاء فيما يصفه صاحب مواد البيان فيقول : هو حلية المملكة وزينتها لما يصلر عنه من البيان الذي يرفع قدرها ، ويعلى ذكرها ، ويعظم خطرها ، ويدل على فضل ملكها ، وهو المتصرف عن السلطان في الوعد والوعيد ، والترغيب والإحجاد والإنعام واقتضاب المعاني التي تقر الوالي على ولايته ، وتعطف العدو العاصي عن عداوته ومعصيته .

وينسب القلقشندي إلى بعض الحكماء قوله في شأن الكتاب وصلتهم بعضهم ببعض وصلتهم بالدولة : الكتاب كالجوارح ، كل جراحة منها ترفد الأخرى في عملها بما به يكون فعلها ، وكاتب الإنشاء بمرتلة الروح المازجة للبدن ، المدبرة لجميع جوارحه وحواسه (١) .

وصاحب صبح الأعشى يتحمس للكتاب دون غيرهم من الأدباء ، بل إنه يتعصب لهم ويستشهد بالمثل تلو المثل على فضل أهل الصناعة ، فيورد قول الزبير بن بكار : الكتاب ملوك وسائر الناس سوقة : وقول عبد الله ابن المقفع : الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك : أو قول المؤيد : كتاب الملوك عيونهم المبصرة ، وآذانهم الواعية ، وألسنتهم الناطقة . أو قول أبي جعفر الفضل بن أحمد : للكتاب أقوت الملوك بالفاقة والحاجة ، ولإيهم ألقبت الأعنة والأزمة ، وبهم اعتصموا في النازلة والنكبة ، وعليهم انكلوا في الأهل والولد والنخائر والعقد ، وولاة العهد وتدبير الملك ، وقراع الأعداء ، وتوفير النية ، وحيطة الحريم ، وحفظ الأسرار وترتيب المراتب ، ونظم الحروب (٢) :

(١) صبح الأعشى ٥٥/١ .

(٢) النصب ٤٤/١ .

ويضرب القلقشندى مثلاً يكشف فيه طبيعة العلاقة بين الكاتب والملك .
والكاتب هنا هو الوزير - فيذكر أن علي بن زيد الكاتب صاحب بعض
الملوك ، فقال للملك : أصبحك على ثلاث خلال ، فقال الملك : وماهي ؟
فقال الكاتب : لانتك لي سراً ، ولا تشتم لي عرضاً ، ولا تقبل في قول
قائل حتى تستبرئ . قال الملك : فما لي عندك ؟ لا أفشى لك سراً ،
ولا أؤخر عنك نصيحة ، ولا أؤثر عليك أحداً . قال الملك : نعم
الصاحب المستصحب أنت (١) .

في هذا الحوار القصير يعرض القلقشندى دستور العلاقة بين الملك
ومستشاره الكاتب ، ويبين خطورة مركزه في الدولة وبالتالي في نطاق المجتمع
وهذا يفسر لنا انطلاقة الشريف الرضي من إसार تقاليد زمانه حينما بكى
الكاتب أبا إسحاق الصابي ، وراثه بأكثر من قصيدة من عيون الشعر العربي
فلامه الناس لكونه شريفاً يرث صابئاً ، فأجاب الشريف الرضي إجابة
تتمشى مع جلال الموقف قائلاً : إنما رثيت فضله (٢) . ومن ثم فإن ابن
عبد ربه صاحب العقد الفريد قد تنبه إلى فضل الكتابة على الناس ، فأورد
له القلقشندى قوله : إنها رفعت أقدار . كثير من الناس بعد الخمول فصاروا
إلى الرتب العلية والمنازل السنية ، منهم : سرجون بن منصور الرومي ،
كان رومياً خاملاً فرفعته الكتابة ، وكتب لمعاوية ويزيد مروان بن
الحكم وعبد الملك بن مروان ، ومنهم حسان النبطي كاتب الحجاج ، وسالم
مولي هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد الأكبر ، وعبد الصمد ، وجلة
ابن عبد الرحمن ، وقحتم جد الحجاج بن هشام القحطمي ، وهو الذي قلب
الدواوين من الفارسية إلى العربية ، والربيع والفضل بن الربيع ، ويعقوب
ابن داود ، ويحيى بن خالد ، وجعفر بن يحيى ، وابن المقفع ، والفضل بن
سهل ، وجعفر بن الأشعث ، وأحمد بن يوسف ، وابن عبد السلام
الجنديسابوري ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن بن وهب ،

(١) المصدر السابق ١/ ١٢٩ .

(٢) نفس المصدر ١/ ٤٢ .

وإبراهيم بن العباس ، ونجاح بن سلمة ، وأحمد بن عبد العزيز : :
ولوا اعتبر من شرف بالكتابة وارتفع قدره بها لقاتوا الحصر وخرجوا عن
الحمد .

ويمضي صاحب صبح الأعشى في حديثه عن الكتاب الذين نشأوا
في بيئات متواضعة ثم مالبت الكتابة أن جعلتهم أصحاب مقامات رفيعة
ومراتب سامية ، بعد القلقشندى إلى هذه الأمثلة في معرض تعظيم الكتاب
ووضعهم في مكان الإجلال ، وقبل قليل أشرنا إلى حادث رثاء الشريف
الرضى لأبي إسحاق الصابى ، ويضرب القلقشندى مثلاً آخر بوزير عظيم
الشأن هو الوزير المهلبى الذى كان في أول أمره في شدة من الفقر
والضائقة ، وقد حدث أن اشتى اللحم ولم يقدر على شرائه فقال ارتجالاً :

ألا موت يباع فأشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موت لذيق الطعم يأتى يخلصنى من الموت الكريه
ألا رحم المهيمن نفس حر تصدق بالوفاة على أخيه

ثم ترقى في سلك الكتابة حتى وزر لمز الدولة بن بويه (١) . وإذن
فالكاتبه مقام أسمى من أى مقام ، حتى إن المؤيد يقول : الكتابة أشرف
مناصب الدنيا بعد الخلافة ، إليها ينتهى الفضل ، وعندها تقف الرغبة (٢)
فلا غرابة إذن أن يرى الشريف الرضى الصابى أبا إسحاق .

وعلى طول مسار المنهج الأدبى عند القلقشندى في التحمس بجانب
الكتاب ، يفتن إلى المنافسة التقليدية بين أصحاب القلم وأصحاب السيف ،
ذلك أن كثرة من الكتاب لم يجمعوا بين السيف والقلم . ويمضى القلقشندى
في دربه على عادة تفضيل صاحب القلم على صاحب السيف لأن الله أقسم
بالقلم في كتابه العزيز ولم يقسم بالسيف وذلك في قول الشاعر :

إذا افتخر الأبطال يوماً بسيفهم وعلوه مما يكسب المجد والكرم
كنى قلم الكتاب عزاً ورفعة مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

(١) صبح الأعشى ١/٤٠ ، ٤١ .

(٢) المصدر السابق ١/٣٧ .

ويمجد القلقشندى مهنة الكتابة ويفضلها على وظيفة السيف بقوله :
 كفى بالكتابة شرفاً أن صاحب السيف يزاحم الكاتب في قلمه ولا يزاحمه
 الكاتب في سيفه (١) . ويعود القلقشندى ثانية فيستشهد في ذلك أيضاً
 بأبيات طريقة لابن الرومي (٢) :

إن يخدم القلمُ السيفَ الذى خضعتُ
 له الرقابُ ودانتْ خوفه الأممُ

فالموتُ ، والموتُ لاشيءٌ يغالبه
 ما زال يتبع ما يجرى به القلمُ
 كذا قضى الله للأقلامِ مذ بُرئتُ
 أن السيوف لها مذ أرهفت خدام

وأبيات ابن الرومي فيها حسن تعليل أكثر مما فيها من تفضيل :
 وما دام القلقشندى مهتماً بالكتاب ذلك الاهتمام الكبير الذى أخذ عليه
 أفكاره . وما دامت الكتابة عنده أشرف صناعة ، فإنه لكي يغرى الناشئة
 بالإقبال على امتنانها بعرض نماذج رائعة من الشعر العذب في وصف
 الكتاب كقول عبد الله بن المعتز في وصف كتاب :

إذا أخذ القراطس خِلْتِ يمينه
 تفتح نوراً أو تنظم جوهراً

وقول شاعر آخر :

إن هزَّ أقلامه يوماً ليعملها أنساك كلِّ كمي هزَّ عامله
 وإن أقرَّ على رقٍّ أنامله أقر بالرق كتاب الأنام له

والقلقشندى وقد عاش في عصر التصنع البدعي يستهويه الاستشهاد
 بالشعر الموهل في الزينة بالمحسنات كما في البيتين السابقين وكما في هذين
 البيتين :

(١) صبح الأعشى ١/٣٨ .

(٢) المصدر السابق ٤٥ وما بعدها .

وشادن من بنى الكتاب مقتل^١
على البلاغة أحلى الناس إنشاء^٢
فلا يجاريه في ميدانه أحد^٣

يربك سبحانه في الإنشاء إن شاء^٤

وإذ كانت هذه صورة الكاتب المجيد وصفته عند القلقشندى ، فإنه
يحرص على أن يجنب هذه الصناعة كل عبي أو غبي أو أحمق أو جاهل أن
ينخرط في سلكها أو ينظم في عقدها ، ولذلك فهو يأ^٥ بصور صارخة
في هجاء الفاشلين من الكتاب لا تخلو من فكاهة وطرافة كقول أحد
الشعراء في وصف كاتب فاشل :

حمار^٦ في الكتابة يدعيها كدعوى آل حرب في زياد^٧
فدع^٨ عنك المكارم لست منها ولو غرقت ثيابك في المداد^٩

وقول شاعر آخر :

يعى غير مقلنا ويكتب غير ما

يعيه ويقرأ غير ما هو كاتب^{١٠}

وإذن فالكتاب عند القلقشندى ينبغي أن يتحلى بالصفات التي وصفه بها
ابن ممتى في كتابه قوانين الدواوين (١) الذي تأثر فيه برسالة عبد الحميد
إلى الكتاب : حاد الذهن ، قوى النفس ، حاضر الحس ، جيد الحدس ،
حلو اللسان ، له جرأة يثبت بها الأمور على حكم البديهة ، وفيه تودة
يقف بها فيما لا يظهر له على حد الرؤية ، شريف الأنفة ، عظيم النزاهة ،
كريم الأخلاق ، مأمون الغائلة . أو كما قال أبو الفضل الصوري : ينبغي
أن يكون الكاتب بليغاً أديباً ، سنى الرتبة ، قوى الحججة ، شديد المعارضة ،
حسن الألفاظ .

والقلقشندى يعتمد في ذلك كله على تجارب مرت ببعض الكتاب
الناهين تارة والمتخلفين غير المتسلحين بمؤهلات الكاتب تارة أخرى ،

وهو يسوق لذلك أمثلة عديدة وقمت لبعض الكتاب مع خلفاء أو رؤساء ،
 فمن أمثلة الفريق الثاني : حادثة المعتصم مع وزيره أحمد بن عمار (١)
 وكان يتقلد العرض على الخليفة ، وكان المعتصم ضعيفاً في العربية ،
 فقرأ الوزير عليه كتاب أحد العمال وقد ورد فيه : مطرنا مطراً كثر عنه
 الكلا ، فسأله المعتصم عن معنى الكلا فلم يعرف ، فقال المعتصم :
 إنا لله وإنا إليه راجعون ، خليفة أمي ووزير عامي ، ثم سأل عن
 كاتب قريب فجيء له بمحمد بن عبد الملك الزيات وكان مغموراً
 يعمل بالديوان ، فسأله الخليفة عن معنى الكلا ، فقال : النبات كله
 رطبه ويابس ، فإن كان رطباً قيل له خلا ، وإن كان يابساً قيل له
 حشيش ... واستطرد ابن الزيات في عرض ثروته اللغوية وحصيلته الأدبية
 أمام المعتصم الذي طلب منه أن يتولى العرض عليه . ومن هنا كانت
 بداية الخير الذي أفاءته البلاغة على ابن الزيات .

ويضرب الفلقشندي مثلاً آخر لكاتب غير مؤهل ولا مزود بأسلحة
 الكتابة هو العباس بن أسد الذي يحكى القصة بنفسه فيقول : إن أبا الحسن
 علي بن عيسى كتب إلى أبي الطيب أحمد بن عيسى كتاباً من مكة فقرأه
 ثم رمى به إلى فقال : اقرأ ، فقرأت : كتابي إليك يوم القُر ، برفع
 القاف ، فقال : ما معنى القُر ؟ فقلت : القُر البرد ، فقال : إنما هو يوم
 القُر بالفتح ، حين يقر الناس بمنى ، وهو اليوم الثاني من النحر (٢) .

غير أن صاحب صبح الأعشى لا يذمى أيضاً أن يضرب أمثلة لا تخلو
 من طراقة لبعض المتأدبين من المغمورين الذين أعلوا أنفسهم لهذه الوظيفة
 المرموقة بالعلم والثقافة ، ولعل أكثر القصص طراقة في هذا السبيل قصة
 عمرو بن مسعدة الوزير الكاتب— الذي كان أثيراً لدى المأمون والمعتصم—
 مع حائك أديب ، فقد طلب إليه المعتصم وكانا بالركة أن يتوجه إلى الأهواز
 حتى يصلح من أمر عامل خراج بدا في تصرفاته بعض الإنحراف ، ولم يرض

(١) المصدر السابق ١/١٥٦ .

(٢) صبح الأعشى ١/٤٨٠ .

صبروا عن تلك المهمة وقال في نفسه : إن هذه متزلة خسيسة أن يكون بعد الوزارة مستحاً لعامل خراج . ولكن لما لم يكن إلى عصيان أمر الخليفة سبيل فقد طلب زورقا أعد لسفرة طويلة ، وبدأت الرحلة في الفرات حتى إذا صار الزورق بين دبر هرقل ودير العاقول إذا شاب على الشاطئ يقول : ياملاح ، رجل ملاح يريد دبر العاقول ، فاحملني بأجرِكَ الله : ولترك لعمرى يحكى بقية من هذه القصة الطريفة (١) . « فقلت — موجها الحديث لبحار الزورق — يا غلام قرب له . فقال : جعلت فداك ، يؤذيك ويضيق عليك ، فقلت : قرب له لا أم لك . فقرب له وحمله على مؤخر الزورق ، وحضر الطعام ، وهممت ألا أدعوه إلى طعامي ، ثم قلت ، هلم يافتي ، فوثب وجلس ، وأكل أكل جائع نهم إلا أنه نظيف الأكل ، فلما فرغ من الطعام أحببت أن يفعل ما يفعل العوام فيتنحى ويغسل يديه ناحية ، فلم يفعل ، فغمزه الغلمان ليقوم فلم يفعل ، فتناومت عمداً لينهض فلم يفعل ، فاستويت جالسا وقلت ، يافتي ما صناعتك ، فقال : جعلت فداك ، أنا حائك ، فقلت في نفسي : أنا والله جلبت هذه البلية ، وتغير لوني ، ففطن اني استثقلته فقال : جعلت فداك ، إنك قد سألتني عن صناعتي فأجبتك ، فأنت ما صناعتك ؟ فقلت في نفسي : هذه والله أضر من الأولى ، ألا ينتظر إلى غلماي ونعمتي فيعلم أن مثل هذا لا يسأل عن الحرفة ، ولم أجد بداً من الجواب ، فلم أذهب إلى المرتبة العظمى من الوزارة ، لكنني قربت عليه فقلت : أنا كاتب ، فقال : جعلت فداك ، الكتاب خمسة ، فأبهم أنت ؟ فأورد عليّ ما لم أسمع به قبل . فقلت : بينهم لي ، قال : نعم ، هو كاتب رسائل يحتاج إلى أن يعرف المفصول والموصول ، والمقصود والممدود ، والابتداء والجواب ، حاذقا بالعقود والفتوح .

(١) المصدر السابق ١٤٣/١ وما بعدها .

قلت : أجل ، وماذا ؟ قال : كاتب خراج يحتاج أن يعرف السطوح والمساحة والتقسيم ، خبيراً بالحساب والمقامات : قلت : وماذا ؟ قال : كاتب قاض يحتاج أن يعرف الحلال والحرام والتأويل والتزويل ، والمتشابه ، والحدود القائمة والفرائض ، والاختلاف في الأموال والفروج ، حافظاً للأحكام ، حاذقاً بالشروط : قلت : وماذا ؟ قال : كاتب جند يحتاج أن يعرف الحل والشيء د

قلت : وماذا ؟ قال : وكاتب شرطة يحتاج أن يعرف القصاص والجراحات ، وموضع الحدود ومواقع العفو في الجنايات ، قلت : حسن : قال : فأبهم أنت ؟ فكنت متكثراً فاستويت جالساً متعجباً من قوله ، فقلت : أنا كاتب رسائل . قال : فإن أخاً من إخوانك واجب الحق عليك معتنياً بأمورك لا يغفل منها عن صغير ولا كبير يكاتبك في كل محبوب ومكروه ، وأنت له على مثل ذلك ، تزوجت أمه ، فكيف تكتب إليه ، أتهنيه أم تعزيه ، قلت : أتهنيه ، قال : فهنئ ، فلم يتجه لي شيء ، فقلت : لا أعزيه ولا أتهنيه ، فقال : إنك لا تغفل له عن شيء ، ولا تجد بداً من أن تكتب إليه ، فقلت : أقلني فأنا كاتب خراج ، قال : فإن أمير المؤمنين وجهه بك إلى ناحية من عمله ، وأمرك بالعدل والإنصاف ، وأنتك لا تدع شيئاً من حق السلطان يذهب ضياعاً ، وحزنك الظلم والجور ، فخرجت حتى قدمت الناحية فوقفوك على قراح أرض خطه قابل قسياً ، فكيف تمسحه ، قلت : آخذ وسطه وآخذ طوله فأضربه فيه ، قال : تختلف عليك العطوف ، قلت : آخذ طوله وعرضه من ثلاثة مواضع ، قال : إن طرفيه محدودان ، وفي تحديده تقريس ، وذلك يختلف ، فأعياى ذلك فقلت : أقلني فأنا كاتب قاض ، قال : فإن رجلاً هلك وخلف زوجة حرة وسرية حاملتين فوضعتا في ليلة واحدة ، وضعت الحرة جارية ووضعت السرية غلاماً ، فوضعت الجارية في مهد السرية فلما أصبحت السرية قالت الغلام لي ، وقالت الحرة : بل هو لي ، كيف تحكم بينهما ، فقلت : لا أدري فأقلني فأنا كاتب جند ، قال : فإن

رجلين من أصحاب السلطان أنياك ، اسمهما واحد ، وأحدهما مشقوق الشفة العليا والآخر مشقوق الشفة السفلى : ورزق أحدهما مائة والآخر ألف ، كيف تحليهما ، قلت فلان الأعمم وفلان الأعم ، قال : إذن يجيء هذا ورزقه مائة فيأخذ الألف ، ويجيء هذا ورزقه ألف فيأخذ المائة . قلت : أظنى فأنا كاتب شرطة ، قال : فإن رجلين توابا فشق أحدهما صاحبه مؤصحة ، وشجه الآخر مأمومة ، كيف يكون الحكم فيهما ؟ قلت : لا أدري فأظنى .

وهكذا يرتج على الوزير الخطير البليغ أمام عابر سبيل دفعت به المصادفة إلى زورقه ، ولما كان لا بد له من معرفة الإجابة على هذه المسائل المستبهمة فإنه يطلب الإبانة من « الحائك » الذى لا يتردد فى الإجابة قائلا : « أما الذى تزوجت أمه فتكتب إليه : أما بعد فإن الأمور تجري على غير عهاب المخلوقين والله يختار لعباده ، فخير الله لك فى قبضها إليه فإن القبور أكرم الأكفاء والسلام . »

« وأما القراح من الأرض فإنك تسمح اعوجاجه حتى تعلم كم قبضة تكون فيه فإذا استوى فى يدك عقد تعرفه ضربت طرفه فى وسطه : وأما الحرة والسرية فيوزن لبنهما ، فأيهما كان لبنا أخف فالبنت لها : وأما المشقوق الشفة العليا فأعلم ، والمشقوق الشفة السفلى فأفلح . »

وأما المأمومة ففيها ثلث الدية وهى ثلاث وثلاثون من الإبل وثلث ، وأما الموضحة ففيها خمس من الإبل . وهنا يستبد العجيب بالوزير الكبير فيقول لمحدثه : ألسنت تزعم أنك حائك ؟ فيجيبه الرجل بقوله : أنا حائك كلام لا حائك نساجة : ومن الطريف أن عمرو بن مسعدة يستبقي الرجل معه فى رحلته حتى إذا عاد قدمه إلى المعتصم الذى يعينه فى وظيفة كبيرة فى الدولة مختصة بشئون العائز .

إن هذه القصة على طرافتها لم يكن القصد من سوقها هنا مجرد الإطراف والإمتاع ولكن لأنها تبين اهتمام القلقشندى بفنون الكتابة وضرب الأمثلة لثقافة الكتاب التى كان لا بد للواحد منهم أن يكون ملماً

من كل شيء بطرف وأن يكون لبقاً حاضراً البديهة سريع الإجابة
ذا ثقافة غير محدودة بمحدود ، وكلما اتسعت آفاق الكاتب كانت رتبته أعلى
وأسمى ممن هو دونه .

على أن أسمى المراتب جميعاً وأرق الوظائف بلا استثناء في عالم
الدواوين كانت وظيفة صاحب الديوان أى ديوان الإنشاء(*) :

ويؤكد القلقشندي هذا المعنى بقوله عن صاحب الديوان : أما رفعة
مجله وشرف قدره فأرفع محل وأشرف قدر ، يكاد ألا يكون عند
الملك أخص منه ولا أنزم لمجالسته ، ولم يزل صاحب هذا الديوان معظماً
عند الملوك في كل زمن ، مقدماً لديهم على من عداه ، يلقون إليه أسرارهم
ويخصونه بخفايا أمورهم ، ويطلعونه على ما لم يطلع عليه أخص الأخصاء من
الوزراء والأهل والولد(١) :

وإذا كان القلقشندي يشير إلى أن صاحب الديوان معظم في كل زمن
فإن شواهد التاريخ تؤيده في ذلك ، فقد سمت مكانته عند بني العباس
حتى لقب بالوزير ، وكان هذا المنصب في أيام الفاطميين لا يتولاه إلا
أجل كتاب البلاغة ، وكان يخاطب بالأجل ، وإليه تسلم المكاتب واردة
محتومة فيعرضها على الخليفة من يده ، وهو الذى يأمر بتنزيلها والإجابة
عنها وربما بات عند الخليفة ليالى ، وهو أمر لا يصل إليه غيره (٢) :

وهذه المعاني يؤكد لها صاحب مواد البيان في قوله : ليس في منزلة
خدم السلطان والمتصرفين في مهاته أخص من كاتب الرسائل ، فإنه أول
داخل على الملك وآخر خارج عنه ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه
والإفضاء إليه بمهمات ، وتقريبه من نفسه في آناء ليله وساعات نهاره
وأوقات ظهوره للعامة وخلواته ، وإطلاعه على حوادث دولته ومهات
ملكته ، فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقته به ، ولا يركن إلى
قريب ولا نسب ركونه إليه (٣)

* كان يسمى في مستهل عهد بنيويان الرسائل وكذلك كان يسمى ديوان المكاتبات .

(١) صبح الأعشى ١٠١/١ .

(٢) الصبح ١٠٢/١ .

(٣) نفس المصدر ١٠١/١ .

وإذا كان القلقشندى قد اعتمد أكثر ما اعتمد في حديثه عن الكتابة والكتاب على المهذب بن نماني في كتابه قوانين الدواوين ، وعلى أبي الفضل الصوري في كتابه التذكرة ، وعلى علي بن خلف في كتابه مواد البيان والحاجب بن النعمان في ذخائر الكتاب ، فإنه يسهم بقوله حينما يتحدث عن كاتب الإنشاء في زمانه ، أى زمان المولة التركية ، ويضعه حيث هو سمو مكانة ورفعة مرتبة فيقول (١) :

«ومرتبته في زماننا — أى زمان القلقشندى — أرفع مرتبة ، ومحلّه أعظم محل ، إليه تلقى أسرار المملكة وخفاياها ، ويرأيه يستضاء في مشكلاتها ، وعلى تدبيره يعول في مهماتها ، وإليه ترد المكاتبات وعنه تصدر ، ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة ، ويقوم توقيعه على القصص في نفوذ الأوامر مقام توقيع السلطان » :

ثانيا : الشخصية الأدبية للؤلف :

القلقشندى أدب ما في ذلك شك ، ونحن لانستطيع أن نصفه بأنه أدب مطبوع فتلك صفة غير قريبة منه ، ولكننا نستطيع أن نصفه بأنه أدب صانع مجتهد ، فهو صاحب قلم مطواع ساندته ثقافة واسعة في شتى العلوم والفنون ، وهو أيضا ذو فكرة رائقة عميقة ، وأسلوب مشرق الديباجة ، سلس المأخذ والعطاء ، وإذا كان معلم الفن ينبغي أن يكون خبيراً به فإن أستاذ الإنشاء لابد له أن يكون حسن الإنشاء وتلك صفة لا ترد في أن نطلقها على القلقشندى وننته بها في صدق وحيدة .

وأدينا ينسج على منوال أدباء عصره من أصحاب الأساليب المصنوعة ، والعبارات المنمقة المسجوعة ، الخافلة بالمحسنات البديعية من سجع وجناس وترصيع واقتباس وتضمين وتورية ومقابلة وطباق ، إلى غير ذلك من الإغراق في الصنعة التي بدت خفيفة مقبولة عند أول عهد أدبنا بها عند كتاب القرن الرابع وما قبله بقليل ، ثم ما لبثت

(١) صبح الاعشى ١٠٢/١ .

أن تعقدت عند كتاب القرن الخامس ، ثم أوغلت في التصنع والتعقيد عند الكتاب الذين عاشوا فيما بعد ذلك من عصور ومن بينهم الفلقشندي بل إننا نستطيع في سهولة ويسر أن ننسب الفلقشندي إلى المدرسة الإنشائية الأسلوبية التي رأسها القاضي الفاضل ، تلك المدرسة التي عرفت بتلك الصفات والسمات التي ألمحنا إليها جميعا قبل قليل .

وإذا كانت مقدمة أى كتاب تعتبر المثال الصادق للمدرسة الأسلوبية والفنية التي ينتمى إليها مؤلف الكتاب ، فلعل بضع فقرات من مقدمة صبح الأعشى تكون شاهدا أميناً على أن مؤلفه كان من الصفوة المتقدمة من الأدباء — ولكن بمقياس زمانه — تجمعت له جل أسباب النضوج في مجال الأدب الإنشائي إلى جانب التأليف الموسوعي فلنستمع إليه في مقدمته متحدثاً عن الكتابة والكتاب (١) :

« فلما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها ، وأربح البضائع وأنفعها ، وأفضل المآثر وأعلاها ، وآثر الفضائل وأعلاها ، لاسيما كتابة الإنشاء التي هي بمنزلة سلطانها ، وإنسان عينها ، بل عين إنسانها ، لا تلتفت الملوك إلا إليها ، ولا تعول في المهمات إلا عليها ، يعظمون أصحابها ، ويقربون كتابها ، فحليفها أبداً خليف بالتقديم ، جدير بالتسجيل والتكريم .

تسرُّ مجانبها إذا ما جنى الظما وتروى مجاريها إذا بخل القطر وكانت الديار المصرية ، والمملكة اليوسفية — أعز الله تعالى حماها ، وضاعف علاها — قد تعلق من الثريا بأقراطها ، ورجحت سائر الأقاليم بقيراطها ، بشر بفتحها الصادق الأمين ، فكانت أعظم بشرى ، وأخبر سيد المرسلين أن لأهلها نسا وصهرا ، فوجهت إليها عزائم الصحابة زمن الفاروق فجاسوا خلال الديار وعرها وسهلها ، واقتطعتها أيدي المسلمين من الكفار « وكانوا أحق بها وأهلها » .

(١) صبح ٦/١ .

ثم لم يزل يعلو قلرها ، ويسمو ذكرها ، إلى أن صارت دار
الخلافة العباسية ، وقرار المملكة الإسلامية ، وفخرت مملكتها بخدمة
الحرمين ، وخدمها سائر الملوك والأمم لحيازة القبلتين :

تناهت علاء والشباب رداؤها فما ظنكم بالفضل والرأس أشيب
وحظيت من فضلاء الكتاب بما لم تحظ مملكة من الممالك ، ولامصر
من الأمصار ، وحث من أهل الفضل والأدب ما لم يحو قطر من الأقطار ،
فما برحت متوجة بأهل الأدب في الحديث ، القديم ، مطرزة من فضلاء
الكتاب بكل مكين أمين ، وحفيظ عليم .

نجوم سماء كلما غاب كوكبٌ بدا كوكبٌ تأوى إليه كواكبه
ومقدمة صبح الأعشى طويلة بعض الطول ولا يغنى اجتراء فصل منها
عن قراءتها جميعها ، ولكننا جئنا بهذه الفقرة منها كصورة لأسلوب
القلقشندي في الكتابة ، ونحن نلاحظ أن أسلوب القاضي الفاضل يملك
على كاتبنا عقله ووجدانه ، فقد تقمص القلقشندي شخصية القاضي
الفاضل حتى إننا لو لم نكن نعرف مسبقا لمن هذا الأسلوب ما ترددنا
لحظة واحدة في نسبته إلى عبدالرحيم البيساني — الإسم الحقيقي للقاضي
الفاضل — صاحب القلم الذي أعجب أهل زمانه ، وفنن القوم من
معاصريه وفي مقدمتهم صلاح الدين الأيوبي الذي أثر عنه قوله : إنما
نصرت بقلم القاضي الفاضل .

ومشاركة القلقشندي الإبداعية ككاتب له تجاربه وأفكاره وأسلوبه
تبدو واضحة جلية فيما أبدع وأنتج في نطاق مؤلفه صبح الأعشى ، أو
بالأحرى تتمثل هذه المشاركة في مقالاته المستقلة التي ضمها كتابه مثل
مقامته التي أشرنا إليها ومثل بعض الرسائل الأخرى التي قد يكون من
الخير أن نعرض لها بعد قليل :

فمقامة القلقشندي الوحيدة الطويلة التي أسماها « الكواكب الدرية
في المناقب البدرية » — نسبة إلى المقر البدرى — صورة جلية صادقة

للأدب العربي إنشاءً وفكراً وصناعةً وأسلوباً في فترة من فترات حقبه المتطاولة ، وهي الفترة التي عاش فيها القلقشندى ، شطراً من القرن السابع وآخر من القرن الثامن ، إننا نجتزئ فقرة منها حيث يقول (١) .

« حكى النائر بن نظام ، قال : لم أزل من قبل أن يبلغ بريد عمرى مركز التكليف ، ويتفرق جمع خاطرى بالكلف بعد التأليف أنصب لاقتناص العلم أشراك التحصيل ، وأنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل ، مشمراً عن مساعد الجدل ذيل الاجتهاد ، مستمراً على الوحدة وملازمة الإنفراد ، أنتهز فرصة الشباب قبل توليها ، وأغنم حالة الصحة قبل تجافها ، قد حالف جفنى السهاد ، وخالف طيب الرقاد ، أمرن النفس على الاشتغال كى لا تمل فتتفر عن الطلب وتجمع جميلاً جانب قصدها عن ركوب الأهواء والميل إليها ، صارفاً وجه غايتها عن المطالب الدنيوية والركون إليها ، متخيراً أليق الأماكن وأوفق الأوقات ، قانناً بأذى العيش راضياً بأيسر الأقوات ، أونس من شوارد العقول وحشياً ، وأشرد عن روابض المنقول حوشياً ، وألتقط ضالة الحكمة حيث وجدتها ، وأقيد نادرة العلم حيث أصبتها ، مقلداً من العلوم أشرفها ، ومؤثراً من الفنون ألطفها ، معتمداً من ذلك ما تألفه النفس ويقبله الطبع ، مقبلاً منه على ما يستجلى حسنه النظر ويستحلى ذكره السمع ، متقبلاً من الكتب أمتعتها تصنيفاً ، وأتمها تحريراً وأحسنها تأليفاً ، متخبياً من أشياخ الإفادة أوسعهم علماً وأكثرهم تحقيقاً ، ومن أقران المذاكرة أروضهم بحثاً وألطفهم تدقيقاً ، عارفاً لكل عالم حقه وموفياً لكل علم مستحقه ، قد استغثت بكتابى عن خلى ورفيقى ، وآثرت بيت خلوقى على شفيق وشقيقى »

ويمضى القلقشندى فى مقامته على هذا النحو عامداً إلى الأسلوب المسجوع الذى هو الصفة اللازمة لفن المقامات منذ أنشأها مبدعها

بديع الزمان ، غير أن صاحب صبح الأعشى يفرق إغراقاً شديداً في التلاعب بالألفاظ والمجانسة كأشراك وإشراك ، والأوقات والأقوات ، ووحشى ووحشى ، ويستجلى ويستحلى ، وشفيق وشقيق إلى غير ذلك من التعسف الشديد في اختيار الألفاظ ، والقوة على الخاطر حتى يرفد القلم باللفظة المصنوعة التي تسائر المعنى المطلوب .

ويعضى القلقشندى في مقامة فيحكى أن إقباله على العلم قد جعله في حالة من المسغبة ، وهو في نفس الوقت لا يبد له من مواصلة التعلم والتشف و فجعلت أسير المعاش سبر متقصّد ، وأسير في فلوات الصنائع سير متعهّد ، لكي أجد حرفة تطابق أربي ، أو صنعة تجانس طلبي ، فينما أنا أسير في معاهدها ، وأردد طرفي في مشاهدها ، إذ رُفِع لي صوت قرع سمعي برنته ، وأخذ قلبي بحتته ، ففقوت أثره متبعاً ، وملت إليه مستمعاً ، فإذا رجل من أحسن الناس شكلاً ، وأرجحهم عقلاً ، وهو يترنم وينشد :

إن كنت تقصدني بظلمك عامداً فحرمت تقع صداقة الكتاب
السائقين إلى الصديق ثرى الغنى والنساعشين لعثرة الأصحاب
والناهضين بكل عبءٍ مثقلٍ والناطقين بفصل كل خطاب
والعاطفين على الصديق بفضلهم والطيبين روائح الأثواب
ولئن جحدتهم الثناء فطالما جحد العبيدُ تفضُّل الأرباب
فلما سمعت منه ذلك ، وأعجبني من الوصف ما هنالك ، دنوت منه ذو الواجل ، وجلست بين يديه جلوس السائل ، وقلت : هذه وأليك صفات الملوك بل ملوك الصفات ، وأكرم الفضائل بل أفضل المكرمات ، ولم أكُ أظن أن للكتابة هذا الخطر الجسيم ، وللكتاب هذا الحظ العظيم ، فأعرض مغضباً ، ثم فوق بصره إلى معجباً ، وقال : هيئات فالتك الحزم ، وأخطأك العزم ، إنما لمن أعظم الصنائع قسراً وأرفعها ذكراً ، نطق القرآن الكريم بفضلها فقال تعالى جل ثناؤه ، وتباركت أسماؤه : و اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان

ما لم يعلم » فأخبر تعالى أنه علم بالقلم ، حيث وصف نفسه بالكرم ،
إشارة إلى أن تعليمها من جزيل نعمه، وإيداناً بأن منحها من فائض ديمه .

ويشير الفلقشندي إلى أكثر الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر
الكتابة، كما يذكر أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد اهتم بها كل
الاهتمام وأنه استكتب نيفاً وسبعين كتاباً ، وجرى على سنته من تعظيم
الكتابة الخلفاء الراشدون ومن تلاهم من الخلفاء والملوك المسلمين . ثم
يدلف صاحب صبح الأعشى من هذه الالتفاتة القيمة إلى الحديث عن
الكتابة حديث المعجب بها ، العارف لقدرها ، المقدس لشأنها فيقول :

« فالكتابة قانون السياسة ، ورتبتها غاية رتبة الرياسة ، عندها تقف
الإنافة ، وإلها تنتهى مناصب الدنيا بعد الخلافة ، والكتاب عيون الملوك
المبصرة وآذانهم الواعية وألسنتهم الناطقة وعقولهم الحاوية ، بل محض
الحق الذي لا تدخله الشكوك ، وإن الملوك إلى الكتاب أحوج من الكتاب
إلى الملوك ، وناهيك بالكتابة شرفاً ، وأعل بذلك رتبة وكفى ، أن صاحب
السيف والعلم يزاحم الكاتب في قلمه ، ولا يزاحم الكاتب صاحب السيف
والعلم في علمه .

وعلى الجملة فهم الخاؤون لكل وصف جميل ، وشأن نبيل ، الكرم
شعارهم ، والحلم دثارهم ، والجلود جاداتهم ، والخير عاداتهم ، والأدب
مركبهم ، واللاطف مذهبهم ، والله القائل :

وَسَمُولٍ كَأَنَّمَا اعْتَصَرَوْهَا مِنْ مَعَانِي شِمَائِلِ الْكِتَابِ

فلما انقضى قيله ، وبانت سبيله ، قلت : لقد ذكرت قوماً راقين
وصفهم ، وشاقين لطفهم ، ودعائى طيب حديثهم ، وحسن أوصافهم ،
وجميل نعوتهم إلى أن أحل بناديبهم ، وأنزل بواديهم ، فأجعل حرفتهم
كسبي ، وصنعتهم دأبى ، ليجتمع بالعلم شملى ، ويتصل بالاشتغال حبلى ،
فأكون قد ظفرت بمنيتى ، وفزت ببغيتى .

فأى قبيل من الكتاب أردت ؟ وإلى أى نوع من الكتابة أشرت ؟

أكتابة الإنشاء والخطابة ؟ أم غيرهما من أنواع الكتابة ، فنظر إلى مُبْتَسِماً ،
وأشد مترنماً :

قوم إذا أدخلوا الأقلام من غضب ثم استمدوا بها ماء المنياتِ
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ما لم ينالوا بحسد المشرفياتِ
إن القلقشندى في فقرته السابقة تلك من مقامته يعرض لأخلاق الكتاب
وصفاتهم وسمو مكانتهم ويفضلهم على سواهم من رجال الدولة حتى على
أرباب السيف ، وهو في ذلك يرسم على منوال عبد الحميد في وصفه
للكتاب ، وغير عبد الحميد من الكتاب الكثيرين الذين استعان القلقشندى
بأقوالهم وآرائهم وسبقت الإشارة إليهم قبل قليل في هذا البحث . ويمضي
القلقشندى في حوارهِ مع « الناصر بن نظام » بطل مقامته حتى يستنطقه
بمزید من فضائل كتاب الإنشاء دون غيرهم من سائر الكتاب فيقول :

« فقلت كأنك تريد كتابة الإنشاء دون سائر الكتابات ، وهى التى
نقصدها بالتصريح وتشير إليها بالكتابات ، فقال : وهل فى أنواع الكتابة
جملة نوعٌ يساويها ، أو فى سائر الصنائع على الإطلاق صنعة تضاهيها ؟
إن لها للقدح المعلى ، والجيد المحلى ، والذروة المنيفة ، والرتبة الشريفة ،
كتابها أسُّ الملك وعماده ، وأركان الملك وأطواره ولسان المملكة الناطق ،
وسمها المفوق الراشق ، ولله حبيب بن أوس الطائى حيث يقول :

ولضربة من كاتب بينانه أمضى وأقطع من رقيق حسام

قوم إذا عزموا على دواة حاسد سفكوا الدما بأسنه الأقلام

قلمها يبلغ الأمل ، ويغنى عن البيض والأسل ، به تصان المعامل ،
وتفرق الجحافل

فلكم يفلُّ الجيش وهو عرمرم والبيض ماسلت من الأغمد

وبعد أن يجرى حوار آخر بين صفة كاتب الخراج وصفة كاتب
الإنشاء مع اقتباس من أقوال الحريري فى مقاماته من صفة الكاتبين
يبين فيها ترجيح كفة كاتب الإنشاء على كفة كاتب الأموال ، وهو

الهدف الذى استهدفه القلقشندى منذ البداية ، يجرى أدينا على لسان «النائر بن نظام» المؤهلات العلمية والحصيلة الثقافية التى يجب أن يتسلح بها كاتب الإنشاء ، وهى نفسها المؤهلات التى أثبتها عبد الحميد فى رسالته إلى الكتاب مثل : حفظ كتاب الله العزيز ، والسير والأحكام وقواعد الإسلام والأحاديث النبوية ودقائق معانيها ومعرفة غريبها ، والعلم بالأحكام السلطانية وفروعها ، والتوغل فى أشعار العرب والمولدين وأهل الصناعة من المحدثين ، وما ورد عن كل فريق منهم من الأمثال ثراً ونظماً ، والاطلاع على خطب البلغاء ورسائل العظماء ، والعلم بأيام العرب وحروبهم ، والنظر فى التواريخ وأخبار الدول الماضية ، وسير الملوك وأحوال الممالك ، وسعة الباع فى اللغة والنحو والتصريف وعلوم المعانى والبيان والبديع ، وتحسين الخط والعناية به ، وغير ذلك من العناصر الكثيرة والمعارف العديدة التى جعلها القلقشندى — حينما طلب إليه التوسع فى المقامة — أبواباً وفصولاً لكتاب صبح الأعشى .

على أن غرض القلقشندى فى إنشاء مقامته لم يكن مقصوراً على تفضيل كتابة الإنشاء وتعليمها وحسب ، بل استهدف الأديب الكبير مدح آل فضل الله العمرى الذين كانت رئاسة الكتابة معقودة اللواء على نواصبيهم لفترة غير قصيرة من الزمان ، كما عمد إلى إعلاء شأنهم والمقارنة بينهم وبين سابقينهم من أئمة الكتابة وأساطين الإنشاء :

« واعلم أن حسن الخط من الكتابة واسطة عقدها ، وقوة الملكة على السجع والازدواج مِلاك حلها وعقدها ، على أن خير الخط ما قرء ، وأحسن السجع ما سلم من التكلف وبرء ، وللكتاب فى بحر الكتابة سبج طويل ، وتفنن يسفر عن كل وجه جميل :

فقلت : فهل لهذه الرتبة الرئيسية ، والمنقبة النفيسة ، سمط يلهمها ، أو سلك يضمها ، فقال : سبحانه الله ، إن بيتها لأشهر من قفائلك ، وأظهر للبيان من شاعرات جبال النبك ، أخفى من البلر ضوءه الباهر ، ونوره الزاهر ؟ إن ذلك لقاصر على «آل فضل الله» حقاً ،

ومنحصر في المقر البدرى صدقا : فهو قطبها الذى تلور عليه : وابن يجلتها
التي ترجع في علومها ورسومها وسائر أمورها إليه ، فلو رآه « الفضل
عبد الرحيم » لم ير لنفسه فضلا ولا رضى لغيره مقالا ، أو عاينه عبد الحميد
الكاتب لقال : هكذا هكذا وإلا فلا ، أو عاصره « قدامة » بجلوس
قدامة . أو أدركه « ابن قتيبة » لآخذه في « أدب الكاتب » شيخه وإمامه ،
أو بصر به « الصافي » لصبا إليه ومال ، أو قارن زمانه « الحسن بن
سهل » بل « الفضل » أخوه لقام ببابه وما زال ، أو جنح « ابن العديم »
إلى متاواته لأدركه العدم ، أو جرى « الصاحب بن عباد » في مضمار
فضله لكبا وزلت به القدم ، أو اطلع « ابن مقلة » على حسن خطه
لقال : هذا هو الجواهر الثمين ، أو نظر « ابن هلال » إلى بهجة رونقه
لقال : إن هذا هو الفضل المبين ، إن تكلم نفث سحرا ، أو كتب
خلت زهرا ، أو تخيلت درأ .

يؤلف اللؤلؤ المشور منطقته وينظم الدرّ بالأقلام في الكتب

ويمضي القلقشندى بمقامته في مديح طويل لرئيس ديوان الإنشاء
البر بن فضل الله العمرى في أسلوب يرق ويسمو حيناً ، وحيناً آخر
يتسم بالصنعة التي لا يستسيغها وينفر منها الحسن المرهف .

على أن هذه المقامة المغمورة تعتبر في رأينا عملاً أدبياً كبيراً وجهداً
ثقافياً مرموقاً تنبئ عن أعماق أدبية ثرية في نفس القلقشندى الذى كان
الإخلاص والجد رائدين له في هذا العمل الإنشائي الجليل :

ومن الأعمال الأدبية التي أبدعها القلقشندى وطرز بها كتابه ،
رسالة في المفاخرة بين العلوم ، وهو منزه أدبي سار عليه جمع من
أدباء ذلك الزمان ؛ لقد ضمن القلقشندى هذه الرسالة نيفا وسبعين علماً
يفخر بعضها بعضاً في بسطة من القول وصنعة في الأسلوب ؛ واحتلت
ما يقارب الثلاثين صحيفة من المجلد الأخير من صبح الأعشى ؛ وقد
شملت الرسالة علوم اللغة ، والنحو ؛ والشعر ؛ والعروض ؛ والموسيقى ،
والطب ، وقص الأثر ؛ وخط الرمل ؛ وتعبير الرؤيا ، وأحكام النجوم ،

والسحر ؛ وعلم الهيئة ؛ والأرصاد والمواقيت ، والمهندسة وعقود الأبنية ،
ومراكز الأثقال ، والفلاحة ، وإنباط المياه ، والآلات الحربية ، والكيمياء ،
والحساب المفتوح ، وحساب التخت ، والجبر ، والمقابلة ، وحساب
الدرهم والدينار ، وحساب الدور والوصايا ، والفقه ، والفرائض ،
وأصول الفقه ، والجلد ، والمنطق ، ودراية الحديث ، ورواية الحديث ،
والتفسير ، وأصول الدين ، والتصوف ، وتدبير المنزل ، والفراسة
إلى غير ذلك من أصناف العلوم التي بلغت أكثر من سبعين علماً على ما أشرنا
قبل قليل .

والحق أن هذه المفاخرات قطعة رائعة من أدب الفكر ، يزيد من
مقدار ما بذل في إبداعها من جهد أن كاتبنا لم يتخل عن الحملة المسجوعة
مرة واحدة مع سيطرة على شوارد الأفكار وشنيت الآراء ، غير أن
الكاتب لو كان استطاع الانطلاق من أسر المحسنات البديعية ، لكان قد
زاد القارئ فائدة وإمتاعاً .

إن علم اللغة يتصدر الحديث في هذه المفاخرة الطريفة فيقول (١) :

« قد علمتم معشر العلوم أني أعمكم نفعا ، وأوسعكم مجالا وأكثركم
جمعا ، على قطب فلكى تدور الدوائر ، وبواسطتي تترك المقاصد
ويستعلم مافي الضائرات ، وبدلالتى تعلم المعاني المفردات ، ويتميز مايدل
على النوات ما يدل على الأدوات ، وتبين دلالات العام والخاص ،
ويتعرف ما يرشد إلى الأنواع والأجناس وما يختص بالأشخاص ، على
أن كلكم كمل على ، ومحتاج في ترجمة مقصوده إلى ، فلفظي «الحكم»
وأقوالى الصراح وكلامى الجامع وسيف لسانى الجرد ناهيك من سلاح ،
وفضلى الجميل لا يحتاج إلى بيان ، استأثر الله تعالى بتعليمي لآدم عليه
السلام ، وأثره في معرفة على الملائكة فكان خصيصة له على الملائكة
الكرام . »

فيوقفه علم التصريف ويشبهه بالرمح بغير سنان وبالسيف بغير قائم

(١) صبح الاعشى ١٤/٢٠٦ .

ويقول له من كلام طويل : فانت غير مستقل بنفسك ، ولا قائم برأسك ، بل أنا المتكفل بتأسيس مبانيك ، والملتزم بتحرير ألفاظك وتقرير معانيك ، بي تعرف أصول أبنية الكلمة في جميع أحوالها ، وكيفية التصرف في أسائها وأفعالها ، وما يتصل بذلك من أحوال الحروف البسيطة وترتيبها ، واختلاف مخارجها وبيان تركيبها ، والأصلي منها والمزید ، والمهموس والرخو الشديد . . .

« فعندها غضب علم النحو واكفهر ، وزججروا شمخر ، وقال : يا لله ! استنتت الفصا لحتى القرعاً) و « استنسرت البغات » فكان أشد ثلثة وأعظم صدعا ، لقد ادعيت ماليس لك ففانتك الجور ، و « من تشيع بما لم ينل فهو كلابس ثوبي زور » وهو أنت إلا بضعة مني ؟ تسند إلى وتنقل عنى ؟ لم يزل علمك باباً من أبوابي ، وجملته داخلة في حسابي ، حتى ميزك « المازني » فأفردك بالتصنيف ، وتلاه « ابن جني » فقبه في التأليف ، واقتصر « ابن مالك » منك في تعريفه على الضروري الواجب ، واحسن بك « ابن الحاجب » في شافيته فرفع عنك الحاجب ، وأنت مع ذلك كله مطوى « ضمن كتيبي ، نسبك متصلة بنسبي وحسبك لاحق بحسبي :::: »

وهنا تبرز علوم المعاني والبيان والبديع وتحمل على النحو حملة شعواء قائلة : جميعجة رحي من غير طحن ، وتصويت رعد من غير مزنة ، نائلة من قدره بأنه ليس إلا مجرد اصطلاح اصطلاح عليه الناس ، ولو اصطلاحوا على نصب الفاعل ورفع المفعول ما أخل ذلك بالتفاهم بينهم : فيقول علم الشعر :

« أراكم قد نسبتهم فضلي الذي به فضلتم ، وصرتم حيلي الذي من أجله وصلتم ، أنا حجة الأدب ، وديوان العرب ، على ترّدون ، وعنّي تصدرون ، وإلى تنتسبون ، وبّي تشتهرون بل لا يكاد علم من العلوم الأدبية يستغنى عن شواهدى ولا يخرج في أصوله عن قوانينى وقواعدى ، حتى علم النثر الذى هو شقيقى في النسب ، وعديلى في لسان العرب ، لم يزل أهله يتطفلون على في بيت يحلونّه ، ويقفون من بديع محاسنى عند حد لا يتعدونه . »

وهنا يتدخل علم القافية فيقول : « إنك وإن تأتني يرق مباسمك ،
وطابت أيام مواسمك ، فأنت موقوف على مقاصدي ، ومقرّف من روى
مواردى ، أنا عدة الشاعر ، وعملة الناثر ، لا يستغنى عنى شعر ولاخطابة ،
ولا يستنكف عن الوقوف على أبوابى ذو ترسل ولا كتابة » :

فيحتج على هذا القول علم العروض ويدلى بدلوه ذاكرًا أنه معيار
القرىض وميزانه ، وعليه تبنى قواعده وأركانه ، وهنا يتدخل علم الموسيقى
الوثيق الصلة بالشعر والقافية والعروض موجها الخطاب إلى علم العروض
« لا فائدة فيك ولا حاجة إليك ، ولا عبرة بك ولا معول عليك ، وكفى
بك هضما ، وتقبضة وذما ، واستدلالا على دحض حججتك ، وضعف أدلتك
قول ابن حجاج :

مستفعلن فاعلن فعول مسائل كلها فضول

قد كان شعرالورى صحيحا من قبل أن يخلق «الخليل»
على أنه إن ثبت لك فائدة ، وعادمك على الشعر أو الشعراء عائدة ،
فإنما تفاعيلك مقلّمة لألحاني ، وأوزانك وسيلة إلى أوزانى ، نعم أنا
غذاء الأرواح ، وقاعدة عمود الأفرح ، والمتكفل ببسط النفوس وقبضها ،
والقائم من تعديلها وتقويتها بنقلها وفرضها مع مايتفرع عنى من علم
الآلات الروحانية التى تنعش الأرواح وتجلب لأفرح ، وتنفي الأتراح ، وتؤثر
فى البخيل السباح ، وتفعل فى الألباب مالا تفعل فى اللبات بيض الصفاح » :

ويعضى القلقشندى فى مفاخرته على هذا النحو الطريف ، ما يكاد علم
ينتهى من المفاخرة بنفسه حتى يربط القلقشندى بينه وبين العلم الذى
يليه بحيط يلتقطه العلم الثانى لكى يدلى بدلوه فى معركة المفاخرة التى تبدو
روح الرابط بينها ميسرة سهلة بعيدة عن التصنع والافتعال . والمناظرة فى
جملتها تدل على أن القلقشندى قد سلح نفسه بأطراف من المعرفة عن كل
فن أو علم من الفنون والعلوم التى أسهمت فى المفاخرة .

والنوق الأدبى عند القلقشندى جعله لاينسى حين يقدم لنا بعض العلوم
والأخبار أن يوشحها ببعض أسباب المتعة الفنية ويطرزها بأبيات من الشعر

الجميل التي تنفق والمناسبة ؛ فهو حين يتحدث في موضوع جغرافي أو تاريخي أو أثرى لا يسمي أنه أديب أو على الأقل يحاول أن يقدم موضوعه في ثوب أدبي رقيق أنيق، فعند حديثه عن الفصول الأربعة يأتي بكلام مختار لكاتب بليغ أو لشاعر فابه حول كل فصل من فصول السنة، فعن فصل الربيع يقول عبدوس الخزاعي : من لم ينتهج بالربيع ولم يستمتع بأنواره ؛ ولا استروح بنسيم أزهاره ؛ فهو فاسد المزاج ؛ محتاج إلى العلاج (١) . والبحري يقول أحياناً رقيقة في الربيع يوردها له القلقشندی في مكانها المناسب (٢) :

أناك الربيع الطلق يخال ضاحكا

من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقد نبه النوروز في غسق الدجى

أوائل ورد كن بالأمس نوما

يفتحها برد الندى فكأنما ييث حديثا بينهن مكما

ومن شجر رد الربيع رداءه كما نشرت ثوباً عليه .نمما

أحل فأبدي للعيون بشاشة وكان قنئ للعين إذ كان محرما

ورق نسيم الجو حتى كأنما يجيء بأنفاس الأجرة نعما

وعن فصل الصيف وحرارته يأتي القلقشندی بأبيات كثيرة لعدد من الشعراء منها هذان البيتان لسوار بن المضر (٣) .

وهاجرة تشنوى بالسوم جناديهما في رعوس الأكم

إذا الموت أخطأ حرباءها رمى نفسه بالعمى والصم

وعن فصل الخريف يفعل القلقشندی صنيعه بالربيع والصيف فيورد باقة مختارة من أشعار جمهرة شعراء الطبيعة النابهن مثل قول أبي بكر الصنوبري (٤) .

(١) صبح الأعشى ٣٦٤/٢

(٢) المصدر السابق ٣٦٥

(٣) نفس المصدر ٣٦٧

(٤) صبح الأعشى ٣٦٩/٢

ماقضى في الربيع حقّ المسراً ت مضيق لحقها في الخريف
نحن منه على تلقى شتاء يوجب القصف أو دواع مصيف
في قميص من الزمان رقيق ورداء من الهواء خفيف
يرعد المساء فيه خوفاً إذا ما لمسته يد النسيم الضعيف

ومن الأبيات الجميلة التي أوردها القلقشندى في الخريف أبيات ابن الرومي التي أفنن فيها وأبدع فأنى فيها بصور عديدة من الجبال منها : (١)
لولا فواكه أبلول إذا اجتمعت من كل فن ورق الجو والماء
إذا لما حقلت نفسى إذا اشتملت على هائلة الحالين غبراء
ياحبذا ليل أبلول إذا بردت فيه مضاجعنا والريح شجواء
وأسفر القمر السارى بصفحته يرى لها في صفاء الماء لألاء
بل حبذا نفحة من ريحه سحراً يأتيك فيها من الريحان أنباء
قل فيه ماشئت من فضل تعهده في كل يوم يد الله يفضمنا
وحينما يتحدث القلقشندى في كتابه عن المنتزهات والأماكن المتصفة بالجبال مثل نهر الأبله وشعب بوآن وصغد سمرقند وغوطة دمشق لا ينسى أن يزيدنا بهذه الأماكن تعريفاً فيذكر عن نهر الأبله أنه « نهر شقه زياد مقابل نهر معقل وبينهما البساتين والقصور العالية ، والمباني البديعة ، يتسلسل مجراه ، وتهلل بكره وعشاياه ، ويظله الشجروتغنى به زمر الطير ، ثم يأتى القلقشندى بأبيات للقاضى التنوخى التي منها (٢) :

وإذا نظرت إلى الأبله خلتها من جنة الفردوس حين تُخبل
كم منزل في نهرها آلى السرو ر بأنه في غيرها لا يتزل
وكأنما تلك القصور عرائس والروض حلى وهى فيه ترفل
وإذا كان القلقشندى يركب مركب الجهل في بعض الأحيان وهو

(١) الصبح ٢/٣٩٩ -

(٢) الصبح ٤/٤٩٠ -

يتحدث عن بعض الآثار - وهو في ذلك معذور - كالأهرام مثلاً فإنه يسارع إلى صرف كدر الذهن بما يتبع ذلك من شعر جميل ، كقول المتنبي فيها :

أين الذي الهرمان من بنيانه ؟ ما قومه ؟ ما يومه ما المصراع ؟
تتخلف الآثار عن أصحابها دهرأً ويدركها الفناء فتتبع
أو قول شاعر آخر (١) :

انظر إلى الهرمين واسمع منهما ما يرويان عن الزمان الغابر
لو ينطقان لخبرانا بالذي صنع الزمانُ بأول وبآخر

وفي مجال الآثار أيضاً يتحدث القلقشندي عن بعض الآثار الإسلامية التي لازالت صامدة في القاهرة مثل : باب زويلة الذي يقول عنه صاحب صبح الأعشى إنه من أعظم الأبواب وأشمخها وأنه قد بناه العزيز بالله الفاطمي وأكمله بدر الجمالي ، ثم يورد شعراً لعل بن محمد النيلي في وصفه (٢) :

يا صاح لو أبصرت باب زويلة لعلمت قدر محله بنياناً
باب تآزر بالجرة وارتدى الشعرى ولاث برأسه كيوانا
لو أن فرعوناً رآه لم يرد صرحاً ولا أوصى به هامانا

والقلقشندي نفسه يحاول أن ينجح نهج الشعراء وأن ينخرط في سلكهم ولكن دون ملكة أصيلة أو استعداد سابق ، فهو حين يرى الشعراء يكتبون في موضوع بعينه يسارع إلى السير في الركب ، فحين بني الظاهر برقوق مدرسته الظاهرية نظم فيها قصائد عديدة ، ويجد القلقشندي الفرصة مواتية له لعله يحظى بقلب شاعر فيقول :

وبالخليل قد راجت عمارتها في سرعة بنيت من غير مامهل
كم أظهرت عجباً أسواط حكمته وكم غدت مثلاً ناهيك من مثل

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٢٥ •

(٢) نفس المصدر ٣٥٣ •

وكم صخور تخال الجن تنقلها فلها بالوفا تأتي وبالعجل

وللقشندى شعر منتشر في أماكن متفرقة من كتابه ، ولكنه ليس من القيمة الأدبية أو الفنية بحيث يستحق أن نقف أمامه طويلا ، بل قد يكون من الخير ألا نعرض له على الإطلاق لأنه إلى مجرد النظم أقرب منه إلى الشعر ، ومن ثم فقد ضربنا صفحا عنه حتى تظل صورة القشندى الأديب الكاتب المؤلف حافظة لقيمتها من التقدير .

ثالثا : السمات الفنية للبلاغة والنقد في صبح الأعشى :

وكتاب صبح الأعشى وقد أنشأه صاحبه لتعليم المتأدبين فن الإنشاء لم يقصر في الدراسات البلاغية والنقدية وفن القول الجمالي ، وهي فنون لازمة للمتأدب وضرورة من ضرورات الصناعة .

لقد أفرد القشندى فصولا غير قليلة لأبواب البلاغة في مواطن عديدة من أجزاء كتابه ، وبصر المتأدب بدقائق فصول البلاغة وتفصيلها : من معاني وبيان وبدیع ، ضاربا الأمثلة الكثيرة المختارة بعناية ، المنتقاة بلبق سليم ، التي يفيد منها المتأدب عقلا وأدبا .

إننا لا نستطيع أن نعد القشندى ضمن زمرة البلاغيين أو النقاد الذين تخصصوا في هذه العلوم وتفرغوا لها ، فإن ذلك لم يخطر ببال القشندى نفسه ، وإنما استطاع الرجل أن يقدم لطالبي العلم دراسات في هذا السبيل اعتمد فيها على البلاغيين القدماء من أمثال : ابن قتيبة وأبي هلال والجرجاني وابن الأثير وغيرهم ، ينقل عنهم في أمانة ، وينسب إلى كل واحد منهم رأيه في ثقة به واحترام لرأيه ، ثم هو في كثير من الأحيان يدل بدلوه ويسهم برأيه إذا ما أحس أن الحاجة تدعو إلى ذلك .

وهو في هذا السبيل أيضا يقدم للدارسين - وقد رأى أن ذلك ضروريا - دراسات عن مذاهب الأقدمين من البلاغيين في مؤلفاتهم ، فيذكر أن ابن قتيبة بنى كتابه « أدب الكاتب » على أمور من اللغة والتصريف وطرف من

بالهجوم (١) : وأورد لابن قتيبة النص المتعلق بذلك في قوله : وليس كتابنا هذا لمن لم يتعلق بالإنسانية إلا بالجسم ولا من الكتابة إلا بالرسم ، ولم يتقدم من الأداة إلا بالقلم والنواه ، ولكنه لمن شدا شيئا من الإعراب فعرف الصدر والمصدر ، وانقلاب الباء عن الواو والألف عن الياء ، وأشبه ذلك من النظر في الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية

وعرض القلقشندي لكتاب الصناعتين فيقول إن أبا هلال قد تابع ابن قتيبة في الكثير من آرائه ، ويورد النص المتعلق بذلك تذكيرا للمتاب وإلحاحا على خاطره حتى يحسن التلقي ويخرج بالفائدة (٢) ، ويحاول القلقشندي أن يؤكد تلك المعاني جميعا فيأتي بقصة طريفة هي قصة عمرو بن مسعدة والحائك التي أشرنا إليها في صفحة سابقة من هذا البحث .

وإذا كانت اللغة هي أصل علوم البلاغة وماعونها فإن القلقشندي يفسح للحديث عنها شطرا من صفحات كتابه . وهو يتعصب لها فيذكر فضلها وما اختصت به على غيرها من اللغات الأخرى ، ثم يتوسع في ذكر غريبها والمتباين منها ، والمترادف ، والمتضاد ، والحقيقة والمجاز والمقصود والمملود ، والمذكر والمؤنث ، والمهموز وغير المهموز ، والمزدوج والمرب ، والمختلف اسما متشابه معنى ، كل ذلك في بسطة من القول معتمدا على مراجع من تأليف الأقدمين مثل : ابن قتيبة والأصمعي والعمالي في فقه اللغة ، وأبي جعفر النحاس في « صناعة الكتاب » وكشاجم في « كثر الكتاب » ، والمصنفات اللغوية للجوهري وابن سيده وابن فارس (٣) :

والقلقشندي إذ يقدم هذه الدراسة اللغوية التي يعتبرها أصل الكتابة يفرد فصلا طويلا لعلوم المعاني والبيان والبدیع ، وهو في هذه الفصول يعتمد على الأمثلة الكثيرة الوفيرة من القرآن الكريم والحديث الشريف وخطب البلغاء وأمثلة شعرية وأمثال عامة ، عاملا إلى الإمتطراد دون

(١) صبح الأعشى ١/١٤٠ .

(٢) المصدر السابق ١/١٤١ .

(٣) نفس المصدر ١٥٢ وما بعدها ، ٢/٢١٤ وما بعدها .

التخريف بما هي كل فصل من هذه الفصول ، وكأنما قد جعل ذلك كله بمثابة تمهيد للدراسة مطولة جاء بها متفرقة في الأجزاء التالية من كتابه . (١)

ولما كان الإيجاز من الألوان الأسلوبية التي تتميز بها العربية دون غيرها من اللغات ، وهو في نفس الوقت ضرورة كتابية في كثير من المواقف ، فإن القلقشندى يخصه وضده « الإطناب » بفصلين في الجزء السادس من كتابه ، فيذكر المواطن التي يحسن فيها الإيجاز ويحدها بخمسة مواطن إذا كانت الكتب صادرة عن السلطان أو أحد الرؤساء إلى الأتباع ، ويحدها بثلاثة مواطن إذا كانت الكتب صادرة عن الأتباع إلى السلطان أو الطبقة العليا من الرؤساء . وهو حين يتحدث عن الإطناب والبسط في القول يستحسنه في موضعين : إذا كان الكتاب صادرا عن السلطان أو أحد الرؤساء إلى من هم دونه ، ويستحسنه في موضع واحد : إذا كان الكتاب صادرا من مرعوس إلى رئيس . (٢)

وقد لاحظنا في كل ما كتبه القلقشندى عن الإيجاز والإطناب أنه عالة على صاحب « مواد البيان » وأنه عالة على البلاغيين عامة في جميع ما كتبه في شأن البلاغة . ونحن لا نعتبر ذلك عيبا عند القلقشندى ، ذلك أنه لم يدع أنه بلاغي ، وإنما موقفه موقف المعلم الذي يرجع إلى المصادر المشروعة التي يأخذ منها مادة درسه ثم يتقمحها ويهذبها ويحسن عرضها على تلاميذه .

فإذا ترك القلقشندى القيود التي غلت يديه عن الانطلاق ، ونعني بها قيود البلاغة التي لم يستطع أن يجد لنفسه فيها سوى مكان الناقل المقلد ، وخلص إلى الكتابة الجمالية ، وجدناه أديبا ذا ذوق وأصالة في تمهده لموضوعات العرض الجمالي لفنون القول والإنشاء .

ففي مقام حديث الشعر والنثر نجد متحمسا كل التحمس للنثر دون الشعر بصفة عامة ؛ اللهم إلا في مقام الاستشهاد به ، وهو ينتهز الفرصة

(١) راجع صبح ٢١٤/٢ وما بعدها .

(٢) الصبح ٢١٥/٦ وما بعدها .

فيحكى قصة الاستشهاد بالشعر وبدايتها ، ويذكر أن هذه الظاهرة الأدبية بدأت حين كتب عثمان إلى علي - وقد اجتمع المتأملون حول بيته لقلته - رسالة ضمنها البيت المشهور :

فإن كنتُ مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمرتُ
وأما من حيث المعيار النقدي عند القلقشندي ، فإن تفصيله للنثر وتعصبه له واضح حيث يسوق لتركية رأيه الحجة تلوا الحجة ، ويأتى بالمثال تلو لمثال ، فيقول : « النثر أرفع منه درجة ، وأعلى رتبة وأشرف مقاما ، وأحسن نظاما ، إذ الشعر محصور في وزن وقافية ، يحتاج الشاعر معها إلى زيادة الألفاظ ، والتقديم فيها والتأخير ، وقصر الممدود ومد المقصور ، وصرف ما لا ينصرف ومنع ما ينصرف من الصرف ، واستعمال الكلمة المرفوضة ، وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها ، وغير ذلك مما تلجئ إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لألفاظه . والكلام المنشور لا يحتاج فيه إلى شيء من ذلك ، فتكون ألفاظه تابعة لمعانيه ، ويؤيد ذلك أنك إذا اعتبرت ما نقل من معاني النثر إلى النظم وجدته قد انحطت رتبته ، ألا ترى إلى قول أمير المؤمنين على كرم الله وجهه : « قيمة كل امرئ ما يحسن » أنه لما نقلها الشاعر إلى قوله :

فيا لأمي دعني أغالى بقيمتي فقيمة كل الناس ما يحسنونه

قد زادت ألفاظه وذهبت طلاوته ٠٠٠٠ وإذا اعتبرت ما نقل (١) من معاني النظم إلى النثر وجدته قد نقصت ألفاظه وزادت حسنا وروفا . ويأتى القلقشندي ببيت المتنبي في وصف معركة الحدث التي جرت بين سيف الدولة الحمداني والبيزنطيين .

وكان بها مثل الجحون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمسائم
ثم يأتى بكلام لضياء الدين بن الأثير وقد نثر البيت في قوله : وكأنما كان بها جنون فبعث لها من عزائم عزائم وعلق عليها من رعوس القتلى

(١) صبح الأعشى ١/ ٥٨٠

تماماً : ويعجب القلقشندى كل الإعجاب بنثر ابن الأثير ويعلق عليه
قائلاً : إن المعنى قد جاء في غاية الطلاوة خصوصاً مع التورية الواقعة
في ذكر الغزائم مع ذكر الجنون :

ويعضى القلقشندى في تحمسه للنثر وتفضيله على الشعر ذاكراً أن الله
سبحانه وتعالى أنزل الكتاب العزيز مثوراً ، وذم الشعر في قوله تعالى :
« وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون » وقوله تعالى « وما علمناه الشعر
وما ينبغي له » :

ويبدو أن القلقشندى وقد أحب الكتابة كل الحب لم ينتبه إلى مافى الشعر
من سحر وجمال ، فحجب ذلك عمداً في بعض المواضع ، ثم ما لبث
جلال الشعر أن دفع به إلى الاعتراف به في صفحات كثيرة من كتابه ،
فهو يصف الشعر بتفرده في اعتدال أقسامه وتوازن أجزائه وتساوى قوافي
قصائده مما لا يوجد في غيره من سائر أنواع الكلام ، مع طول
بقائه على مر الدهور وتعاقب الأزمان ، وتداوله على ألسنة الرواة وأفواه
القلة ، فتمكن القوة الحافظة منه بارتباط أجزائه ، وتعلق بعضها ببعض ،
مع شيوحه واستفاضته ، وسرعة انتشاره وبعد مسيره ، وما يؤثره من
الرفعة والضعفة باعتبار المدح والهجاء ، وإنشاده بمجالس الملوك
الحافلة والمواكب الجليلة بالتقريظ وذكر المفاخر وتعدد المحاسن... وقبوله
لما يرد عليه من الألحان المطربة المؤثرة في النفوس اللطيفة والطباع
الرفيعة ، وما اشتمل عليه من شواهد اللغة والنحو وغيرهما من العلوم
الأدبية وما يجرى مجراها . . . وكونه ديوان العرب ومجتمع تمكثها ،
والحيط بتاريخ أيامها وذكر وقائعها وسائر أحوالها ، إلى غير ذلك من
الفضائل الجملة والمفاخر الضخمة :

إن القلقشندى يصف الشعر بهذه الأوصاف الثريفة الرائعة التي تجعل
له - دون شك - مكان الصدارة ولكنه مع ذلك يستطرد فيقول إنه
بالرغم من كل ذلك فإن النثر أرفع منه درجة وأعلى رتبة : مر إلى آخر
الأوصاف التي خلعتها على النثر والتي مر ذكرها قبل قليل :

والقلقشندى لا يستطيع أن يصمد طويلاً أمام جلال الشعر وسحره
 فيقول في مكان آخر من كتابه : الشعر هو المادة الثالثة للكتابة بعد القرآن
 الكريم والأخبار النبوية — على قائلها أفضل الصلاة والسلام — وخصوصاً
 أشعار العرب فإنها ديوان أدبهم ومستودع حكمهم وأنفس علومهم
 في الجاهلية ، به يفتخرون ، وإليه يحتكمون (١) :

إن القلقشندى يخاصم الشعر حيناً ويستعين به في استجلاء كفة البلاغة
 العربية أحياناً ، ومع ذلك فإنه يفضل النثر عليه . ليت شعري ماذا كان
 متوقفاً لموقفه لو أنه وهب ملكة الشعر نامية خلاقة !!

ومن الأمور العجيبة رغم تحمس القلقشندى للنثر دون الشعر أن ذوقه
 في اختيار شواهد الشعر في كتابه يجعله في مكان رفيع من حسن التلوق
 ورقة الاختيار ، لقد رصع القلقشندى كتابه بنماذج من الشعر الرقيق
 الأسلوب العميق المعاني مما يجعل الخاطر يرتاح إليه ولا يمل تكراره . إنه
 حين يتكلم عن المعاني المستقيمة الحسنة يختار طائفة من أبيات الشعراء الجليل
 نورد بعضها منها :

قال معن بن أوس في الفخر :

| | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| لعمرك ما أهديت كفى لريبة | ولا حملتني نحو فاحشة رجل |
| ولا قادني سمعى ولا بصرى لها | ولا دلتني رأيي عليها ولا عقل |
| وأعلم أنني لم تصبني مصيبة | من الدهر إلا قد أصابت قتي قبل |
| ولست بمأش ما حييت لمنكر | من الأمر لا يمشی إلى مثله مثل |
| ولا مؤثر قمسى على ذى قرابة | وأؤثر ضيقى ما أقام على أهل |

وقال شاعر آخر :

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء في جانب الفقر

(١) المصباح ١٠/٢٨٦ .

وقال بشار :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت ، وأى الناس تصفو مشاربهُ !!

وقال أبو العتاهية فى الوعظ بزوال العز والنعمة بالموت :

وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حياً

وقال أبو تمام فى الأيام :

على أنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

ومن الأبيات الجميلة قول يزيد من الطرية فى محبوبته :

بنفسى من لو مر برد بنانه على كبدى كانت شفاءً أنامله

وقول عروة بن أذينة :

إن التى زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها

بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباسقة فأدقها وأحلها

حجبت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها !

ولإذا وجدت لها وساوس ملوة شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها (١)

لاغربة إذن حينما ندهش للقلقشندى وهو يفضل النثر على الشعر ، غير أن علوه فى كونه كاتباً فى ديوان الإنشاء الذى يعتمد على النثر دون الشعر ، وأنه يعلم الإنشاء الذى يعتمد أيضاً أكثر ما يعتمد على النثر دون الشعر :

وفى مجال دراسة تقديهِ جمالية للأمثال العربية يقدم لنا صاحب «صبح الأعشى» فصلاً طيباً ينقل فيه قول أحمد بن عبد ربه : «الأمثال هى وشى الكلام ، وجوهر اللفظ ، وحلى المعانى ، والتى تخيرتها العرب ، وقلمتها العجم ، ونطق بها فى كل زمان على لسان ، فهى أبقي من الشعر ،

(١) نماذج عديدة من الشعر الراقى فى الصبح ١٨٦/٢ - ٢١٤

وأشرف من الخطابة ، لم يشر شيء كسيرها ، ولا عم عمومها حتى
قالوا : أسير من مثل ، قال الشاعر :

« ما أنت إلا مثل سائر يعرفه الجاهل والخابر » (١)
ودراسة الأمثال تلك التي أفردتها القلقشندی بحديث طويل تلور كلها حول
الأمثال العربية التي توفر عليها قبله : الميداني والمفضل الضبي وحزمة الأصهباني
والقمي . ثم إن القلقشندی أشار إلى الأمثال التي جاءت شعرا عند المولدين
من أمثال جرير والفرزدق ، والتي جاءت عند شعراء المحدثين كأبي العتاهيه
وأبي تمام والمتنبي . والأمثال التي يأتي بها صاحب صبح الأعشى ثرية
وشعرية ، وكلها أمثلة راقية مختارة ، يقسمها قسمين ، أو على حد
تعبيره ، ضربين : قسم قريب الفهم بظهور معناه وكثرة دورانه بين
الناس ، وقسم بعيد الفهم لخفاه .

ويأتي القلقشندی بأنموذج للمثل القريب الفهم الكثير الدوران على
الأسنة في قولهم : « عند الصباح يحمد الناس السرى » . والمثل بهذه الصيغة
متعلم المعنى والمرمى ، ولكن أدينا زيادة منه في الإيضاح يشرح غرض
المثل ويبين ما يمكن أن يكون قد استبهم من هدفه ويحكى قصة قائله
وهو خالد بن الوليد الذي أراد بضربه الترغيب في السير في الليل والحث
عليه :

ويجيء القلقشندی بمثل آخر من نفس الضرب ، وهو : « ساء
سمعا فأساء إجابة » وإذا كان المثل مفهوم المعنى والهدف دون حاجة
إلى مزيد من الإيضاح ، فإن قصته غير معروفة ، ولذلك فإن أدينا
يحكيها في إيجاز لطيف ، ويذكر أن أول من قال ذلك هو سهيل بن
عمرو ، وكان قد تزوج صفية بنت أبي جهل فولدت له ابنة « أنسا » فراه
الأخنس بن شريق الثقفي معه ، فقال : من هذا ؟ فقال سهيل : ابني
فقال الأخنس : حياك الله يابني ! أين أمك ؟ فقال الإبن : لا والله

(١) صبح الأعشى ١/ ٢٩٦ .

ما أمسى ثم ، انطلقت إلى بيت أم حنظلة تطحن دقيقا ، فقال أبوه :
ساء منعا فأثناء إجابة .

ويأتى القلقشندى بنماذج للضرب الثانى من الأمثال ، وهى البعيدة الفهم
لخفاها فيذكر مثلا طيب الواقع عذب الرنين وهو : « إن يبيع عليك قومك
لا يبيع القمر » (١) ثم يشرح القلقشندى هدف المثل فيقول : إنه يضرب
لمن ينكر الأمر الظاهر عنادا ، ثم يحكى قصته متقولة عن المفضل
الضبي ، وتتلخص فى أن بنى ثعلبة بن سعد بن ضبة فى الجاهلية
تراهوا على الشمس : فقالت طائفة : تطلع الشمس والقمر يرى :
وقالت طائفة : يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس ، فتراضوا برجل
يجلوه بينهم حكما ، فقال واحد منهم : إن قومى ييغون على ،
فقال الحكم : إن يبيع عليك قومك لا يبيع القمر .

ويعرض القلقشندى لمجموعة رائعة من الأمثال الشعرية التى جاءت
فى مسرى القول الحكيم على ألسنة شعراء جاهليين وإسلاميين ومحدثين
على ما ألتحنا فى صدر هذا الحديث ، فيذكر ذلك المثل المشهور المفهوم
فى كل زمان ومكان وهو : « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » وهو المصراع
الثانى لبيت مشهور لطرفة بن العبد :

ستبى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويعمد القلقشندى إلى الطرافة وهو يذكر هذا المثل فيوشى قوله بحكاية
طرفة تلخص فى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بهذا
المثل ، ولكنه كان يفرط عقده ويخرجه عن الوزن ، لأن الرسول
كان يرى أنه لا يجمل به أن يقول شعرا ، فكان يردد المثل بصيغة
غير منظومة وهى : « ويأتيك من لم تزود بالأخبار » :

والقلقشندى يذكر فى إعجاب بيت النابغة :

ولست بمستبق أحدا لآتله على شعث ، أى الرجال المهذب ؟

(١) الصبح ٢٦٧/١ .

ولكنه لا يذكر هذا المثل الجميل مجرداً من أروع قصة ارتبطت به ، بل يأتي بها مستهدفاً بنهايات بعيدة ، لعل أهمها إثبات النوق الأدبي والمعار النقدي عند التحليقة الثاني عمر بن الخطاب . والقلقشندى يسوق هذه الدراسة الجمالية كلها في الأمثال بثناً للروح الأدبية عند الكتاب وعوناً لهم على تجميع ثقافة إنشائية واسعة . فالقلقشندى في صدر هذا المثل يذكر أن عمر بعد أن تمثل بالبيت تسأل العارفين : لمن هذا ؟ فقيل له : للنابعة : فقال : ذلك أشعر شعرائكم . والمثل الحكيم الذى تضمنه البيت هو : « أى الرجال المهذب ؟ » .

وأدينا يناقش الأولين ممن عنوا بالأخبار الأدبية ويصحح أخطاء بعضهم ، على أنه على الأرجح لم يقصد إلى التصحيح بقدر ما قصد إلى الإطراف يذكر قصة أعجبه أو مثل راقه ، إنه يذكر قول الأصمعى : لم أجد فى شعر شاعر بيتاً أوله مثل وآخره مثل إلا ثلاثة أبيات ، (١) بيت الخطيئة :

من يفعل الخير لا يعلم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
وبيتى امرئ القيس :

وأفنتهنَّ عِلْبَاءُ جَرِيضاً ولو أدركته صَقِيرَ الوِطَابِ
وقاهم جدُّهم ببنى أبيهم وبالأشقيين ما كان العِقَابُ

ثم يرد القلقشندى على الأصمعى بشكل مباشر فيأتى بعبارة لصاحب العقد الفريد فى هذا المقام وهى قول ابن عبد ربه : « ومثل هذا كثير فى القديم والحديث ، ولا أدري كيف أغفل القديم منه الأصمعى ، ومنه ، « سبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً » . والبيت بكماله قد مر ذكره قبل قليل ، وكل من مصراعيه يفيد حكمة بالغة وجرى مجرى الأمثال السائرة ، ويزيد من شهرته وذيوعه ارتباطه باستشهاد الرسول صلى الله عليه وسلم به مثورا . فالجدير بالذكر إذن أن القلقشندى — فى أدب جم — لا يحاول



أن يرد على الأصمعي بنفسه بل فضل أن يجرى الرد على لسان من هو أعلم منه .
في هذا الموضوع ، فجعل تصويب الأصمعي صادراً عن أحمد بن عبد ربه ،
وهما فرساً رهان في هذا الميدان ، ميدان الأخبار الأدبية ، أو ألبها
وشواردها .

ولكى يحيط القلقشندى بموضوعه الأدبي في ميدان الأمثال ، ولكى
يغرب ويطرف ويستطرد ؛ فإنه يأتي ببعض الأمثال الموضوعة على لسان الحيوان ،
بعضها عربي وبعضها فارسي أو هندي دخل أدبنا العربي فتقبله وصار مجالا
للاستشهاد به ، إنه يذكر المثل المشهور الذي قيل على لسان ثور أحمر ،
وهو : « إنما أكلت يوم أكيل الثور الأبيض » ، وقصة المثل معروفة
للخاصة وأنصاف الخاصة ، غير أن القلقشندى يضيف أن أول من تمثل
بهذا القول هو أمير المؤمنين على كرم الله وجهه حين رأى خلاف أصحابه
وتخاذلهم ، وقد عني بذلك أنه إنما خذل يوم خذل عثمان .

وإذا كان المثل السابق أقرب إلى الوضوح وأكثر ذبوعاً في الاستشهاد ،
ليس في عصر القلقشندى وحده بل إنه كذلك في عصرنا هذا الذي
نعيشه ، فإن أدبنا يأتي بمثل آخر جري مجرى القصة الحكيمة ، وهي
حكاية موضوعة على لسان الحيوان ؛ تلخص في أن أخوين هبطا بفنهما
وادبا يربعان فيه فخرجت حية من تحت الصفا وفي فمها دينار فألقته إليهما ،
وأقامت على ذلك أياما ، فقال أحدهما لا بد من قتل هذه الحية وأخذ هذا
الكنز ، ففناه أخوه عن ذلك ولكنه لم يقبل ، وحين خرجت الحية ضربها
بفأس أخطأت قتلها ولكنها شجرت رأسها فشذت عليه وقتلته ، فدفنه أخوه
مقابلا ، فلما خرجت مرة أخرى من جحرها قال لها الأخ : هل لك
أن تتعاهد على المودة وعدم الأذية وقعطيني ذلك الدينار كل يوم ، فقالت :
لا ، فقال : ولم ؟ ، قالت : لأنك كلما نظرت إلى قبر أخيك
لا تصفولي ، وكلما ذكرت الشجة التي في رأسي لا أصفوك .

إن القلقشندى يأتي بهذا المثل كما نظمه النابغة وتمثل به :

كما لقيت ذات الصفا من حليفا وكانت تُريه المال غباً وظاهراً .

فلما رأى أن قد تَشَمَّرَ ماله وأثَّلَ موجوداً وسدَّ مفاقره
أكبَّ على فأسٍ يحدُّ غرابها مذكرةً بين المعاول بآثرة
فلما وقاها الله ضربة فأسه ولله عينٌ لا تُخَمِّصُ ناظرة
فقال تعالى "نجعل الله بيننا على ما لئنا أو تتجزى لى آخره
فقالَتِ يمينَ الله أَفْعَلْ لئننى رأيتك مسخرياً يمينك فاجرة
أبى لى قَبْرٌ لا يزال مقابلي وضربة فأسٍ فوق رأسى فاقرة

ومهما يكن أمر البلاغة مع القلقشندى فهو قد أولاها فى كتابه فصولاً عديدة كان فيها معتمداً على البلاغين المتخصصين، أما ملكته النقدية فإنها مصقولة الحواشى صافية اللوق أعطت كتابه وجهاً جميلاً فى فن القول ووجوه نقد الكلام والتمييز بين غشه وثمينة ، ورائقه ومخزونه ومألوفه وحواشيه ، كل ذلك فى صبر ووفرة وقلرة تدعو إلى اقتناص النفع واستجلاب الفائدة .

رابعا : النصوص التى تضمنها الكتاب :

إن صبح الأعشى من حيث النصوص الأدبية التى احتواها يعتبر أغنى مرجع عربى فى هذا الشأن نظراً لوفرة عدد الرسائل التى ضمنها دفناه . لقد تعب القلقشندى دون شك فى جمع هذه النصوص المتنوعة الأشكال والأغراض ، ولا يقلل من مجهوده الكبير كونه أحد المحررين بديوان الرسائل حيث الكثير من الوثائق قريبة منه سهلة المأخذ ميسورة التناول .

فى ميدان الخطابة جمع القلقشندى مجموعة كبيرة من خطب العرب ومفاخراتهم ومنافراتهم فى الجاهلية والإسلام كما أثبت مجموعة كبيرة من خطب الرسول صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين وملوك بنى أمية وولاتهم والخارجيين عليهم ، وبلغاء العرب عامة من رجال ونساء : (١) وفى مجال النثر استطاع القلقشندى فى صبح الأعشى أن يغطى جميع

(١) انظر صبح الأعشى ٢١١/١ وما بعدها .

المساحات الزمنية والمكانية التي نطق فيها لسان عربي أو جرى فيها قلم عربي على صفحة قرطاس ، فجاء بمجموعة هائلة من الرسائل الديوانية والاجتماعية الأدبية على وجه سواء ، وهي كلها صفحات نقية بارعة من صفحات أدبنا الرفيع ؛ تشهد للكثرة الوافرة من أصحاب الأقلام بالتفوق والسبق والنبوغ ، إن تلك الرسائل على بلاغة إصوغها وبهاء روتقها تعتبر وثائق تاريخية وأدبية واجتماعية قيمة نادرة ، وقد يستطيع المؤرخ أن يفيد منها أكثر مما يفيد الأديب ؛ لقد ضمت مجموعة الرسائل المنتشرة في الكتاب : رسائل الرسول إلى من دعاهم إلى الإسلام من الملوك والزعماء داخل الجزيرة وخارجها ، كما ضمت رسائل لأعلام الكتاب في مختلف الأغراض كتبها : عبد الحميد وابن عبد كان والصابي وابن العميد وكشاجم والبيضاء والقاضي الفاضل وشهاب الدين محمود الحلبي وصلاح الدين الصفدي والشيخ جمال الدين بن نباته ولسان الدين بن الخطيب الأندلسي وغيرهم . إنها رسائل كتبت في الحرب والسلام ، والفتوح والمعاهدات ، والمواثيق والعهود ، والولايات وزجر الخارجين على السلطان ، بحيث تشكل باختلاف موضوعاتها منهلأ غنياً متجدداً لكتابة التاريخ الإسلامي وتاريخ الأدب والحضارة العربية والإسلامية ، بل والتاريخ الاجتماعي للأمة الإسلامية مستمداً من الموضوعات المتسمة بالغرابة التي اتخذتها الرسائل الاجتماعية موضوعاً لها على النحو الذي سنفصله بعد قليل .

ولكي نيسر على الدارس تصنيف أغراض الرسائل التي ضمها « صبح الأعشى » بين دفتيه ونوضح قيمتها تاريخياً وسياسياً وأدبياً ، فإننا نحاول أن نقدمها في أبوابها وأغراضها المناسبة لها :

أ- رسائل الحرب : وهي تلك الرسائل التي كانت تصدر على لسان القائد حينما يخوض معركة ويكتب له فيها النصر ، يوجهها إلى الخليفة أو السلطان ، كما كانت في أحيان كثيرة توجه من سلطان إلى سلطان آخر ، وهذه الرسائل تكون طويلة في العادة لضرورة المناسبة إلى الإطناب في الوصف والتفصيل في شرح المعركة ، ومن الرسائل التي يمكن أن تتخذ نماذج

في هذا السبيل: رسالة الخليفة العزيز بالله نزار الفاطمي إلى عامله بمصر يبشره بالفتح حين خرج لحرب القرامطة بالشام (١) وهي مستهلة بالتحميدات الطويلة التي هي صفة مدرسة عبد الحميد في الكتابة ، كما أن الإطناب والبسطة في القول والكثرة في المترادفات تشكل الميزة الواضحة للرسالة ، وفي إحدى فقراتها يقول الكاتب :

و فأمر أمير المؤمنين بترين العساكر المنصورة والجيوش المظفرة ، وتعبثها على مراتبها ، وترتيبها على مواكبها ، وتقدم إلى قوادها ألا يمشوا إلا صفّاً ولا يسيروا إلا زحفاً ، وعرفهم أنه سيسير بنفسه ، ويقصد اللعين بموكبه وجمهوره ، ومن معه من حماة رجاله ، وأنه لا يثنيه عن القاسق ثان ، ولا يصرفه عن الاقتحام صارف ؛ قبلنا من عزائمهم ، وشدة شكائهم ، وخلوص بصائرهم ، وسكون أفئدتهم ، وثبات أقدامهم ، ما كانت به دلائل النصر واضحة ، وشواهد الفلح فائحة ، وعلامات النصر ظاهرة ، وآيات النجاح باهرة ، فمشوا على ما أمروا ، وساروا على ما سيروا ، فعندما دنوا من عدا الله ، أصابوه للجلاد معداً ، وفي المحاربة مجداً ، واستخاروا الله عز وجل ، وتدانوا للثلاق ، والأخذ بالنواصي والأعناق ، وقامت الحرب على ساق ، وتجرع منها أمراً مذاق ، فاستطار شرارها ، وتأججت نارها ، وارتفع دخانها ، وعظم شأنها ، والترم الأقران بالأقران ، واشتد الضرب والطعان وقذف الله في قلوبهم الرعب فترلزت أقدامهم ، وأرعشت أيلهم ، ونجت أفئدتهم ، وولوا الدبر منهزمين ، ومنحوا ظهورهم مولين

ومن أمثلة رسائل الحرب أيضاً — وهي كثيرة في صبح الأعشى — رسالة كتبها أبو اسحاق الصابي عن عز الدولة بن بويه إلى الخليفة المطيع عند فتح الموصل وهزيمة أبا تغلب بن ناصر الدولة الحمداني (٢) ورسالة ابن الخطيب عن سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس إلى المستنصر بالله أبي اسحاق خليفة الموحدين بالأندلس (٣) ، وهي رسالة مسرفة في الطول مليئة بالصناعة

(١) صبح الأعشى ٤٣٢/٦ - ٤٣٦

(٢) الصبح ٤٨٢/٦

(٣) المصدر السابق ٥٣٦/٦ - ٥٥٨

والترادف والامترسال ، ومع أنها حرية ، فإن معاني الحرب فيها لم تأخذ نصيبها كاملا ، ولكنها على كل حال رسالة جذيرة أن يطلع عليها لما فيها من جهد ، ولأنها تخوذج للكتابة الأندلسية في تلك الفترة من الزمان .

ولعل سيد كتاب رسائل الحرب هو القاضي الفاضل كاتب صلاح الدين ووزيره الذي ارتبطت وزارته بالملك الذي حرر بيت المقدس وطهر الأرض العربية من الوجود الصليبي ، وله في ذلك رسائل كثيرة كتبها على لسان صلاح الدين ، بعث بها إلى الخليفة العباسي في بغداد (١) يقول في واحدة منها : « وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شققا ، وطارت فرقه فرقا ، وقُلَّ سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصا ، فكلت حملاته وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان ، عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغضبت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون ، وجذعت أنوف رماحهم طالما كانت شاعخة بالمني أو راعفة بالمنون . . . »

ومن العجيب أن القارئ لرسائل القاضي الفاضل في وصف الحروب الصليبية وسابقة اعتداء الصليبيين على البلاد وتهديد الأمن وإيقاع الأذى بالناس ليكاد يحس أن القاضي الفاضل وهو يصور الفترة السابقة على الانتصار إنما يصور الموقف الراهن في البلاد العربية مع عدونا الذي يحتل الآن فلسطين وبيت المقدس .

ب — رسائل الزجر والاستصلاح : وهذا النوع من الرسائل كان مألوفاً ، وكان يعتمد إليه في حالة خروج قائد عن الطاعة أو عصيان وال على الخليفة أو السلطان ، وأحيانا أخرى في حالة ثورة قطر من الأقطار : لقد جاء القلقشندي بعدد من الأمثلة في هذا المقام لعبد الحميد (٢) ولاين عبد ربه كان على لسان أحمد بن طولون لولده العباس وقد خرج عليه (٣) :

(١) نفس المصدر ٤٩٦ وما بعد .

(٢) صبح الأعشى ٢٦٨/٨ .

(٣) المصدر السابق ٥/٧ وما بعدها .

ولابن العميد أبي الفضل إلى قائد شق عصا الطاعة اسمه ابن بلكا (١).
وليحيى بن زيادة وزير الخليفة العباسي الناصر لدين الله إلى طغرل مقطع
البصرة وقد نرح عنها مفارقا طاعة الخليفة (٢) ، ولأبي حفص بن برد
الأندلسي عن ملكه إلى مستول تمرد ثم عاد إلى الطاعة من تلقاء نفسه . (٣)

لقد رأينا أن خير تسمية لهذا النوع من الرسائل هي أحب الزجر
والاستصلاح ، ذلك أن كل رسالة من هذه الرسائل المشار إليها بلغت قمة
عالية من قوة الأسلوب والنفاذ إلى أعماق النفس الإنسانية سالكة سبيل
الزجر والتخويف والترهيب حيناً ، علملة إلى أسلوب المصانعة والملاطفة
والترغيب حيناً آخر ، وكل رسالة من هذه الرسائل لها ميزة تنفرد بها
عن غيرها ، ولكنها جميعاً تقع في أسنى مراتب فن الإنشاء الرفيع ،
وذكر فقرات منها لا يغنى عن الاطلاع عليها جميعاً .

ج - الرسائل السياسية : ونعني بها الرسائل التي تعرض للأمر
الدبلوماسي بمفهوم عصرنا الحديث ، وهذه الرسائل ترقى في مواطن
الرقعة ، وتخشن في مواطن الخشونة ، وتجاور وتجادل حيث تتطلب المواقف
حواراً أو جدالاً .

لقد أورد القلقشندي أكثر من رسالة سياسية جرت في نطاق الوطن
الإسلامي ، منها الرسائل البليغة المتسمة بالشدة والعنف التي جرت بين علي
ابن أبي طالب ومعاوية حول الخلافة وامتناع معاوية عن البيعة إلا إذا أُر
على من قتل عثمان (٤) كما أورد أيضاً الرسائل المتبادلة بين كل من المنصور
الخليفة العباسي الثاني ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن
أبي طالب الملقب بالنفس الزكية ، والتي كان قد بوع بالخلافة في زمن

(١) المصدر السابق ٢٧٥/٦ (أورد القلقشندي فقرة قصيرة من هذه الرسالة البليغة
لا تقتنى عن الاطلاع إليها ، وهي كاملة في نيتية الدرر للشمالي ١٦٣/٣ وكتابنا « الأدب
في موكب الحضارة الإسلامية ٥٠٣ » .
(٢) صبح الأعشى ٣٦٩/٨ .
(٣) المصدر السابق ٢٧٥/٦ .
(٤) صبح الأعشى ٢٢٨/١ .

المنصور (١) ، وكل ما حوته الرسائل المتبادلة بينهما يعتبر لونا جميلا من أدب السياسة ، أوبالأحرى هو باكورة أدب الدبلوماسية العربية الداخلية .

وفي النطاق الخارجى فإن الرسائل السياسية كانت حيناً عنيفة ، وحيناً أخرى لينة لطيفة ؛ ومن تلك التى تنسم بالعنف الشديد ما جرى بين الرشيد وتقفور ملك الروم (٢) حينما ألقى كل منهما القفاز في وجه صاحبه بحيث استفتح الرشيد رسالته إلى تقفور بقوله : « من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى تقفور ملك الروم . أما بعد فقد فهمت كتابك ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه ، والسلام على من اتبع الهدى » وقد جرى شئ من ذلك أيضا بين المعتمد وبين ملك الروم . (٣)

ومن الرسائل التى اتسمت بشئ من التناول في غير ما استعمال لألفاظ شديدة ، رسالة بعث بها ملك الفرنجة بالآندلس إلى يعقوب ابن عبد المؤمن أمير المسلمين بالآندلس (٤) مما جعل الأمير العربى يوقع على أعلى هذا الكتاب بالقول الكريم « ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها . لنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون » .

ولعل أرقى الرسائل الدبلوماسية التى أوردها القلقشندى حسن صياغة ولباقة دبلوماسية ، رسالة كتبها إبراهيم بن عبد الله النجيرمى عن محمد بن طنج الإخشيد إلى ارمانوس عظيم الروم ؛ ردا على رسالة كان أرمانوس قد بعث بها إليه (٥) ، وهى على طولها لم يتخل الكاتب فيها مرة واحدة عن المعنى اللبى الذى يجمع بين القوة والرقعة مع الحاجة والمحاوراة والمداورة بحيث يمكن أن تعتبر هذه الرسالة واحدة من أفضل أدب السياسة فى الأدب العربى : (٦)

(١) المصدر السابق ٢٢١/١ .

(٢) الصبح ١٩٢/١ ، ٤٥٧/٦ .

(٣) المصدر السابق ١٩٢/١ .

(٤) نفس المصدر ١٩٢/١ .

(٥) الصبح ١٠/٧ وما بعدها .

(٦) يمكن مراجعة عرضنا لهذه الرسالة فى «الأدب فى موكب الحضارة» ص ٥٢٢ .

وما بعدها .

كما أورد القلقشندي رسالة أخرى يمكن أن تقف من حيث المستوى الدبلوماسي مع رسالة التجيرمي - كان الخليفة الفاطمي الحافظ قد بعث بها إلى صاحب صقلية ، وهي تعالج بعض المواقف وتناقش بعض المشاكل بين البلدين ؛ في نطاق من سعة الأفق مع تأرجح بين الشدة المقبولة واللين الحازم . (١)

ونحن نعتبر أن هذا اللون من الكتابة هو أنسب ما يمكن أن يفيد منه من يعد نفسه من الناشئين الذين عنانهم القلقشندي وهو يؤلف لهم كتابه في صناعة الإنشاء .

د - رسائل الإدارة : أو الرسائل التي تتعلق بشئون الوظائف العامة المتصلة بالحياة الاجتماعية داخل البلاد وهي بلورها متنوعة الموضوعات كثيرة الأغراض أورد منها القلقشندي ما هو فوق الحصر ، ولكننا نلتقط بعض الموضوعات البارزة الطريفة منها كتعيين نقيب للأشراف ، أو تنصيب حاخام لليهود من سكان البلاد ، أو تقليد بطرك للمسيحيين ، ذلك أن الكاتب وهو يكتب مثل تلك الرسالة ينتهج أسلوباً خاصاً وينتقي معاني تتمشى مع طبيعة هدف الرسالة المتميز عن غيره من الأهداف ، فالقلقشندي يأتي لنا بنسخة تعيين أشهر نقيب للطالبيين ببغداد وهو الشريف الموسوي ، وقد كتبت بقلم ألمع كتاب العباسيين أبي إسحاق الصابئي ، وكانت بين الصابئي والشريف صداقة متينة ، حتى إن الصابئي لما مات - ولم يكن مسلماً بل كان صابئياً - خرج الشريف على نطاق التقاليد وراثه بقصيدتين من أرق ما قيل في الرثاء ، ولذلك نجد الصابئي يعطى هذا العهد عناية خاصة في الصوغ والإطراء فيقول فيها (٢) :

« هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين إلى محمد بن الحسين بن موسى العلوي حين وصلته به الأنساب ، وقرنت لديه الأسباب ، وظهرت دلائل عقله ولبابته ، ووضحت مخايل فضله ونجابته ،

(١) المصحح ٤٥٨/٦ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٢٤٧/١٠

ومهد له بهاء البوالة وضياء الملة أبو نصر بن عضد البوالة ما مهد عند أمير المؤمنين من المحل المكين ، ووصفه به من الحلم الرزين ، وأشار به من رفيع المنزلة ، وتقديم الرتبة ، والتأهيل لولاية الأعمال ، وتحمل الأعباء والأثقال ، وحيث رغبه فيه ، سابقة الحسين أبيه ، في الخدمة والنصيحة ، والمشايعه الصحيحة ، والمواقف المحموده ، والمقامات المشهوده ، التي طابت بها أخباره ، وحسنت فيها آثاره ، وكان محمد متخافاً بخلافه ، وذاهباً على طرائقه : علماً وديانة ، وورعاً وصيانة ، وعفة وأمانة ، وشهامة وصرامة ، وتفرداً بالخط الجزيل ، من الفضل الجميل ، والأدب الجزل ، والتوجه في الأهل ، والإيفاء في المناقب على لذاته وأترابه ، والإبرار على قرنائه وأضرابه ، فقلده ما كان داخلاً في أعمال أبيه من تقابة تقباء الطالبين بمدينة السلام وسائر الأعمال والأمصار ، شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً ، واختصه بذلك جذباً بضمه ، وإنافة بقلده ، وقضاء لحق رحمه ، وترفيهاً لأبيه ، وإسعاداً له بإيثاره فيه

ونحن نلاحظ أنه لخطر الوظيفة ، فقد عدد الكاتب المؤهلات الكثيرة والميزات البارزة التي جعلت الشريف أهلاً لهذه الوظيفة ومستحقاً لها . وفي نفس الوقت لا نستطيع أن نغفل روعة الأسلوب التي صيغت به ، ذلك أن روعته أصيلة في كتابه فضلاً عن عمده إلى التجويد فيه عمداً لما أشرنا إليه من صلته بالشريف . ويأتى القلقشندى بعدة رسائل أخرى في نفس الغرض أنشئت في العصر الذي عاش فيه أو قريبة منه وهي لا تكاد تخرج في معانيها عن معاني الصابى وإن قصرت عن أسلوبه (١) .

ومن الرسائل الطريفة — وقد أشرنا إلى ذلك قبل قليل — ما كتب في تعيين رئيس لليهود وهم : الربانيون والقراعون والسامرة ، وقد جرت العادة أن يكون الرئيس من طائفة الربانيين ، غير أنه مطالب بمعاملة الجميع على قدم المساواة (٢) . ويمكن أن تدخل في عداد الرسائل الطريفة في هذا

(١) صبح الأعشى ١١/١٦٣ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ١١/٢٨٥ وما بعدها .

الصدد أيضاً الرسالة التي يعين بمقتضاها بطرك النصارى اليعاقبة (١) :

هـ — الرسائل الأدبية الاجتماعية : وهي على كثرتها ووفرتها أقل عدداً من الرسائل الدبوانية وقد حوت أغراضاً شتى : المؤلف التقليدي ، والغريب غير المؤلف ، كتبت بأفلام نجوم كتاب العربية ابتداء من عبد الحميد حتى عصر القلقشندي ، فمن الرسائل التقليدية المألوفة موضوعاً ، رسائل كتبت في التهانئ (٢) وأخرى في التعازي (٣) أو في الاستهداء والملاطفة والاستزادة والتشوق ، والاعتذار ، والشكوى ، والشكر ، والعتاب (٤) إلى غير ذلك من الأغراض التي كانت أصلاً موضوعاً للشعر ، فلما نبغ فن الكتابة زاحم الشعر في موضوعاته وأبدع فيها وابتكر .

وهذه الرسائل بلغت من الرقة شأواً بعيداً ، وهي لصفوة ممتازة من أساتذة فن الكتابة مثل : عمرو بن مسعدة ، وكشاجم ، وأبي الفرج البغاء ، وأبي اسحاق الصابي ، وأبي العيناء ، وابن نباته ، وشهاب الدين الحلبي ، وغيرهم : ويفرد القلقشندي باباً طريفاً لنواحي التهانئ مثل تهنئة الذمي بإسلامه ، والتهنئة بالختان وخروج اللحية ، ويزيد الأمر طرافة حينما يأتي بأمثلة للتهنئة بالمرض أو التهنئة بالعزل من الوظيفة ، أو تهنئة من تزوجت أمه .

ففي مناسبة التهنئة بالمرض يتمثل القلقشندي برسالة لأبي الفرج البغاء يقول فيها (٥) : « في ذكر الله سيدي بهذا العارض — أماطه الله وصرفه ، وجعل صحته الأبد خلفه — ما دل على ملاحظته إياه بالعناية ، لإيقاظاً له من سنة الغفلة ، إذ كان تعالى لا يذكر بطروق الآلام وتنبية العظام غير الصفوة من عباده ، الخيرة من أوليائه ، فهناه الله الفوز بأجر ما يعانيه ، وحمل عنه بألطفه ثقل ما هوفيه ، وأعقب ما اختصه من ذخائر المثوبة والأجر بعافية تقتضيه ، ولا سلب الدنيا جمال بقاءه ، ولا ثقل ظله عن كافة خدمه وأوليائه » .

(١) المصدر السابق ٣٦٥/١١ وما بعدها .

(٢) صبح الأعشى ٦/١ - ٧٢ .

(٣) المصدر السابق ٨٠/١ .

(٤) نفس المصدر ١٠٠/١ وما بعدها .

(٥) الصبح ٧٦/١ .

ويأتى القلقشندى بأكثر من مثال للتهنئة بالعزل من الولاية ، وهى تقوم على حسن التعليل والتلاعب بالمعاني ، ومن ثم فإن الكاتب النابه أقدر على تصوير الرسالة الطريقة فى هذا الشأن من غيره من عامة الكتاب ، ولذلك فإن أكثر الأمثلة التى أوردها القلقشندى استعارة من نثر أبى الفرج البغواء . (١)

أما آخر غرائب التهاني فهى التهنئة بزواج الأم ، ولصعوبة موضوعها ودقته ، فإن سيف الدولة الحمدانى عند ما أراد أن يمتحن البغواء حينما تقدم للعمل فى بلاطه ، طلب إليه الكتابة فى هذا المعنى ، ويورد القلقشندى رسالة البغواء فى هذا السبيل وهى قوله (٢) : « من سلك إليك — أعزك الله — سبيل الانبساط ، لم يستوعر مسلوكا من المخاطبة فيما يحسن الانقباض عن ذكر مثله . واتصل بى ما كان من خبر الواجبة الحق عليك ، المنسوبة بعد نسبتك إليها إليك — وفر الله صياتها — فى اختيارها مالولاً أن الأنفس تتناكره ، وشرع المروعة يحظره ، لكنت فى مثله بالرضا أولى ، وبالاعتداد بما جده الله فى صياتها أخرى ، فلا يسخطنك من ذلك مارضيه وجوب الشرع ، وحسنه أدب الديانة ، ومباح الله أحق أن يتبع ، وإياك أن تكون ممن لما عدم اختياره تسخط اختيار القدر له ، والسلام » .

ولصعوبة المسألة فقد أحسننا أن البغواء رغم نباهة شأنه فى الكتابة بدا وكأنه ينحت فى صخر ، ذلك لأنه أخذ الأمر مأخذ الجد بحيث بدت الرسالة فى ثوب مواساة وليس فى ثوب تهنئة ، ولعله لم يكن قد اطلع على رسالة مماثلة فى نفس الغرض لأديب معاصر له وإن كبره سنا ، هو أبو بكر الخوارزمى الذى كتب رسالة يهنئ فيها مسكويه الأديب الفيلسوف بزواج أمه ، وهى فى غاية من الطرافة والفكاهة ، وقد عمد الكاتب فيها إلى السخرية دون الجد ، فإن مثل تلك المناسبة لا تحتل الجد ، وإن كان الشرع قد أباح هذا التصرف :

(١) صبح الأعشى ٧٧/١ - ٧٨ .

(٢) المصدر السابق ٧٩/١ .

على أن القلقشندى لم يكتف بذكر رسالة البيغاء في هذا السيل ، بل أتى برسالة في نفس الغرض للشيخ شهاب الدين الحلبي ، وهي — كرسالة كشاجم — بعيدة عن صيغة التهئة ، وإنما يسوق فيها الكاتب مبررات زواج الأم ويلتمس لذلك الأعذار والمبررات :

ومها كان الأمر من شأن الحديث عن الرسائل المتضمنة في صبح الأعشى فهو ثروة أدبية ضخمة هائلة ، وهي بعد ذلك تضع أيدينا على كثير من الحقائق الأدبية والاجتماعية والتاريخية .

إن دارس الأدب والنقد يستطيع لورث هذه الرسائل حسب زمانها أن يخرج بدراسة ممتعة عن الفكر والأسلوب الأدبيين : ويكفى أن نجري مقارنة بين رسالة عبد الحميد في الزجر والاستصلاح ، ورسالة أبي حفص ابن برد الأندلسي — والمسافة الزمنية بينهما طويلة — لنخرج بنتائج تستحق الوقوف والتأمل طويلا ، أو رسالة البيغاء في التهئة يزواج الأم ، ورسالة شهاب الدين الحلبي ؛ لننتهي إلى نفس النتيجة .

ومن الناحية الاجتماعية نستطيع أن نرى صورة المجتمع في الكثير مما كتب في هذه الرسائل : كعامله الأشراف وأهل النعمة ، وزواج الأم وتهئة المريض بمرضه والتمنى بإسلامه ، إلى غير ذلك من الصور العديدة التي يمكن استشفافها من مجموعة الرسائل التي هي في طبيعتها تصوير كامل للبيئة :

وفيما يتعلق بالملوك يمكن أن نتابع التطور في لقب الخليفة أو الملك ، فبعد أن كان يلقب بأمير المؤمنين في الصدر الأول وعند بني أمية ، تطور اللقب وصار مركبا من بضعة صفات قليلة : فإذا نظرنا في لقب الملك على عهد الدولة التركية وجدناه شيئا يدعو إلى الغرابة ، فقد أحصينا ألقاب الملك الظاهر برقوق فإذا هي ستة وثلاثون لقبا . (١)

ومن الحقائق التاريخية الأدبية أيضا أن ملوك الفرنجة المحاورين للممالك الإسلامية ؛ كانوا يتخذون وزراء لديوان رسائلهم من العرب ، يكتبون

(١) الصبح ٣٧٩/٧ ، ٢٨٠ .

رسائلهم بنفس المستوى الذى تكتب به رسائل دواوين الملوك المسلمين ، وقد أشرنا إلى رسالة ملك الفرنجة التى بعث بها متطاولا إلى يعقوب بن عبد المؤمن أمير المسلمين بالأندلس ، لقد كان وزير الملك الأسباني رجلا غريبا يقال له ابن الفخار ، ومستوى أسلوبه استهلالا وموضوعا ونهاية يسمو إلى مكانة أساليب كبار كتاب المسلمين . (١)

وإذا كان هناك ثمة مأخذ على برنامج احتواء الكتاب لهذه الرسائل القيمة ، فهى الطريقة التى اتبعها القلقشنلى فى ترتيب هذه الرسائل تحت أبوابها ، حينما عرضها حسب كلمات استهلالها وليس حسب موضوعاتها ، ولعل له فى ذلك علرا نظرا لضخامة عددها :

وبعد ، فبالرغم من ذلك فلا زال صبح الأعشى - فى نظرنا - المورد الصافى والمعلم النابه الصامت ، الذى يجلس أمامه فى وقار كل من أراد مزيدا من التأدب أو جديدا من الإمتاع .

قد يكون من التصف أن نقول إن لصبح الأعشى جانباً أدبياً ، فصبح الأعشى جوانبه كلها أدب رفيع وفكر رصين ، وهو بعد ذلك كله كنز ثمين من كنوز حضارتنا وفكريا وأدبيا وحضاريا .

(١) راجع رسالته فى صبح الأعشى ١/ ١٦٢ -

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٥٣١ لسنة ١٩٧٣

(٢٢٠٠/١٩٧٢/٢٧٤٣)

Bibliotheca Alexandrina



0684690

مطابع الهيئة المصرية

الشمس ٨٠ قرشا